

الحياة اليومية في مصر

عصر سلاطين المماليك



الحياة اليومية في مصر

عصر سلاطين المماليك

دكتور قاسم عبده قاسم

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ / ٢٠١٩ م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

c

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون	بطاقة الفهرسة
المشرف العام :	قاسم، قاسم عبده
د. قاسم عبده قاسم	الحياة اليومية فى مصر ، عصر سلاطين المماليك / قاسم عبده قاسم ط ١ : الجيزة
المدير التنفيذي :	- عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ٢٠١٩ م.
شريف قاسم	١٩٢ صفحة : ١٧*٢٤ سم
مدير الإنتاج :	تدمك . ٤١١ ٣٢٢ ٩٧٧ ٩٧٨
جمال عابد	١- مصر - تاريخ عصر سلاطين المماليك
تصميم الغلاف : القسم الفني	٢- مصر- الأحوال الاجتماعية.
	أ- العنوان

حقوق النشر محفوظة ©

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع الليوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٣٨٧١٦٩٣

Publisher : EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5 , Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 33871693

website: WWW.Dar-Ein.com/Email: darein2016@gmail.com

منشوری۔ المیزان نجین۔ المصنوعین

دفتر الطالوب العالم
اهداء

الى آدم عمرو قاسم ... حفيدى الفرحة والأمل

محمدر حنا

المحتويات

صفحة

٧ تقديم

١٣ الفصل الأول : الحياة فى المدن المصرية

مدخل- شكل القاهرة والمدن الأخرى - الأسواق فى القاهرة - الأسواق فى
الاسكندرية والوجه البحرى - دمياط -فارسكرور - المحلة الكبرى - قليوب
- بنها) الأسواق فى الصعيد (المنيا - ملوى - أخميم - إشنا - جرجا -
قوص - عيذاب) مرافق المدن منشأتها - (القيساريات والخانات والوكالات
والفنادق - الحمامات - شوارع المدن وتنظيمها ونظافتها- المسئولون عن المدن
- المساكن)

٥٥ الفصل الثانى : شكل الحياة فى المدن المصرية

كيف كانت تبدو الحياة فى المدن المصرية فى عصر سلاطين المماليك ؟

مدخل - الحرف والصناعات والمهن المعروفة فى المدن المصرية (حرف الطعام -
حرف الملابس -الحرف والصناعات الأخرى) - وسائل الترفيه والتسلية (حدائق
الحيوان -المتنزهات العامة - أرباب الملاعب - فنانو الشوارع - الحواة
والمصارعون والمثاليقون ومدربو الحيوانات - خيال الظل) الموسيقى والغناء -
اللهو غير البرىء (الخمر والحشيش -الدعارة) الجرائم (القتل - المشاجرات -
السطو المسلح - النصب - الفوضى والاضطرابات) الحرائق - الزلازل - الأوبئة
والمجاعات - إنشاء الأزيكية - الأعياد والاحتفالات .

١٠٥ الفصل الثالث : الحياة فى الريف

مدخل -أقسام مصر - الفيضان ومناسيبه - رى الحياض - طريقة الزراعة -
منشآت ضبط النهر - أهم المحاصيل -البساتين وأشجار الفاكهة - الحرف
والصناعات فى الريف - الثروة الحيوانية والداجنة - تفريخ الكتاكيت -

أسواق الريف والموالد - نقل منتجات الريف إلى أسواق الاستهلاك - المراكب
 - سكان القرية - الطعام - بيوت الفلاحين - الحياة الاجتماعية - المسئولون
 في الريف - قاضي القرية - تدهور الريف وأسبابه ونتائجه.

الفصل الرابع : تأثير السلطة على الحياة اليومية ١٤٩

مدخل - مراكب استقبال السلاطين - صلاة الاستسقاء - الاحتفال بوفاء
 النيل - احتفال دوران المحمل - الاحتفالات الخاصة- المشاركة في الأعمال
 العامة - نظام طرح البضائع - نظام التسعير- التدخل في أذواق الناس
 -إلغاء الضرائب والمكوس - التصرفات الغريبة من المسئولين - ردود أفعال
 الناس - المكتبات وسوق الكتب.

الخاتمة ١٨٢

المصادر والمراجع ١٨٧

مكتبة الباحث

محرر عثمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

"الحياة اليومية " ، عنوان يشى بالبساطة والسهولة ، بيد أن هذا العنوان مراوغ مخادع يخفى فى ثناياه عشرات العناوين الفرعية ، كما أنه يطرح من الأسئلة أكثر مما يقدم من إجابات . فالحياة اليومية فى أى مجتمع ، وفى أى زمان ومكان ، تضم الكثير من الصور المتعلقة بالجوانب المختلفة من حياة الناس : فى العمل والسكن والطعام والملابس ، وما يتيسر لهم من وسائل المواصلات ؛ فضلا عن أنواع التسلية والترفيه واللهاو ، إلى جانب الحياة اليومية للأسرة من تربية وتعليم وإعاشة وطعام وكيفية الحصول عليه ، والمرأة فى اقتصاديات المنزل والأسرة ؛ من حيث العمل المباشر فى الإنتاج وتسويق المنتج أو من خلال ما تزديه من أعمال منزلية . كذلك الحرف والصناعات التى ترتبط بها الحياة فى المدن والقرى والأسواق التى يتم عن طريقها تسويق منتجات هذه الحرف والصناعات ، وتنظيم الحياة والنشاط فى المدينة بشوارعها وأزقتها وساحاتها ، وما قد يكون بها من متزهات أو أماكن الترويح ، أو غير ذلك من الجوانب الكثيرة التى تشكل تحديات ومغريات فى الوقت نفسه ، أمام الباحثين بشكل عام ، وتطرح نفسها أمام كل من يعمل فى مجال التاريخ الاجتماعى بدرويه الكثيرة ومادته القليلة فى المصادر

ولست أزعم لنفسى سبقا ولا زيادة ؛ فقد سبقنى فى هذا المضمار أساتذة أجلاء أفاضل وزملاء كرام أهمهم وأبرزهم أستاذى الراحل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور عليه رحمة الله ، الذى فتح بكتابه الموسوم " المجتمع المصرى فى عصر سلاطين الماليك " بابا كان موصدا يخفى وراءه كنوزا معرفية رائعة فى التاريخ الاجتماعى ، وكان رائدا لمنط جديد من نقاط الكتابة التاريخية عن عصر سلاطين الماليك الغنى بالأحداث والظواهر الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية . وعلى خطى الأستاذ سار باحثون كثر تناولوا جوانب متنوعة من تاريخ مصر الاجتماعى فى ذلك الزمان . ومع ذلك فإبنى أزعم أنه ما يزال هناك الكثير والكثير مما يستظر

الباحثين للكشف عن خفاياه فى مجال تاريخ مصر الاجتماعى فى ذلك العصر المثير والثرى .
 وقد استسلمت لإغراء موضوع "الحياة اليومية فى مصر - عصر سلاطين المماليك " بأمل أن أقدم
 هذا الموضوع الشائق الشانك من زاوية جديدة تقوم على السرد والتحليل مقتفيا نشاط الناس ،
 صناع التاريخ الحقيقيين، مبينا قدر الإمكان كيف كانوا يواصلون حياتهم فى مواجهة مصاعب
 كل يوم والتحديات التى كانت تفرضها عليهم هذه الحياة ، وكيف كانوا ينتجون ثقافتهم بكل
 جوانبها المادية واللامادية ، ويتفاعلون مع عاداتهم وتقاليدهم ، ويصوغون حياتهم فى إطارها
 التاريخى وفقا لمعطيات زمانهم : أفراحهم وأتراحهم ، إنجازاتهم ومشكلاتهم ، والمثل والقيم التى
 تحركهم ، والجرائم التى تروعوهم وتقض مضاجعهم ؛ فضلا عن فهمهم لأنفسهم ولدينهم ودين غيرهم،
 والصعوبات التى واجهتهم فى بعض الأوقات أو الرفاهية والوفرة التى نعموا بها فى أوقات
 أخرى... وهكذا.

ومن ناحية أخرى ، لا يتناول هذا البحث الجوانب السياسية فى هذا العصر؛ سواء من حيث
 بناء السلطة التى جاءت بها ظروف نشأة دولة سلاطين المماليك العسكرية تماما ، أو من حيث
 علاقتها بالناس الذين كانت تحكمهم ، أو من حيث الظروف التى طرأت عليها التغيرات
 والتطورات طوال فترة تقرب من ثلاثة قرون عاشتها هذه الدولة . وهو ما جعل المؤرخين يتحدثون،
 غالبا ، عن دولتين لعصر سلاطين المماليك ، لا عن دولة واحدة ^١العصر الأول ، عصر سلاطين
 المماليك البحرية ، والعصر الثانى ، عصر سلاطين المماليك الجراكسة . وقد تميز كل عصر منهما
 عن العصر الآخر فى كثير من جوانب الحياة ^٢بحيث يعد العصر الأول ، بشكل عام ، عصر
 صعود ورقى وتقدم ، كانت الدولة فيه تواجه تحديات العلاقات الخارجية بكفاءة واقتدار ، وظهر
 فيه السلاطين العظام مثل : الظاهر بيبرس البندقدارى ، والمنصور قلاوون ، والأشرف خليل بن
 قلاوون... وغيرهم . وكانت السمة العسكرية للدولة تجدد مبررا لها فى بنينائها العسكرى الذى
 صاحب نشأتها من ناحية ، والذى استمر يساعد الدولة على القيام بواجبها فى الدفاع عن المنطقة
 العربية والعالم الإسلامى من ناحية ثانية . فضلا عن أن نظام الدولة كان مازال قائما على أسس
 سلبية منضبطة جعل التوجه العام للدولة يخدم أهداف الدولة والمجتمع بشكل يتسق مع ما كان
 يريد السلاطين والناس آنذاك . ومن ناحية أخرى ، كانت الإنجازات على المستوى الداخلى رائعة
 بكل المقاييس ؛ فقد قام النظام القانونى والقضائى على أسس راسخة ؛ فلم يكن السلاطين العظام
 يسمحون لأنفسهم بالانتقاص من قدر القضاء ، أو إهانة القضاة ، أو الاستهانة بقيمة العدل

وأثرها الإيجابي على الدولة والمجتمع بشكل عام . كما أن العلم والعلماء حظوا برعاية كريمة تثلت في ذلك العدد الكبير من المؤسسات التعليمية بكل مراحل التعليم من التعليم الأولى حتى التعليم العالى . وانتشرت المدارس التى كانت تعادل الجامعات والمعاهد العليا فى مصطلحنا المعاصر . وقد نعمت الحياة اليومية بالثمار الحلوة لهذا كله ؛ فقد نمت المدن المصرية وتوسعت وكثرت بها المؤسسات ذات الوظيفة الاجتماعية ، أو الدينية أو الاقتصادية وتنوعت فيها الحرف والصناعات والمهن ، وازدهرت حرف الفخامة والرفاهية ، وتمتع المجتمع بالوفرة التى نتجت عن تجارة المرور الآمنة المستقرة الرائجة فى ظل السلام الذى وفرته الدولة تحت قيادة أولئك السلاطين العظماء . وعاش الناس حياتهم فى دعة وسلام نسبى بمقاييس تلك العصور بشكل عام ، مع استثناء الفترات التى شهدت اغتصاب السلطة من جانب بعض الطامعين والمغامرين ، أو تولى بعض الصغار شئون الحكم قهرا واغتصابا .

ثم جاء العصر الثانى لدولة سلاطين المماليك ، ليكون عصر ذبول وتدهور بشكل عام ، كنفقد اختل النظام الذى قامت عليه الدولة فلم يعد نظام تربية المماليك وتدريبهم بنفس القدر من الانضباط والصرامة التى عرفها العصر الأول ، ولم يلبث أن تم الاستغناء عن ذلك النظام لصالح ما عرف باسم المماليك الأجلاب الذين تسببوا فى المزيد من الفوضى والاضطراب وتسببوا فى إشاعة الفوضى وكثرة حالات التمرد على السلاطين الضعاف ، وصاروا يقومون بأعمال السلب والنهب داخل البلاد ، وياتوا عبثا على البلاد والناس حتى بدأ الناس مقاومتهم بشكل إيجابى . ولم يعرف العصر الثانى من السلاطين الكبار الأكفاء سوى عدد محدود جدا . ويبدو أن دور الدولة العسكرية لم يعد مناسباً بعد نجاح الدولة الأولى فى القضاء على المخاطر الخارجية؛ سواء من جانب المغول أو بعد القضاء على الوجود الصليبي فى المنطقة العربية سنة ٦٩١ هجرية/١٢٩١م على يد الأشرف خليل بن قلاوون . ونتيجة لعدة تطورات تاريخية تحول المماليك والمؤسسة العسكرية المملوكية إلى فرق من المرتزقة بسبب زيادة عدد الأجلاب الذين لم يكونوا قد تلقوا تعليماً مناسباً يربطهم بالمجتمع أو الدين ؛ بل إنهم لم ينالوا التدريب المناسب عسكرياً ؛ فضلاً عن أنهم فى الغالب الأعم لم يكونوا يعرفون اللغة العربية . وهكذا ، لم يستطع المماليك الحفاظ على المجتمع الذى كان المفروض أنهم المسؤولون عن حكمه وحمايته ، وتحولت علاقتهم به إلى علاقة نهبية ، وتحولت فرق المماليك المتقائلة إلى ما يشبه عصابات البلطجية الذين يسرقون الناس بكل الوسائل المعروفة والتى ابتكروا الجيد والغريب منها . وسادت الألوان القائمة

صورة المجتمع المصرى فى ذلك العصر . وما زاد الأمر سوءاً أن القضاء قد فسد وفقد هيئته وصار القضاة عرضة للإهانات والضرب أمام السلاطين أو غيرهم من رجال الدولة ، وكثيراً ما أخبرتنا المصادر عن عقوبات مهينة تعرض لها بعض القضاة ، ولأن مناصب القضاء وغيرها من المناصب المتصلة بالقانون والنظام باتت تباع وتشترى بالرشوة و"البذل والبرطلة " ، فقد كان طبيعياً أن يبتعد أصحاب الكفاءة والعلم ويفسحوا الطريق للجهلة وعديمى الخبرة والضمير مما أدى إلى المزيد من اقتراب النهاية . وقد صاغ الشعراء قصائد كثيرة حول فساد القضاء والقضاة ، وأخذ الناس يتداولون تلك القصائد فى الأسواق والحمامات وأماكن اللقاء العامة ، وعبثاً حاولت السلطات منع ذلك ، وتفرغ القضاء للكيد لبعضهم البعض . ولم ينج التعليم ، أو الثقافة بشكل عام من التدهور والذبول ... وشكل مخيف تسارعت مظاهر الخيبة والفشل فى كل نواحي الحياة الاجتماعية . وهكذا انتهت الدولة الثانية (عصر الجراكسة) بعد أن وصل التدهور مداه فى العقد الثانى من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى .

* * *

بدأ عصر سلاطين المماليك بمعركة وانتهى بمعركة . فقد بدأ سنة ٦٤٨ هجرية / ١٢٥٠ م ، بدحر الحملة الصليبية التاسعة وأسر قائدها الملك الفرنسى لويس التاسع وتشيتت جيشه وتدميره فى المنصورة وفارسكور . كان ذلك إيذاناً بصرخة الميلاد التى أعلنت قيام هذه الدولة القوية تحت قيادة السلطنة "شجر الدر" . وانتهى عصر سلاطين المماليك بسقوط السلطان قانصوه الغورى تحت سنايك الخيل فى ميدان المعركة الأخيرة التى خاضتها جيوش هذه الدولة ضد العثمانيين ، وعبثاً حاول السلطان طومانباي ، آخر المماليك ، المقاومة ولكن قدره المحتوم انتهى به معلقاً فى مشنته على باب زويلة لينهى فى ذلك اليوم من أيام سنة ٩٢٢ هجرية / ١٥١٦ م عمر الدولة التى استمرت حوالى ثلاثة قرون كانت فى أثنائها دولة إقليمية قوية معظم الوقت ، وحكمت مصر والشام وأعالى العراق والحجاز واليمن فقد كان السلطان المملوكى حامى الحرمين الشريفين فى الحجاز ، والمسجد الأقصى ومقام إبراهيم الخليل وغيره من المقدسات الإسلامية والمسيحية فى فلسطين وكانت لمصر كلمة مسموعة فى جميع أنحاء العالم المسلم بعد أن نجح السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى فى إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة بعد أن أسقط المغول الخلافة العباسية ودمروا عاصمتها بغداد ومن ناحية أخرى ، صارت القاهرة بمثابة الحصن الأخير للحضارة العربية الإسلامية فباتت ملاذاً لكل هارب من طغيان المغول فى الشرق ، ومن سوء الأحوال السياسية

والمعيشية فى الغرب نتيجة لتقدم الكاثوليك على حساب المسلمين فى الأندلس . وجاء إلى القاهرة العلماء والأطباء ، والصناع والفنانون ، والشعراء والموسيقيون ، والتجار والساعون وراء الفرص فى كل مكان وفى كل مجال ، وازدهر فيها الشعراء والمغنون والمغنيات والموسيقيون ، وجاء إليها كل مبدع بفنه . وفى القاهرة تقدمت إنجازات المؤرخين واللغويين والفلاسفة والفقهاء والمحدثين ... وغيرهم . وتقدمت أساليب الحرب والسياسة والدبلوماسية والقانون والتعليم وازدهرت المكتبات وصناعة الكتب والوراقة والكتبيين ... وما إلى ذلك .

ولكن فترة السنوات الأخيرة من عصر سلاطين المماليك (من منتصف القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى تقريبا) ، كانت فترة تدهور مطرد على كل المستويات . بيد أن السنوات الخمسين الأخيرة من عمر هذه الدولة ، كانت بمثابة مرحلة النزاع الأخير قبل موت الدولة . فقد تناقص عدد السكان بمعدلات مخيفة ، وانكمشت مساحات المدن المصرية ؛ إذ تقلصت القاهرة إلى ١٦:١ من مساحتها السابقة فى أوائل ذلك العصر ، واختفت قرى بأسرها فى مصر ، وفى المدن المصرية الأخرى اختفت أحياء ومناطق كاملة فى الاسكندرية ، والمحلة الكبرى ، وأبيار ، ودمياط وغيرها من مدن الوجه البحرى والصعيد ؛ ناهيك عن الفساد السياسى والرشوة ، وتحولت الدولة إلى وحش لا يستحق الإنقاذ ، وتحول الحكم إلى عصابة من اللصوص يمارسون القهر والاعتصاب تحت حماية مناصبهم ، ومن جهة أخرى ، أخذ الناس فى المقاومة بحسب إمكانياتهم ؛ فانتشرت عصابات اللصوص المنظمة (المنسر حسب تعبير ذلك العصر) فى أنحاء البلاد ، وكانت بعض هذه العصابات تضم عددا كبيرا من اللصوص ؛ بل إنها فى بعض الأحيان كانت تضم بعض الخيالة إلى جانب المشاة وربما زادت أعداد بعض عصابات المنسر على مائة فرد بين راجل وراكب ، وكانوا يهاجمون الأسواق والوكالات والخانات فضلا عن البيوت الخاصة وتعددت حوادث السرقات وتواترت أخبارها وتكررت فى مصادر الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك بصورة لافتة للنظر ؛ فقد تكررت حوادث نهب الدكاكين وما فيها من بضائع أو أموال ، ولم تكن السلطات قادرة ، أو راغبة ، فى أن تولي اهتمامها لأمن الناس مثلما كان يحدث فى زمن الظاهر بيبرس أو أمثاله من السلاطين العظام .

ومن ناحية أخرى ، فشل أهل العمامة فى أداء دورهم التقليدى لحماية الناس وصيانة الشرع والقانون والنظام ، أو القيام بدور الوساطة الإيجابية بين السلطان والرعية ؛ وتفرغوا لنفاق السلاطين فى الفترة الأخيرة ، وتباروا فى الدس لبعضهم البعض عند أصحاب السلطة والسطوة .

وانصرفوا بكل وسائلهم المشينة للمنافسة على نيل الوظائف العامة بالرشوة والمحسوبية ، دون التسلح بالعلم أو الدين ، ويات الجهل والفساد والظلم وانعدام الكفاءة عنوان القضاء وغيره من الوظائف العامة . ولم تلبث دولة سلاطين الماليك ، التى كانت ملء السمع والبصر على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون ، أن سقطت فى معركة واحدة وضاعت جثة السلطان تحت سنابك الخيل ، وضاعت الدولة نفسها تحت وطأة الظلم والفساد مثلما ضاعت جثة سلطانها .

* * *

هذه الدراسة تركز على جوانب الحياة اليومية فى مصر عصر سلاطين الماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧م) وسوف تقتصر على حياة الناس العاديين اليومية ، وما كان يحيط بها من الظروف البيئية والطبيعية والسياسية والاقتصادية ، سلبية أو إيجابية ، ومدى تأثير الناس بها ، أو تأثيرهم فيها ، دون الدخول فى تفاصيل تلك العوامل المختلفة . وسوف نعتمد فى هذه الدراسة على كل المصادر المتاحة فى محاولة لتقديم صفحة من تاريخ مصر فى ذلك العصر النابض بالأحداث من زاوية جديدة فى إطار التاريخ السردى والأسلوب التحليلي ، اعتمادا على كتب التاريخ والأدب والسير الشعبية وألف ليلة وليلة ، فضلا عن الآثار الموجودة بين جنبات القاهرة وغيرها من المدن المصرية ، إلى جانب الخبرات الشخصية التى اكتسبتها طوال نصف قرن من الزمان قضيتها فى البحث ودراسة هذه الفترة المهمة فى تاريخ مصر والمنطقة المحيطة بها .

والله الموفق المستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

مدينة ٦ أكتوبر يناير ٢٠١٩

الفصل الأول

الحياة فى المدن المصرية

مدخل- شكل القاهرة والمدن الأخرى - الأسواق فى القاهرة -
الأسواق فى الاسكندرية والوجه البحرى - دمياط -خارسكور - المحلة
الكبرى - قليوب - بنها) الأسواق فى الصعيد (المنيا - ملوى -
أخميم - إسنا - جرجا - قوص - عيذاب) مرافق المدن منشأتها
- (القيساريات والمخانات والوكالات والفنادق - الحمامات - شوارع
المدن وتنظيمها ونظافتها- المسئولون عن المدن - المساكن)

ترى ماذا كان شكل الحياة اليومية فى المدن المصرية فى عصر سلاطين المماليك ؟

كان شكل الحياة اليومية فى المدن المصرية فى ذلك العصر يختلف من مدينة لأخرى بحسب
الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية، وما ينتج عن ذلك بالضرورة من تأثيرات على شكل
الحياة فى تجلياتها اليومية، كانت الحياة والعادات والتقاليد تحكم الناس. وغنى عن القول إن
ظروف الحياة كانت تختلف فى القاهرة عنها فى مدينة الاسكندرية، أو المحلة الكبرى، أو دمياط،
أو قرص أو غيرها. وكان ذلك الاختلاف راجعا فى الغالب إلى الظروف السياسية والاجتماعية
والاقتصادية التى تمر بها مدينة ما، أو مدينة غيرها . كما أن شكل الحياة اليومية كان محكوما
بكل ما يمر على هذه المدينة، أو تلك، من تطورات مختلفة ومتنوعة. ذلك أن القاهرة كانت عاصمة
السلطنة؛ ومن ثم كان طبيعيا أن تكون مركز النشاط السياسى والاقتصادى والثقافى والعلمى
والدبلوماسى من جهة، وأن تعكس تطورات الحياة بها كافة الأحوال السلبية والإيجابية التى تمر
بها الدولة على كافة المستويات من جهة أخرى ،

وقد وصف الرحالة المسلم الأشهر، ابن بطوطة، القاهرة بعبارات بليغة فقال : « .. ثم وصلت
إلى مدينة مصر، وهى أم البلاد، وقرارة فرعون ذى الأوتاد، ذات الإقليم العريضة، والبلاد

الأرضة، المتناهية فى كثرة العمارة، المتناهية بالحسن والنضارة، ومجمع الصادر والوارد، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها، شبابها يجد على طول العهد... ولها خصوصية النيل الذى أجّل خطرها، وأغناها عن أن يستمد القطر من قطرها ...^(١).

بهذه الكلمات الرائقة، وصف ابن بطوطة مدينة القاهرة فى عالم القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى؛ ولكن القاهرة لم تكن تمثل النمط السائد آنذاك بين المدن المصرية بطبيعة الحال، كما لم تكن كذلك دائماً. فقد تباينت أحوال هذه المدن بشكل واضح فى عصر سلاطين المماليك، وتراوحت حظوظها صعوداً أو هبوطاً بسبب التطورات التى جرت عليها، كما أن هذه المدن كانت بعضها مدناً ساحلية على ساحل البحر المتوسط أو البحر الأحمر، وأكثرها على شاطئ نهر النيل، وبعضها على حواف الصحراء والبعض الآخر وسط المناطق الزراعية فى الدلتا؛ وهو ما يُعنى أن التطور التاريخى لهذه المدن قد اختلف من مدينة لأخرى بحسب الاعتبارات والظروف المختلفة التى مرت بها. بيد أن الحياة فى المدن المصرية بوجه عام كانت تختلف عن الحياة فى الريف حيث تختلف الأحوال المعيشية من ناحية، وتختلف طبيعة البناء السكانى من ناحية ثانية، وتتفاوت تأثير الظروف البيئية من ناحية ثالثة. هذا إلى جانب تأثير التكوين السياسى والوضع الاقتصادى والاجتماعى على كل من الحضر والريف فى ذلك العصر الثرى المثير .

وبجدر بنا أن نبدأ الحديث عن مدينة القاهرة ونحن فى بداية العصر، بعد أن تلاشت مخاطر البداية لتستقر الدولة الفتية، بعد ما تولى زمام السلطة بها حاكم قوى قادر هو السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى، الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك، ويرجع إليه الفضل فى وضع نظمها وتقاليدها السياسية والإدارية التى ورث أكثرها عن العصر الأيوبرى. وقد حافظ الظاهر بيبرس على النظام المملوكى الذى كان قد وضعه سيده السابق السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. فقد جلس بيبرس فى العاصمة التى كانت مقر الحكم للدولة القوية التى حكمت مصر وبلاد الشام وأعالى العراق والحجاز واليمن، وكانت لها السيادة الإسمية على مناطق كثيرة من عالم الإسلام آنذاك. ولنبدأ دراستنا بهذه العاصمة التى عبر ابن بطوطة عن رؤية الكثيرين من معاصريه لها .

وصف المؤرخ «تقى الدين أحمد بن على المقرئى» (ت سنة ٥٤٨هـ جرية) القاهرة واستعرض أحياءها ومساجدها وجوامعها، وأسواقها ومنتزهاتها، وحماماتها، وأسبلتها وخاناتها ووكلاتها وفنادقها، وشوارعها وحراراتها وأزقتها، بصورة دقيقة فى كتابه المدهش الموسوم «المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» والمعروف بالخطط المقرئية. بيد أن أهم ما ذكره عن القاهرة فى تصورى جاء وهو يتحدث عن تنظيم القاهرة أو تخطيطها فى زمانه ؛ إذ قال : «... فالشارع الأعظم قصبة القاهرة من باب زويلة إلى بين القصرين ، ويسلك منها إلى الركن المخلق ورجبة العبد، إلى باب النصر، وذات البسار، ويسلك منها إلى الجامع الأحمر، وإلى حارة برجوان ، على باب الفتوح...»^(١٢). ومن هذا الوصف نستطيع أن نتصور شكل القاهرة فى ذلك الزمان ؛ إذ كان يشتمل شارع أساسى هو قصبة المدينة الذى كان يشق المدينة من أقصاها إلى أذناها ، ومنه كانت تنفرع الشوارع الجانبية والحرارات (التي كانت تضم أحياء كاملة لها بوابات مخصوصة تغلق ليلا على سكانها ، ويتولى حراستها حراس مسئولون عن الأمن وحفظ أرواح سكانها وأملاكهم) وتضم فى جنباتها كافة المعالم المختلفة والمشاهد والمنتزهات، وأماكن الفرجة والتسليه. وفى عصر سلاطين المماليك، كانت القاهرة قد توسعت بحيث ضمت الفسطاط فى رحابها؛ وهو ما جعل المعاصرين يتحدثون باستمرار عن «مصر والقاهرة» فى إشارة إلى القاهرة والفسطاط (أو مصر القديمة على حد تعبير بعضهم) .

ومن المهم أن نشير إلى أن العاصمة المصرية فى ذلك الحين لم تكن أحياءها موزعة بحسب الطبقات الاجتماعية للسكان^(١٣)، أو درجة الثراء أو الفقر ، ولم تكن هناك أحياء خاصة بالأثرياء وعلية القوم والوجهاء والأعيان ، وأخرى مخصصة لأصحاب الحرف والمهن والصنائع المختلفة التى يحتاجها المجتمع ، أو أحياء تضم الفقراء^(١٤). وكان السبب فى ذلك راجعا إلى ظروف المواصلات فى ذلك العصر ؛ فقد كانت الحمير وسيلة المواصلات الوحيدة المتاحة ، وكان الانتقال من أحد أطراف المدينة إلى الطرف الآخر يمكن أن يستغرق النهار بطوله فى رحلة الذهاب فقط ، وهو ما لا يمكن أن يكون أمرا عمليا من ناحية، وفرض على الناس أن يسكنوا فى أماكن قريبة من أعمالهم من ناحية أخرى . ولم يكن هذا يعنى أن هناك نوعا من المساواة الاجتماعية ، فذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة التاريخية ؛ ولكن كانت تفرقة كبيرة فى السكن من نواحى أخرى . فقد كانت بيوت الأمراء والأثرياء والوجهاء وكبار التجار فاخرة فى تجهيزاتها ومبانيها ولكنها لم تكن فى أحياء

خاصة بها . ويمكن أن نستدل على صحة هذا القول من المميزات التى نراها فيما بقى من بيوت ذلك العصر التى نجت من عوادي الزمان . أما الحرفيون والصناع وأصحاب الحوانيت والورش فقد كانوا غالبا ما يسكنون فى المباني التى عرفت باسم الأرباع (مفردها ربع) والتى كانت الأدوار السفلى منها تخصص للورش أو المتاجر أو الوكالات والخانات، وفوقها توجد المساكن التى تكون المرافق المحيية فيها مشتركة وما تزال بعض نماذجها موجودة فى منطقة الجمالية بالقاهرة القديمة حتى اليوم .

وكانت القاهرة فى ذلك الزمان مدينة كبيرة واسعة فاقت مدن العالم المعاصر من حيث مساحتها وعدد سكانها ، ويقدر أحد الباحثين المحدثين عدد سكان القاهرة فى منتصف القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى بحوالى ستمائة ألف نسمة ^(٣) . وهو تقدير يبدو معقولا فى ضوء ما نعرفه من أن سكان مصر كلها كان عددهم حوالى ثلاثة ملايين نسمة . وكان عدد سكان الريف (الذين يشكلون غالبية السكان فى كل عصور التاريخ المصرى) ، موزعا بين ألفين وخمسمائة قرية فى مختلف أنحاء مصر . ^(٤) وقد كانت هناك أسباب تاريخية موضوعية وراء هذه الزيادة السكانية فى مصر آنذاك ، والنمو السكانى فى القاهرة فى ذلك الزمان ، تمثلت فى الهجرات الكثيرة التى نزحت إلى القاهرة ومصر عموما هربا من المذابح الجماعية المرعبة التى نتجت عن الغزو المغولى للعراق والشام من ناحية ، كما كانت مصر مقصدا وملادا لكثير من الهجرات التى وفدت من بلاد المغرب الإسلامى بسبب الهجمات الكاثوليكية على مسلمى الأندلس من ناحية ثانية ؛ فضلا عن الذين هربوا من وطأة الظروف السياسية المعاكسة فى هذه البلاد من ناحية ثالثة، وكان من أبرزهم عبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة الشهيرة التى ضمت فلسفة التاريخ الإسلامى التى جسدها فى كتاباته .

وقد انعكس هذا النمو السكانى فى العدد الكبير لأسواق القاهرة وسائر المدن المصرية آنذاك، وفى حال الرواج الاقتصادى التى نعمت بها البلاد ممثلة فى الأسواق، وتنوع البضائع والمتاجر الموجودة بها ، والتى كانت ترد من أركان الدنيا المعروفة فى ذلك الحين، كما تمثلت فى قوة العملة المصرية وثباتها فى الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك. وقد جاء فى وصف القاهرة على لسان المؤرخ تقي الدين المقدسى فى خططه الشهيرة ذكر لمعظم أسواق القاهرة وغيرها فى زمانه باعتباره شاهد عيان عرف وعاصر تطورات تلك الأسواق. ولما كانت وفاة المقدسى سنة ٥٤٨

هجريه/١٤٤٢م (أى فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى)؛ فان هذا يعنى أن مؤرخنا عاصر الفترة الانتقالية ما بين الرخاء الذى نعمت به البلاد فى العصر المملوكى الأول، وفى أعقابه، وما حدث من أحداث مأساوية بعد العقد الأخير من هذا القرن، والتى تسببت فى خراب الكثير من مرافق البلاد، وأسواقها ومنشآتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية؛ فضلا عن توقف النمو، ثم، التراجع والتدهور على كل المستويات وتحلى واضحا فى كل جوانب الحياة فى المدن المصرية عامة، وفى العاصمة القاهرة على وجه خاص . فقد انكمشت المدينة، التى وصفها ابن بطوطة والرحالة والزوار الأجانب فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى بعبارات تفيض إعجابا وتنطق بالانبهار، إلى ١ : ١٦ من حجمها حسب تقديرات بعض الباحثين .

وصف المقرئى أسواق القاهرة فى ذلك الزمان، وذكر أسماء معظم هذه الأسواق وقال إن أهمها كانت «سوق القصبة» التى يبدو أنها كانت السوق الرئيسية فى القاهرة آنذاك، والتى كانت تقع فى الشارع الرئيسى الذى يشق القاهرة من الجنوب إلى الشمال (ما بين باب زويلة إلى باب الفتوح) . وفى كلامه عن تلك السوق، قال إنها «أعظم أسواق القاهرة» وقد أدرك بعض المعمرين من الناس الذين أخبروه أنه كان يضم اثنى عشر ألف حانوت... ما بين أول الحسينية إلى المشهد النفيسى «وأنه شاهدها عامرة بالحوانيت التى تباع كل أنواع الطعام والشراب وغير ذلك من الآمتعة التى ... تبهج رؤيتها ويعجب الناظر هيئتها» وذكر المقرئى أسماء معظم أسواق القاهرة إلى جانب ما ذكره عن سوق القصبة منها: سوق الخلعين، سوق الحدادين، سوق الحجارين، سوق الأنماطين، سوق الأخفافين، سوق الصوافين، سوق القصارين (أى الذين يتولون تبييض التماش) ، سوق الفحامين، وسوق الغرابليين (وهى السوق التى تغير اسمها فى عصرنا إلى المغربلين)، وسوق المناخليين، سوق الضبييين (أى صناع الأقفال)، وسوق السراجين، وسوق الشوايين، وسوق القفاصين، وسوق الطيورين، وسوق الأكفانيين، وسوق الوراقين ، وسوق الفاميين، وسوق الكعكيين ، وسوق القطنيين ، وسوق الشراشييين (والشربوش غطاء للرأس كان بدون زر)، وسوق العطارين ، وسوق الكفتيين (أى الذين يكفتون النحاس بأسلاك الذهب أو الفضة)، وسوق الصيارف، وسوق البندقانيين، وسوق الفرايين (أى بائعى الفراء)، وسوق الحلاويين ، وسوق الجوخيين ، وسوق اللجميين، وسوق المهامزين، وسوق السقطيين (أى الذين يبيعون أحشاء الحيوانات المذبوحة وأمعائها وما إلى ذلك) ، وسوق القشاشين ، وسوق الخراطين،

وسوق الخبميين ، وسوق الحريريين ، وسوق المتعشين ، وسوق الأمشاطيين، وسوق السيوفيين، وسوق الشماعين، وسوق الدجاجين، وسوق التبانين، وسوق القماحين، وسوق الجملون الصغير التي كان بها عدة حوانيت للبرازين الذين يبيعون أصناف القماش المختلفة^(٥).

ومن استعراض أسماء هذه الأسواق، يتضح لنا أن بعضها كان مخصصا لإنتاج مصنوعات بعينها ، والبعض الآخر لبيع أصناف الطعام والشراب على اختلاف أنواعها، والنوعية الثالثة لإنتاج وتسويق حاجات الناس فى حياتهم اليومية . ومن البديهي أن هذه لم تكن كل أسواق القاهرة ، ولا كل أسواق البلاد ؛ فقد كانت هناك أسواق أخرى ذكرها المقرئى وغيره فى طبقات الحديث عن القاهرة والفسطاط أو غيرها من المدن المصرية فى ذلك العصر. ومن ناحية أخرى، تحدث من جاءوا بعد المقرئى عن ما جرى على الأسواق من تطورات فى هذه المدن؛ فضلا عن الرحالة الذين زاروا مصر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ومن المؤرخين ابن إياس الذى كان المؤرخ الوحيد الذى عاصر الفترة الأخيرة من عمر دولة سلاطين المماليك ووصف لنا أحداثها وتطورات الحياة التى كانت تحدث عشية سقوط الدولة وأثناءها وبعدها مباشرة (القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى)^(٦).

ومن ناحية أخرى، قدم المقرئى وغيره وصفا لبعض أسواق القاهرة ونشاطها (ولكن أحدا لم يجاربه من حيث الدقة والتفاصيل). فعند حديثه عن «سوق الجوخيين»، مثلا ، يقول إن هذه السوق كانت مخصصة لجلب الجوخ من بلاد الفرنج لعمل المقاعد والستائر وثياب السروج للخيال والبغال وغواشيها ، ولم يكن هناك من المصريين من يلبس الجوخ حسبما شاهده المقرئى فى مطلع حياته؛ لأنهم كانوا يأنفون من لبسه؛ ولكن تغير الحال ألجأهم إلى لبسه كما شهد مؤرخنا بنفسه^(٧). كذلك تحدث عن التطورات التى جرت على «سوق العنبريين» التى كانت سوقها رائجة «... وللناس فيه رغبة زائدة...» بحيث كانت المرأة، مهما كانت حالها الاجتماعية متدنية، تحرص على أن تضع حول جبهتها قلادة من عنبر ولكن الغش زاد فى العنبر مما أدى إلى خراب سوقه^(٨). ومن الأسواق التى ارتبطت بالحياة الاجتماعية أيضا، سوق الخراطين الذى قال إنها كانت سوقا كبيرة معمورة الجانبيين «... بالحوانيت المعدة لبيع المهدي الذى يربى فيه الأطفال...»^(٩).

ومن ناحية أخرى، تحدث تقى الدين المقرئى عن «سوق باب الفتوح» التى قال إنها من أجمل

أسواق القاهرة وأعرها .. معمر الجانيين بحوانيت اللحامين والخضريين والفامين والشرابية وغيرهم ..» وذكر أنها كانت مقصد الناس لشراء اللحم الضأن بأنواعه، ولحم البقر، ولحم الماعز، ولشراء أنواع الخضروات ..»^(١١) وقال إنه عاصر «سوق حارة برجوان» التى كان هو وأقرانه فى شبابهم يفاخرون بها سكان جميع حارات القاهرة، وكانت سوقا معمورة الجانيين بالعدة الوفرة من بيعاى لحم الضأن السليخ، وبه عدة كثيرة من الزياتين واللبنان والطباخين والشوايين والبواردية (وهم بانعو الطيور المملحة المحفوظة والمخللات أو الطرشى) والعطارين والخضريين ... وكان به حانوت لا يباع به الا حوائج المائدة : وهى البقل والكراث والشمار والنعناع^(١٢) . ويضيق بنا المقام فى هذا الفصل لو أسرفنا فى الحديث عن الأسواق. ونحيل القارىء الكريم إلى كتابنا فى هذا الموضوع فسيجد فيه تفصيلات قد ترضيه^(١٣) .

وهناك معلومات انفراد بها المقرزى فى خطته تضيف الكثير إلى ملامح صورة الحياة اليومية فى مصر بشكل عام والقاهرة بشكل خاص :فهو يحدثنا عن أن باعة لحوم الطيور المقلاة كانوا يجلسون صفا من باب المدرسة الكاملية إلى المدرسة الناصرية بعد صلاة العصر .. فيباع لحم الدجاج المطجن ولحم الأوز المطجن .. وتباع أيضا العصافير المقلاة^(١٤) ويبدو أن القاهريين كانوا يتقبلون على لحوم هذه الطيور بدليل وجود ذلك الصف الطويل من الباعة يبيعونها داخل القاهرة. ومن ناحية ثانية، تحدث ابن الصيرفى فى كتابه «إنباء الهصر بأبناء العصر»^(١٥) عن أنواع الجبن الذى كان سكان القاهرة آنذاك يأكلونه وعن أنواع أخرى من الأطعمة المعروفة لديهم؛ فذكر من أنواع الجبن: الحالوم ، والأززار ، والمشوى ، والمقلّى، كما ذكر عسل النحل، والسيرج، والزيت الطيب والزيت الحار. وبطبيعة الحال كانت هناك أنواع أخرى لم يرقم ابن الصيرفى بإحصاء لها. وقد ذكر ابن دقماق أن مدينة قليوب كانت تمد أسواق القاهرة بمعظم حاجاتها من الفواكه والألبان ومنتجات الألبان من الزبد والجبن وغيرها. ومن هذه الإشارات وغيرها نستطيع أن نتعرف على درجة الرفاهية التى كانت القاهرة، ومصر عامة، تنعم بها من حيث وفرة الطعام وأنواعه التى كانت تزخر بها الأسواق .

وقد أكد المقرزى هذا الانطباع عندما تحدث عن ازدهار الأسواق بأنواع البضائع الموجودة بها، ثم تحدث عن أن الناس بمصر كانوا .. يفاخرون ويقولون: يرمى بمصر كل يوم ألف دينار ذهباً على الكيمان والمزابل، ويعنون بذلك ما يستعمله الجبانون واللبنون والطباخون من الشفاف

الحمر التى يوضع فيها الجبن، والتى يأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين، وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشفاف، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق المقوى والخيط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها من الحبوب والأقارب وغيرها»^(١٥).

وارتبطت بعض الأسواق بعادات المصريين من ناحية، وكان البعض الآخر من تلك الأسواق يرتبط ببعض صور الحياة المصرية من ناحية أخرى. فعندما تحدث المقرئى عن «سوق الشماعين» قال: «... أدركت سوق الشماعين من الجانبين معمر الحوانيت بالشموع الموكبية، والفانوسية، والطوافات، لا تزال حوانيته مفتحة إلى منتصف الليل، ويجلس به فى الليل بغايا يقال لهن «زعيرات الشماعين» لهن سيماء يعرفن بها، وزى يتميزن به؛ وهو لبس الملاءات الطرح، وفى أرجلهن سراويل من أديم أحمر، وكن يعانين الزعارة، ويقفن مع الرجال المشالقين فى وقت لعبهم، وفيهن من تحمل الحديد معهم ... وكان يباع فى كل ليلة من الشمع بمال جزيل ... وكان يعلق بهذه السوق الفوانيس فى موسم الغطاس؛ فتصير رؤيته من أنزه الأشياء. وكان بها فى شهر رمضان موسم عظيم لكثرة ما يباع من الشموع الموكبية التى كانت تؤجر أيضا، التى تزن الواحدة منهن عشرة أرتال فما دونها، ومن المزهرات العجيبة الزى، المليحة الصنعة، ومن الشمع الذى يحمل على العجل، ويبلغ وزن الواحدة القنطار وما فوقه كل ذلك بركوب الصبيان لصلاة التراويح؛ فيُبر فى ليالى شهر رمضان ما يعجز البليغ عن وصفه ...»^(١٦).

فى هذا النص الجميل المثير، يحدثنا المقرئى عن سوق معينة حقا؛ ولكنه فى سياق حديثه عن السوق يقدم لنا معلومات ثرية عن بعض مظاهر الحياة اليومية من ناحية، وبعض العادات والتقاليد المرتبطة بالمصريين من المسلمين والمسيحيين على حد سواء من ناحية أخرى؛ فهو يتحدث عن مكان عام فى القاهرة تجتمع فيه البغايا، ويجتمع فيه أيضا أولئك النفر من الناس الذين يتخذون من الشوارع والأماكن العامة مسرحا لعرض ألعابهم فى مقابل مبالغ زهيدة من المال ممن يشاهدونهم ويتسلون بالفرجة على ألعابهم من حمل الحديد، أو ألعاب الحواة والدجالين أو غير ذلك، كما يبين لنا أن تلك النسوة كن يشاركن الرجال فى بعض هذه الألعاب. ولكن الأهم فى هذا النص ما حدثنا به المقرئى من تقدم صناعة الشموع وتنوع أنواعها، وارتباط ذلك باحتفالات عيد الغطاس عند المسيحيين المصريين واستعمالهم الفوانيس التى كانت تباع فى هذا الموسم وما

كانت تضيفه على السوق من بهجة ورونق بحيث كان الناس يعتبرونه مكانا للفرجة والنزهة. ومن ناحية ثانية ، كانت هذه السوق ترتبط باحتفالات شهر رمضان الذى كانت تباع فيه الفوانيس أيضا ، كما تباع فيه الشموع الصغيرة لتوضع فى فوانيس الأطفال، إلى جانب الشموع الكبار التى كانت تباع أو تؤجر، وكانت أحجامها تصل فى بعض الأحيان إلى عشرة أرتال وتستخدم فى المواكب على اختلاف مناسباتها، وكانت صناعتها بالغة الدقة والتفنن. أما الشموع العملاقة التى كانت تجر على العجل؛ فكان وزن الواحدة من هذه الشموع يصل إلى قنطار وأكثر وكان الأطفال يركبونها لمصاحبة الكبار فى صلاة التراويح فى رمضان ، وهم يهزجون بأغانهم الجميلة البريئة ، التى بقيت أصداء منها فى الذاكرة الشعبية المصرية حتى اليوم .

وعند كلامه عن «سوق الدجاجين» تحدث المقرئ أيضا عن بعض العادات والتقاليد المصرية المرتبطة بذلك السوق؛ فقال : « كان يباع به من الدجاج والأوز شئ كثير جدا .. وفيه حانوت فيه العصافير التى يبتاعها ولدان الناس ليعتقوها ؛ فيباع منها فى كل يوم عدد كثير جدا .. وكان يوجد فى كل وقت بهذه السوق من الأقفاص التى بها هذه العصافير آلاف، وبيع بهذه السوق عدة أنواع من الطير .. وتوفر طيور المسموع التى يبلغ الواحد منها نحو الألف درهم أو أكثر، وتوفر عدد المعتنين بها، وكان يقال لهم « غواة طيور المسموع » .. وكلما كثر صياح الطائر ، كانت المغلاة فى ثمنه »^(١٧) ومن هذا النص أيضا نعرف أن روح التدين الغالبة على الناس فى المجتمع المصرى كانت تدفعهم لشراء العصافير لأولادهم كى يطلقوا سراحها اعتقادا منهم أن الطيور تسبح الله وأن تطير تلك الطيور يرضى الله باعتبار ذلك من أعمال الخير . ويبدو أن الوفرة كانت من سمات تلك السوق التى كان يباع بها عدة آلاف من أنواع الطيور المختلفة ، وقد ذكرت آن وولف أن بعض الرحالة الذين زاروا الأسكندرية فى عصر سلاطين المماليك رأوا فى أسواقها أنواعا متنوعة من الطيور الملونة كالبيغاوات والطيور الصداحة ، والقروذ والنسانيس والفهود .^(١٨)

والحديث عن الأسواق ليس الموضوع الوحيد لهذا الفصل ، وإنما جاء فى سياق الحديث عن المدن المصرية التى كانت مدنا كبيرة واسعة، كثيفة السكان، حافلة بكل المنشآت الدينية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية: مثل المدارس والمساجد والأضرحة؛ فضلا عن الأسواق والقياسر والخانات والسوق وغيرها. وقد تحدث المؤرخون والرحالة، المسلمون منهم والأوربيون، عن المدن المصرية

فى الوجه البحرى وفى الوجه القبلى، وقدموا مادة غنية بالمعلومات التى توضح الجوانب المتنوعة عن الحياة اليومية فى مصر آنذاك .

كانت المدن المصرية فى عصر سلاطين المماليك تبهر زوارها بسعتها وكثرة سكانها . فها هو الرحالة الذى طاف بأنحاء العالم المعروف فى عالم ذلك الزمان، ابن بطوطة، يقدم لنا أوصاف عدد من المدن المصرية منها مدينة الإسكندرية؛ فحدثنا عن أبوابها ومبانيها، ومنارها، وعمود السوارى، ونشاط العلماء فيها ^(١٩) كذلك تحدث بيلوتى الكرىتى، الذى أقام بمصر فترة طويلة، وكانت تربطه صداقة طيبة بالسلطان فرج بن برقوق أوائل القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى، عن مدينة الإسكندرية ^(٢٠) كذلك فإن بيرو طافور ، الذى زار مصر فى النصف الأول من القرن القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى، وانبهر بها ^(٢١)، فإن كلامهما يكشف عن كبر حجم المدينة وغيرها من المدن المصرية مما يدعم ما نعرفه عن أن عصر دولة المماليك الأولى كان عصر النمو والتقدم والازدهار .

وذكر بيرو طافور أن بالإسكندرية وفرة من القنب الذى يصنعون منه التيل الجيد ^(٢٢). وقال إنه نزل فى مدينة رشيد الواقعة على فرع النيل الغربى ولكنه لم يذكر شيئا تفصيليا عن المدينة، كما أن إشارته إلى مدينة الاسكندرية نفسها جاءت مقتضبة للغاية؛ فقد قال إنها « .. مدينة رائعة.. والمدينة ميناء بحرى عظيم ... » ^(٢٣).

وتحدث ابن بطوطة عن بعض بلاد الوجه البحرى ؛ فذكر قرية كبيرة اسمها « فروجة » وقال إن لها قاض ووالٍ وناظر. ثم ذكر مدينة دمنهو « .. وهى مدينة كبيرة » ، وتحدث عن مدينة « فوة »، وقال إن بها البساتين الكثيرة، وذكر مدينة النحرارية وأسواقها، وتحدث عن مدينة أبيار التى كانت تصنع بها الثياب الحسنة الجيدة التى لها سوق رائجة فى بلاد الشام والعراق ومصر. ثم ذكر مدينة المحلة الكبرى، « .. وهى مدينة جليلة القدر كثر أهلها » ^(٢٤). وقال عن مدينة ملطين (بلطيم) إنها المدينة التى جمعت بين البحر والنيل. بعد ذلك ذكر ابن بطوطة مدينة دمياط التى كانت منذ ما قبل عصر سلاطين المماليك مدينة مشهورة (وهاجمتها الحملة الصليبية الخامسة التى انتهت بالخيبة والانسحاب فى عهد السلطان الملك الكامل الأيوبي، ثم كانت هدفا للحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع الذى لحقت به هزيمة منكرة فوقع جيشه بين أسير وقتيل

وسقط هو نفسه أسيراً). وقال ابن بطوطة عن دمياط إنها مدينة فسيحة بها الثمار الكثيرة، وهى على شاطئ النيل. وقال إن أهل البيوت المطلّة على النيل فى مدينة دمياط يحصلون على حاجتهم من المياه بالدلاء من مجرى النهر، وكثير من هذه البيوت بها بضع درجات ينزل بها إلى النيل. كذلك قال ابن بطوطة إن شجر الموز كثير بدمياط ويحمل منها فى المراكب إلى القاهرة، وتحدث عن سمك البورى، الذى يصدر إلى بلاد الشام وبلاد الروم، وتحدث عن طيور دمياط، والألبان الجاموسية عذبة الطعم، طيبة المذاق. وقد أشار ابن بطوطة إلى أن دمياط التى شاهدها كانت فى ذلك الوقت حديثة البناء «.. والمدينة القديمة هى التى خربها الفرنج فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب..». والحقيقة أن الذى هدمها هو السلطان الظاهر بيبرس بسبب نزول الصليبيين بها فى الحملة الصليبية السابعة التى انتهت بهزيمة تلك الحملة فى المنصورة وفارسكور^(٢٥). وقال رحالتنا إنه لا يمكن الخروج من دمياط إلا بطابع الوالى «.. فمن كان من الناس ذا مكانة» طبع له فى قطعة من الورق الكاغد أما عامة الناس فيطبع على ذراع كل منهم حتى يتمكنوا من الخروج من المدينة. ويبدو أن تلك الإجراءات الصارمة كان يتم اتخاذها بسبب موقع المدينة الاستراتيجى، وسبب تعرضها المتكرر لهجوم الصليبيين. وقد أمر السلطان الظاهر بيبرس بهدمها وأنشأ المدينة الحديثة التى تحدث عنها ابن بطوطة.

وقد ذكر ابن دقماق أن مدينة المحلة الكبرى كانت «قصبية إقليم الغربية من الديار المصرية»؛ وهو ما انعكس على أسواقها الكثيرة الرائجة. كما ذكر أن مدينة قليوب كانت تمد القاهرة بمعظم حاجاتها من الفواكه والألبان ومنتجات الألبان من الجبن والزبد وغيرها^(٢٦).

أما بيرو طافور، فقد تحدث عن مدينة دمياط فى لهجة إعجاب واضحة؛ فقال إنها مدينة ضخمة حافلة بالأطعمة والكروم وشتى ضروب الفواكه والسكر، وهى مدينة واسعة جدا وليست بها قلعة، كما قال إنها مدينة شديدة الحرارة وإن كانت مساكنها قاسية البرودة «.. ورأيت فيها لأول مرة الحمام الزاجل..» وذكر أنه يوجد فى هذا الاقليم من التمر أكثر مما يوجد فى أى بقعة أخرى من العالم. وتحدث عن التماسيح فى فرع دمياط من النيل، ووصف الطريقة التى يتم بها صيد التماسيح. كما أبدى إعجابه الشديد بمياه النيل «.. وكأنه ماء الجنة، ولم أشرب طوال زيارتى سوى هذا الماء على الرغم من أنه كان فى استطاعتى الحصول على النبيذ الجيد..»^(٢٧).

وتحدث ابن بطوطة عن مدينة فارسكور التى تقع على شاطئ النيل، ثم عن مدينة « أشمون الرمان » التى تنسب إلى الرمان لكثرة بها على حد تعبيره. وقال إن بها قنطرة من الخشب ترسو عندها المراكب فإذا كان العصر « رفعت القنطرة وجازت المراكب صاعدة هابطة، وبهذه البلدة قاضى القضاة ووالى الولاية » وقال عن مدينة سمند أنهما على شاطئ النيل « وهى كثيرة المراكب، حسنة الأسواق » (٢٨).

وقال هذا الرحالة الكبير إنه ركب مركبا فى نهر النيل متجها إلى الصعيد «... ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض، ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد وغير ذلك، والأسواق متصلة من مدينة الاسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد» (٢٩). وهكذا وصف ابن بطوطة الطريق النهري من القاهرة إلى أسوان ؛ فضلا عن أنه وصف المسافة من الاسكندرية إلى العاصمة المصرية آنذاك. وما يهمننا فى هذا الوصف أنه تحدث عن أن المدن التى كانت تقع على شاطئ النهر العظيم تقدم للمسافر على صفحة النيل كل ما يحتاج شراءه من هذه المدن ومن القرى الكبيرة أو الصغيرة المجاورة، إلى جانب وجود أماكن الوضوء والصلاة. ويجدر بنا أن نشير إلى أن نهر النيل كان يوفر طريقاً سهلاً للمسافرين من الجنوب إلى الشمال منحدرًا مع النهر فى اتجاه الوجه البحرى والدلتا، أو صاعداً بعكس التيار إلى الصعيد ومدينة أسوان وبلاد النوبة، ولم يكن ثمة عائق فى هذه الأنحاء سوى منطقة الجنادل عند أسوان وما بعدها.

ومن المهم قبل الحديث عن المدن المصرية فى الوجه القبلى، أو صعيد مصر، أن نبحث فى مصادرنا عن أحوال المدن المصرية، آخذين فى اعتبارنا أنه كان لكل مدينة أسواقها التى كانت تتفاوت فى مساحاتها زيادة أو نقصانا بحسب مساحة المدينة وعدد سكانها، أو موقعها على ساحل البحر، أو على الطرق التجارية وطرق الحج.

ومن ناحية أخرى، قدمت لنا أوراق الجبنيزا معلومات مهمة عن المدن المصرية فى سياق الحديث عن اليهود فى مصر آنذاك (٣٠). وعن أسماء المدن التى كان تواجههم بها ملموساً، وهى: القاهرة والفسطاط والاسكندرية، وحلوان، وقوص، ودمياط، وبلبيس، وسمند، والدميرة، والمحلة الكبرى، وزفتى، وتنيس، وأبو تيج، والفيوم، ونها، ودمسيس. وتراوحت أعداد اليهود فى هذه المدن بين ثلاثة آلاف نسمة ومائتى شخص، أما الفيوم فكان بها عشرة يهود فقط (٣١). وعلى

أية حال ، كان وجود اليهود بهذه المدن آنذاك يعنى أنها كانت مراكز تجارية ، أو أن بها بعض الصناعات التى يمتثلها اليهود ؛ لأنه من المعروف أن اليهود فى مصر لم يعملوا بالزراعة ، ولم يكن مسموحا لهم ، أو لغيرهم ، بامتلاك الأرض الزراعية بسبب النظام الإقطاعى ، وكان وجود الجماعات اليهودية بهذه المدن من المؤشرات الدالة على كونها مدنا جاذبة لوجودهم ، ومقصدا لهجراتهم سواء من فلسطين ؛ حيث كانت مدينة بلبس نقطة تجمع المهاجرين ، ومنهم اليهود بطبيعة الحال ، من بلاد الشام عموما ، أو من العراق وما جاوره ، أو من المغرب الإسلامى والأندلس ، حيث كانت مدينة المحلة الكبرى مركز جذب قوى للقادمين من شمال أفريقيا ، أو الأندلس بسبب الحرب الكاثوليكية والى اشتدت وطأتها على اليهود والمسلمين بطبيعة الحال .

ولا بأس من أن نكرر ما ذكرته المصادر التاريخية عن ازدهار مدن مصر فى الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك ؛ بحيث كانت معظم هذه المدن مراكز تجارية مهمة ، وكان فى بعضها صناعات مزدهرة اشتهرت بها . وكان لكل مدينة أسواقها وقياسرها وخاناتها وفنادقها وسائر مرافقها ومؤسساتها الاجتماعية والدينية والاقتصادية والعلمية والتعليمية . فقد ذكر الرحالة ابن بطوطة معظم مدن الصعيد التى زارها فى أثناء سفره عن طريق نهر النيل من القاهرة إلى مدينة أسيوط التى انطلق منها إلى أعالي الصعيد ، ومن هناك ذهب إلى عيذاب ثم إلى مدينة قوص ذات الأهمية العلمية والتجارية والإدارية الفائقة فى ذلك الوقت . ولكنه لم يواصل طريقه لأداء فريضة الحج على الساحل الآخر للبحر الأحمر وعاد إلى القاهرة ليسافر منها حسب نصيحة أحد الشيوخ الذين صادفهم فى سفره (٣٢١) .

وقد ذكر تقى الدين المقرئى ، مدينة الجيزة ، التى كانت ، وما تزال ، بداية خط الصعيد . وتحدث عن السوق الأسبوعية التى كانت تقام بهذه المدينة كل يوم أحد وقال إنها كانت سوقا عظيمة « .. يجيبىء إليها من كل النواحي بأصناف كثيرة ، ويجتمع فيها خلق عظيم » (٣٢٢) .

بدأ ابن بطوطة حديثه عن الصعيد بذكر مدينة بيا (ببنى سويف حاليا) ، ثم مدينة البهنسا التى قال إنها « مدينة كبيرة وساتينها كثيرة ، ويصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة .. » . وسافر بعدها إلى مدينة منية ابن خصيب (المنيا) وقال إنها مدينة كبيرة متسعة المساحة « .. مبنية على شاطئ النيل .. بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد .. » . وتحدث كذلك عن مدينة منلوى

(ملوى فى محافظة المنيا الآن) ؛ فقال إنها مدينة صغيرة تبعد عن النهر مسافة ميلين.. وذكر أن من عادات أهلها أنهم لا يمتنعون فقيرا من دخول معاصر السكر التى اشتهرت بها ملوى، لياخذ ما يأكله .. فياتى الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها فى القدر الذى يطبخ السكر فيها، ثم يخرجها وقد امتلأت سكرًا فينصرف بها..^(٣٤) . ويتضح من كلام ابن بطوطة أن مدينة ملوى كانت بها الكثير من معاصر قصب السكر، ويبدو أن هذه الصناعة كانت من أسباب يسر الحياة فى هذه المدينة بدليل ما ذكره هذا الرحالة عن سلوك أهل المدينة الخير مع الفقراء . وتحدث أيضا عن مدينة منفلوط التى كان يصنع بها شبه العسل (النيدا) وبيع فى أسواق مصر. أما أسيوط فقال عنها بابجاز إنها مدينة رقيقة وأسواقها بديعة^(٣٥) . بعد ذلك وصل ابن بطوطة إلى مدينة «أخميم» التى كانت مدينة كبيرة بساحل النيل، ثم مدينة «قنا» التى وصفها بأنها «.. مدينة صغيرة حسنة الأسواق، لها خيرات عميمة، وأسواقها موفقة، ولها المساجد الكثيرة، والمدارس الأثيرة..» ويبدو من كلامه أن المدينة كانت لها أهمية إدارية مهمة لأنه قال إنها «.. منزل ولاة الصعيد..»^(٣٦) . وتحدث بسرعة عن مدينة الأقصر ثم أرمنت ومدينة «إسنا» التى قال إنها «مدينة عظيمة المنافع، كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع، ولها أسواق حسنة، وساتين ذات أفنان..»^(٣٧) .

وقال أحد الرحالة الذى جاء من البندقية جاء إلى مصر سنة ١٥٨٩م، يصف مكانا فى موقع قرية الشيخ عبادة (أنتينبوليس مركز ملوى بمحافظة المنيا وهو موقع مدينة طيبة الفرعونية القديمة) ووصف الآثار الموجودة بالمنطقة. ويقول إنه وصل بعد ثمانين يوما من الإبحار على صفحة نهر النيل إلى مدينة جرجا التى وصفها بأنها عاصمة إقليم الصعيد . ويبدو أن الوضع فى أواخر القرن السادس عشر كان قد تغير، بخلاف ما ذكره ابن بطوطة وهو يحدثنا فى القرن الرابع عشر. وذكر مدينة سوهاج. وقال إن مدينة جرجا كانت مدينة كبيرة فى القرن السادس عشر، بدون أسوار، ليست بها آثار، وبيوتها مشيدة بالطوب اللبن من قوالب الطين الجاف، ولها أسقف من القش. وقال إنه لم يرى فى هذه المدينة شيئا فنيا ولا حرفيا . وأن بها عددا قليلا جدا من الحوانيت، وليست هناك منسوجات فاخرة. وتوجد حوانيت قليلة للإسكافية، وأخرى لبيع المأكولات. وتجد ثلاثة حلاتين أو أربعة بصعوبة، وهناك حمامان فقط لهما ضرورة فائقة فى هذه القرية الكبيرة، أو البلدة، حسب تعبيره. وذكر أن النيل يستدير بعد جرجا استدارة تجعل من الصعب إبحار المراكب عندما تهب ريح الشمال عبر النهر. وقد استغرقت رحلته وقتا قصيرا حتى وصلوا إلى قنا، وشاهد مدينة دنطرة التى وجد أنها مليئة بالآثار المتنوعة، وبعدها فترة إبحار قصيرة وصل إلى قوص

حيث كان التجار يأخذون الطريق إلى القصير على البحر الأحمر . وثمة طريق قوافل آخر كان يؤدي إلى مدينة عيذاب^(٣٨) .

هذا الوصف التفصيلي الذي أمدنا به زائر أوروبى فى أواخر القرن السادس عشر يمكن أن يدلنا على أن المدن فى الصعيد ، بعد التدهور الاقتصادى والسياسى الذى ألم بالبلاد فى تلك الفترة، قبل حوالى عشرين سنة فقط من سقوط دولة سلاطين المماليك ، كانت فى حال شبيهة بحال مدينة جرجا كما وصفها ذلك الرحالة.

وقال ابن بطوطة إن مدينة عيذاب مدينة كبيرة « كثيرة الحوت واللبن، ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر » وقال إن أهلها من البجاة « .. وهم سود الألوان يلتحفون بملاحف صفراء »^(٣٩) .

هكذا، كانت لدينا فى المصادر التاريخية معلومات قليلة عن المدن المصرية فى ذلك العصر؛ ولكننا من خلال القياس والاستنباط يمكن أن نتصور أن المدن المصرية بصفة عامة كانت تتأثر بالوضع الاقتصادى والسياسى فى البلاد وانعكاسه على الأوضاع الاجتماعية والثقافية. وربما لا نجد فى مصادر تلك الفترة معلومات تفصيلية عن هذه المدن لسبب بسيط هو أن مدينة القاهرة والفسطاط (أو مصر والقاهرة) حسب تعبير ذلك العصر قد حظيت باهتمام عدد من المؤرخين الذين كتبوا عن خططها ومؤسساتها فى ذلك العصر مثل: ابن عبد الظاهر، وابن دقماق، والمقرئ وغيرهم؛ ولكن أحدا منهم لم يقدم لنا وصفا أو معلومات تفصيلية عن المدن المصرية الأخرى لأن العاصمة هى التى حظيت باهتمام المؤرخين الذين كانوا يقيمون بها. ولكننا نعلم بشكل عام أن المدن المصرية كانت تنعم حتى منتصف القرن الخامس عشر على أقل تقدير بقدر من الرخاء النسبى الأمن. وأنها كانت تمتلك المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية مما يوفر لسكانها حاجاتهم بشكل مستقر فى الفترة التى امتدت حتى منتصف القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى على أقل تقدير؛ بل إن بعض هذه المدن كانت مقراً لحكام الأقاليم على نحو ما تكشف عنه الدراسة فى الصفحات القادمة .

أما مرافق هذه المدن ومؤسساتها العامة؛ فليست لدينا معلومات كافية سوى ما ذكره ابن دقماق عن الفسطاط وعن مدن الوجه البحرى من أن كل مدينة كانت لها أسواقها الخاصة، وما

ذكره المقرئى عن سوق مدينة الجيزة التى كانت تقام بشكل دورى يوم الأحد من كل أسبوع. وقال ابن دقماق إن مدينة المحلة الكبرى كانت عاصمة إقليم الغربية من الديار المصرية ووصف أسواق المحلة الكبرى الرائجة الكثيرة^(٤٠) ولأن مدينة المحلة الكبرى كانت فى طريق المهاجرين القادمين من المغرب الإسلامى والأندلس، فقد كان عدد سكانها كبيرا، ومن ثم ازدهرت فيها بعض الحرف والصناعات والمهن التى اشتغل بها أهل المدينة والمهاجرون القادمون اليها مثل: نسج الحرير، والعطارة، والصباغة، والتجارة، كما أن البعض امتلكوا الحوانيت والمتاجر الصغيرة، التى كان بعضها يجمع بين الإنتاج والتسويق. وكان طبيعيا أن يمتن بعض المقيمين بالمحلة الكبرى الطب أو جباية الضرائب وغير ذلك^(٤١).

وقد أحصى المؤرخ تقى الدين المقرئى من المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية فى القاهرة والفسطاط عددا كبيرا؛ فذكر من القياس اثنتين وعشرين قيسارية^(٤٢) ومن الفنادق والخانات أحد عشر خانا وفندقا، ومن الأسواق والسويقات (والسويقة هى السوق الصغير) عددا كبيرا^(٤٣). وذكر من الحمامات أربعة وأربعين حماما^(٤٤). وقد أشرنا إلى بعض هذه الأسواق فى الصفحات السابقة وبيننا بعض أوجه نشاطها وارتباط بعضها بعادات المصريين وتقاليدهم فى ذلك الزمان، كما أشرنا فى الصفحات السابقة إلى أسواق المدن المصرية الأخرى التى أشار إليها بعض الرحالة من المسلمين والأوروبيين. أما الخانات والفنادق فهى من المؤسسات الاقتصادية المهمة التى كانت موجودة فى القاهرة والاسكندرية وغيرها من المدن المصرية آنذاك. ويفهم من كلام المقرئى وغيره من المصادر التاريخية أن الخانات والوكالات كانت مخصصة للتجار المسلمين القادمين إلى مصر من البلاد الإسلامية الأخرى، أما الفنادق فكانت مرتبطة بالأوروبيين من التجار وغيرهم، وربما كان بعض القناصل الأوروبيين يمتلكون الفنادق أو يشرفون عليها على الأقل.

وقد ذكر المقرئى من الخانات «خان مسرور الكبير» وقال أنه عاصره، وكان ينزل به «... أعيان التجار من الشاميين بتجارتهن...» كما تحدث عن «وكالة قوصون» وذكر فى حديثه عبارة مهمة ومفيدة فحواها تكشف عن أن مثل هذه المؤسسات كانت متشابهة «... هذه الوكالة فى معنى الفنادق والخانات ينزلها التجار ببضائع الشام من الزيت والشيرج، والصابون، والدبس، والفسق، واللوز، والجوز، والخرنوب، والرب ونحو ذلك» وقال أنه عاصرها عامرة «... وأن رؤيتها من داخلها وخارجها لتدهش، لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع، وازدحام الناس، وشدة أصوات

العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها». وقال المقرئى إن هذه الوكالة تدهورت بعد غزو تيمورلنك لبلاد الشام وتوقف التجار الشوام عن القدوم إلى مصر بعد سنة ٨٠٣ هجرية. وذكر المقرئى أن «وكالة قوصون» كانت تملؤها رباغ تشتمل على ثلاثمائة وستين بيتا «...أدركنها عامرة كلها، وحزر أن بها نحو أربعة آلاف نفس ما بين رجل وامرأة، وصغير وكبير». فلما كانت هذه المحن فى سنة ٨٠٦ خرب كثير من هذه البيوت، وكثير منها عامر أهل...»^(١١) ويقصد المقرئى بهذه المحن تلك المجاعة والوباء التى ألت بمصر واستمرت أكثر من خمسة عشر عاما متصلة خربت بسببها البلاد وانهار بنيانها بشكل مخيف. المهم أن الوصف الذى كتبه مؤرخنا عن «وكالة قوصون» واللمحة التى أمدنا بها عن هذه الوكالة، تكشف عن أنها كانت مقصداً لتجار الشام القادمين إلى مصر. وربما كانت مخصصة لهم بحكم اعتيادهم النزول بها. ولكن الأهم أنه يكشف عن قدر كبير من الرواج الاقتصادى للبلاد، فى تلك الفترة بسبب نشاطها التجارى. ومن ناحية أخرى، لايعنى هذا أن هذه الوكالة كانت الوكالة الوحيدة، أو الخان الوحيد، الذى يستقبل التجار المسلمين، ولكن كانت هناك بالضرورة أماكن أخرى مماثلة فى القاهرة والمدن المصرية الأخرى مخصصة للتجار المسلمين القادمين من البلاد الإسلامية الأخرى.

وفى الخطط المقرئية كلام عن «دار التفاح»؛ التى قال عنها المقرئى إنها «... فندق تجاه باب زويلة، ترد إليه الفواكه على اختلاف أصنافها مما يبيت فى ضواحي القاهرة، ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الواصل من بلاد الشام، إنما يباع فى وكالة قوصون إذا قدم، ومنها ينقل إلى سائر أسواق القاهرة ومصر ونواحيها». وهو ما يعنى أن وكالة قوصون كانت بمثابة السوق لمركزى الذى ترد إليه البضائع من الفاكهة وغيرها، ثم يتم توزيعها على بقية أسواق البلاد. يذكر أن بظاهر هذه الدار عدة حوانيت تباع بها الفاكهة. وتحدث عن تفنن الباعة فى ترتيب لفاكهة وإحاطتها بالزهور والرياحين، وذكر أن ما بين الحوانيت مسقوف حتى لا تصل الشمس لى الفواكه^(١٢).

أما الفنادق، فكانت لسكنى الأوربيين وإقامتهم، فقد كان الأوربيون من شتى الجنسيات هم راد هذا النوع من المؤسسات الموجودة بالمدن المصرية، خاصة الاسكندرية ودمياط ورشيد، فى صر سلاطين الماليك. وتحديث أن وولف مؤلفة كتاب «كم تبعد القاهرة؟» عن الفنادق فى «بنة الاسكندرية» فقالت إن هذه الفنادق كانت فى الفترة ما بين سنة ١٣٠٠ م، وسنة ١٦٤٠ م،

مرجودة بشتى الأحجام ومتاحة باعتبارها ملاذاً للزوار الأوربيين. وكان من الممكن الاحتفاظ فى تلك الفنادق بالحيوانات الأليفة فى أمان داخل الأبنية الكبيرة ذات الأروقة. وفى بعض الأحيان كانت تلك الفنادق تضم حدائق غناء حيث كانت الأشجار والنباتات توفر الظل والراحة للنزلاء. كما كانت الحيوانات الأليفة تتجول بحرية فى أنحاء الحديقة. وفى بعض الفنادق كانت توجد كنائس صغيرة ملحقة بها^(٧٧).

من ناحية أخرى، ذكر المقرئى أسماء اثنتين وعشرين قيسارية فى القاهرة والفسطاط ، وذكر أن بعضها كان قد اندثر قبل العصر الذى عاش فيه ، وإن ظل البعض الآخر مستخدماً ويعمل ، وشاهد بنفسه بعض هذه القياسر. ومن كلام مؤرخنا التى أورد أسماء هذه القيساريات، ونبذة عن تاريخ كل منها وما مرت به من أحداث وحوادث، يمكن أن نستنتج أنها كانت عبارة عن مباني مخصصة لعدة حوانيت أغلبيتها لبيع الأنواع المختلفة من الأقمشة والحرائر وغيرها من أصناف لوازم الخياطة وتفصيل القماش، مثل الأزرار والخيوط وغيرها. فقد ذكر، مثلاً، « قيسارية طاشتحر » التى أنشئت فى ثلاثينيات القرن الثامن الهجرى « .. فى أعوام بضع وثلاثين وسبعمان، وسكنها عقادو الأزرار حتى غصت بهم مع كبرها وكثرة حوانيتها ، وكان لهم منظر بهيج ، فإن أكثرهم من بياض الناس، وتحت يد كل معلم منهم عدة صبيان من أولاد الأتراك وغيرهم، فطالما مررت منها إلى سوق الوراقين، وداخلنى حياء من كثرة ما أمر به هناك... »^(٧٨) وتحدث عن قيسارية ابن ميسر الكبرى التى عاصرها « .. وهى عامرة يباع بها القماش الجيد من الكتان الأبيض والأزرق والطرح، وتمضى إليها تجار القاهرة فى يومى الأحد والأربعاء لشراء الأصناف المذكورة... »^(٧٩). وهكذا، كانت القيساريات على الأرجح أماكن مخصصة لبيع الأقمشة المختلفة والحريز ومستلزماتها من الأزرار والخيوط ، ويلحق بحوانيتها العقادون الذين يصنعون الأزرار والعراوى. ويبدو أنها كانت تجارة رائجة فى المنتجات المحلية أغلب الأحوال، وكانت فى بعض الأحيان تجمع بين الإنتاج والتسويق؛ إذ كانت تضم بعض الورش التى يعمل بها المعلمون ومعهم الصبيان المتدربون ، كما يبدو أنها كانت أماكن للبيع بالجملة، وكان تجار القاهرة والفسطاط وسائر النواحي فى مصر يفدون لشراء حاجاتهم منها فى أيام محددة .

ومن بين المؤسسات الأخرى المهمة فى المدن المصرية عموماً فى عصر سلاطين المماليك ، كانت الحمامات. وكانت بيوت عامة المصريين تفتقر إلى إمدادات المياه بصورة دائمة كما يحدث حالياً

فى جميع مدن العالم الحديث ؛ إذ لم تكن هناك وسيلة لتوصيل المياه إلى المنازل بشكل عام جيدة ومريحة، ومن ثم، كانت الحمامات التى تحتاج إلى كميات كبيرة من المياه أكثر من كافة مرافق بيوت المصريين آنذاك كما كانت تجهيزاتها مكلفة بالنسبة للسواد الأعظم من المصريين . وكانت القصور التى يسكنها السلاطين والأمراء وبيوت كبار التجار والأثرياء استثناء فى ذلك بطبيعة الحال ؛ لأن أولئك الناس كانوا يملكون الإمكانات التى تمكنهم من توفير المياه لبيوتهم وقصورهم بشكل منتظم. ولم تكن ثمة شبكة مياه يمكن أن تمد المدينة، أو مناطق فيها، بحاجاتها من المياه. وكان «السلطان الناصر محمد بن قلاون» قد شيد مجرى العيون الذى يرفع المياه إلى القلعة من النيل عند مصر القديمة . وفى سنة ٧١٢ هجرية / ١٣٢١ م أمر السلطان الناصر بوضع أربع سواقي لتسهيل تدفق المياه فى القناة التى صنعها المهندسون فوق سور مجرى العيون. وقد وسعها السلطان قنصوه الغورى مرة أخرى سنة ١٥٠٩ م. وهذه القناة مرفوعة فوق سور يحتوى على أكثر من ثلاثمائة عقد مبنية من الأحجار المنحوتة جيدا، وكان يتم رفع المياه قبالة جزيرة الروضة بآلات تدير الثيران عجلائها، وفى القمة كان يوجد خزان كبير منحوت فى الصخر إلى جانب السور. ومن هذا الخزان كان يتم توزيع المياه بسواقي أخرى فى قنوات مصنوعة من الحجر والرصاص إلى جميع أجزاء القلعة^(٥٠). وبطبيعة الحال، لم يكن أحد من سكان المدن المصرية قادرا على مجارة السلاطين، خاصة «السلطان الناصر محمد بن قلاون» الذى اشتهر عهده بكثرة الانشاءات وتنوعها، وقد أنشأ المزيد من السواقي سنة ٧٤٤ هجرية والأعمال الهندسية لزيادة الماء فى القلعة «.. لأجل سقى الأشجار وملء الفساقى..»^(٥١).

وكان عدم وجود المياه فى المنازل المصرية فى ذلك العصر السبب فى أنهم كانوا يقصدون الحمامات حيث ينظفون أجسادهم وينعمون بالحديث وتبادل الأخبار مع رفاقهم. وقد ذكر ابن عبد الظاهر أن عدد حمامات القاهرة كان سنة ٦٨٥ هجرية حوالى ثمانين حماما^(٥٢). وقد أحصى ابن دقماق خمسا وأربعين حماما فى الفسطاط، وذكر أن بعض هذه الحمامات كان قد اندثر فى أيامه^(٥٣). وذكر المقرئى أسماء أربع وأربعين حماما، ويبدو من كلامه أن عددا كبيرا من تلك الحمامات لم يكن يعمل فى أيامه. والجدير بالذكر أن هذا المؤرخ لم يذكر كل حمامات القاهرة والفسطاط التى تزيد على التسعين حماما ، إذا أضفنا ما ذكره المؤرخان سوبا. ومن ناحية أخرى، يبدو من المصادر التاريخية أن المدن الأخرى كانت بها حماماتها، مثل الإشارة السابقة عن حمامى

مدينة جرجا في الصعيد، وإن كنا لا نملك بيانا بأعدادها أو أماكن وجودها. ويمكن أن نعزى هذا الموقف إلى الاهتمام الشديد من جانب المؤرخين المعاصرين بحاضرة السلطنة وكرسى الحكم؛ أي العاصمة التي كانت محور النشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي آنذاك .

واسم الحمام مشتق من الحميم، وهو الماء الحار، أي الساخن، ^(٥٤). وذكر المقرئ أن بعض الحمامات مخصصة للنساء والبعض الآخر للرجال، كما ذكر أن بعض الحمامات كانت مخصصة للرجال في أوائل النهار، ثم تعقبهم النساء آخر النهار مثل حمام خوند بحارة زويلة ^(٥٥) وبعض الحمامات تعطلت فترة من الزمن، ثم جددت مثل «حمام صاحب» التي جدها السلطان المؤيد شيخ سنة ٨١٧ هجرية ^(٥٦). وكانت الحمامات لها مستوقد لتسخين المياه مثل مستوقد «حمام الخراطين» الذي كان بسوق الفرائين في زمان المقرئ ^(٥٧). وكان لبعض الحمامات بابان مثل «حمام الكوكب» التي كان لها بابان أحدهما داخل درب شمس الدولة والباب الآخر من رأس حارة زويلة ^(٥٨) وكان حمام الصوفية المجاورة لخانقاه سعيد السعداء المخصصة للصوفية ولا يدخلها يهودي أو نصراني ^(٥٩). ويمكن أن نستدل من بعض ما ذكرته المصادر المعاصرة أن بعض الحمامات كان يمنع دخولها لغير المسلمين .

وكانت معظم هذه الحمامات أوقافا جارية أوقفها الأمراء والأثرياء، أو السلاطين، على ذرياتهم أو للإتفاق على وجود الخير المتحثة في النشاط الديني أو التعليمي أو الصحي: المساجد، والأسبلة، والخوانق والزوايا، أو مكاتب تعليم الأطفال (الكتاتيب) أو البيمارستان (المستشفى)... وما إلى ذلك. ومن الطبيعي أن تكون بعض الحمامات قد بنيت قبل عصر سلاطين المماليك، كما أن بعضها قد خرب في خضم الأحداث العنيفة التي شهدتها البلاد لسبب أو لآخر، أو يتولى تجديد بعضها أحد ممثلي السلطة الحاكمة بسبب تعطلها أو قدم مبناها، لكونها من المنشآت العامة التي ينبغي أن تهتم بها السلطة. صحيح أن مثل هذه الخدمات كانت تقوم بشكل عام من أموال الأوقاف التي يوقفها السلطان والأمراء والميسورون تقربا إلى الله سبحانه وتعالى، وحبا في عمل الخير، وليس باعتبارها من واجبات الدولة؛ فذلك كان أبعد ما يكون عن مفاهيم الدولة حسب مفاهيم ذلك الزمان. وكان العمل الخيري تعويضا عن دور الدولة الغائب . وقد قال ابن خلدون إن كثرة الحمامات في المدن من مظاهر الترف والغنى، وما ينتج عن ذلك بالضرورة من الرغبة في التعم ^(٦٠).

كانت القاهرة فى ذلك الزمان بمثابة المناظر الخلفية التى جرت عليها وقائع وأحداث حكايات « ألف ليلة وليلة ». التى كانت تمسك بمشاعر المستمعين وتستولى على عواطفهم وهم يستمعون إلى الراوى الذى يحكى هذه الحكايات العجيبة، ويجوب بكلماته بمستعميه مناطق القاهرة ما بين لأسواق والشوارع والأزقة والحارات والمحات، وما بين المنازل والقصور، والحمامات والخانات؛ إلى أنحاء المدينة ليشهدوا الحياة المتواضعة والراقية فى المدينة، وكل ما يمس نسيج الحياة بين الناس^(١١). ومن ناحية أخرى، كانت القاهرة آنذاك، وغيرها من المدن المصرية، لا تعرف نظام وصيل المياه عبر الشبكات العمومية إلى المنازل أو غيرها، وإنما كانت تستخدم مياه النيل بشكل مباشر. وتؤكد المصادر التاريخية أن عددًا ضخمًا من السقائين ومعاونيهم كانوا ينقلون المياه من محل النيل عند بولاق إلى بيوت القاهرة فوق الجمال أو البغال والحمير، أو على أكتافهم إلى بيوت. وقدر الرحالة ابن بطوطة عدد السقائين فى القاهرة، فى النصف الأول من القرن الثامن هجرى/ الرابع عشر الميلادى، بأثنى عشر ألفا يزودون البيوت والمخابز ومعاجن الطين.. وغيرها لياه^(١٢).

ومع أننا لا نعرف على وجه الدقة كم كان عدد حمامات « القاهرة ومصر » فى عصر سلاطين مالىك، على الرغم من أن ابن عبد الظاهر ذكر فى كتابه « الروضة البهية » أن عددها كان ٦٨٥ سنة ٦٨٥ هجرية حوالى ثمانين حماما. وأحصى ابن دقماق خمسا وأربعين حماما: كما المقرئى (ت ٨٤٥ هجرية / ١٤٤٢م) أخصى ستا وأربعين حماما كما ذكرنا من قبل، وقال بأن وإبلد، الذى عاش أسيرا بالقاهرة من سنة ١٦٠٦م حتى سنة ١٦١٠م، إن بالقاهرة حوالى ١٦٠٦ حمام من الحمامات العامة^(١٣). ومن ثم، يكون ما ذكره المقرئى عن عدد حمامات القاهرة لقيًا، لاسيما بعد أن استعادت القاهرة جزءا من حيويتها بعد قيام الحكم العثمانى فى مصر ١٥٠٠م.

والشكل العام الذى يمكن تصوره لبناء الحمام آنذاك من خلال بعض الحمامات الباقية حتى بالقاهرة ومن خلال الأوصاف التى قدمها الرحالة وزوار تلك الحمامات، أن الحمام كانت مل على مكان يسمى « مسلخ »، عبارة عن حجرة مكسوة بالرخام، وبها مصاطب من الرخام لا يزيد عددها عن أربع مصاطب يستريح فوقها المستحمون، وربما كانت تفرش بالوسائد مايا وربما لا يكون عليها سوى الحصى فى الحمامات الأكثر تواضعا. ومن هذا المسلخ يدخل

المستحم إلى ما كان يسمى «بيت أول» وهى أولى الغرف الدافئة فى الحمام، وهى مكان انتظار من يريد الاستحمام حتى يحين دور كل منهم، وفيها مصطبتان من الرخام فوق أرضية من الرخام أيضا. وفى «بيت أول» يلف المستحم نفسه بمنشفة (فوطه) تصل إلى الركبتين على شكل منزر؛ فإذا حان دوره دخل غرفة أخرى أشد سخونة تسمى «بيت حرارة» بها أربعة أحواض من الحجر، داخل أربعة أواوين أو مقاصير، وفى وسطها فسقية من المياه الساخنة. وفى هذه الغرفة خلوتان ومغطس كلها مكسوة بالرخام «.. معقود ومطبق بجامات من الزجاج الملون..» وفى بيت الحرارة هذا يتنفس المستحم عرقا بفعل البخار المتصاعد من الماء الساخن الموجود فى المغطس؛ وهنا يقوم «المكبساتى» بتدليك جسم المستحم وفرك جلده لإزالة ما قد يكون قد علق به من الوسخ حتى تفتح مسام الجسم تماما. ثم يعود المستحم إلى «بيت أول» حيث يمكث فترة تتوازن فى أثنائها درجة حرارة جسمه مع الجو حتى لا يتعرض للهواء البارد فى الخارج إذا ما غادر الحمام مباشرة. وكانت الحمامات العامة تستمد ماءها من بئر تركب عليها ساقية لرفع الماء إلى مستوقد الحمام، حيث يتم تسخينها فى مرجل ضخ، ويتم ضخها إلى أقسام الحمام عبر مجموعة من الأنابيب الفخارية والصنابير

ورما يكون مناسباً أن نورد الوصف الموجز لتجربة يوهان وايلد عن إحدى حمامات الرجال التى أتيج له أن يدخلها ويستحم بها «... أما الرجال فإنهم كانوا يخلعون ملابسهم فى الغرف على جانبى الفناء، ثم يلفون أنفسهم فى مآزر من القماش الأزرق، ويتركون أنفسهم لتلف المتعة. ويخرج العرق من كل مسام الجسم، ثم يتمددون على المقاعد الرخامية حيث يتم تدليك أطرافهم وطرقعة أصابعهم. وبعد الانتهاء من غسل أجسادهم، يجففونها بالمناشف التى تلمد أجسادهم. وكان هناك من يقوم بقص شعرهم وإزالة الشعر من وجوههم. وكان يمكنهم قضاء الوقت فى الحمامات وهم جالسون حتى أعناقهم فى حوض كبير مستدير تحت القبة حيث كانت تدور المياه الساخنة والباردة عبر أنابيب منفصلة... لقد كانت الحمامات أماكن يمكن فيها توفير جميع ضروب الراحة والمتعة وسط البخار المتصاعد خلال المهاجع فى الغرف الرخامية ..»^(٦٦).

وقال الرحالة عبد اللطيف البغدادى، الطبيب الذى زار مصر فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى، يصف حمامات القاهرة «..وأما حماماتهم، فلم أشاهد فى البلاد أنه

منها وصفاً، ولا أحسن منظراً ومخبراً، أما أولاً، فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين راويتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك، يصب فيها ميزابان ثجاجان، حار وبارد، وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جداً مرتفع، فإذا اختلطا فيه جرى من الماء إلى الحوض الكبير، وهذا الحوض نحو ربعة فوق الأرض وسائرته في عمقها، ينزل إليه المستحم فيستنقع فيه. وداخل الحمام مقاصير بأبواب، وفي المشلح أيضاً مقاصير بأبواب لأرباب التخصص (يعنى ذوى المكانة الخاصة)، حتى لا يختلطوا بالعوام، ولا يظهروا عوراتهم. وهذا المشلح بمقاصيره حسن القسمة، مليح البنية، وفي وسطه مرخمة عليها أعمدة وقبة، وجميع ذلك مزوق السقوف مَفُوق الجدران مبيضا مرخم الأرض بأنصاف الرخام، مجزع باختلاف ألوانه، وترخيم الداخل يكون أبداً أحسن من ترخيم الخارج. وهو كثير الضياء مرتفع الأذاج، جاماته مختلفة الألوان، صافية الأصباغ، بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه...»^(٦٩).

في هذا النص البديع قدم لنا عبد اللطيف البغدادي وصفاً تفصيلياً لحمامات القاهرة كما رآها في القرن الثاني عشر، وهو وصف لا يختلف كثيراً عن وصف يوهان وايلد للحمامات في القرن السابع عشر؛ مما يشير في وضوح إلى عدم وجود تغيرات كبيرة في بنية الحمامات طوال تلك الفترة. وفي نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، كتب الرحالة بريدنباخ يقول: «... ذهب جماعة منا إلى الحمامات العامة؛ إذ توجد في هذه البلاد أحواض في غاية الجمال والبذخ، مزينة بالفسيفساء، وأنواع مختلفة من الرخام، فالعرب يقبلون بشغف على هذا النوع من الممارسة، وهم في غاية المهارة في تدليك أعضاء جسم المستحم»^(٧٠). وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه ويؤكد الوصف الذي قدمناه في السطور السابقة.

وقدم لنا يوهان وايلد وصفاً لحمامات النساء وما كان يجري فيها، ومن المرجح أنه نقل هذه المعلومات عن بعض الناس الذين أخبروه عن مرح النساء في أثناء وجودهن في الحمامات العامة. ولما كان من غير الممكن أن يرى أحد الرجال ما كان يجري في حمامات النساء، فالغالب على الظن أن ماسمعه يوهان وايلد كان من نتاج خيالات الذكور. على كل حال، وقال إن النساء كن يبدين اهتماماً كبيراً بزينة شعورهن المتقنة، وتحدث عن استخدام اللدائن المزينة للشعر من الجسم^(٧١). وقد وصف ملابس النساء وزينتهن في الحمامات فقال إن النساء الثريات كانتن ملابسهن الطويلة المكلفة رشيقة. وكانت عيونهن مكحلة بالكحل، وتغطين شعورهن بأفخر أنواع

الطرح وبصيفته بالحناء، ويتزين بالمجوهرات بشكل لاقت للنظر من الحلقان المزخرفة المنققة، والفلاتد والأماور التى تزين أعناقهن وأذرعتهن وكعوبهن، وكمن يطلين الأظافر والأصبعين الأولين من أيديهن باللونين الأبيض والأحمر. كان هذا الوصف عن حمامات النساء النص الوحيد المتاح أمامنا، ولا بأس من أن نكرر نحفظنا على رواية يوهان وايلد .

أما المسئول عن حمامات الرجال العامة آنذاك فكان يسمى فى مصطلح تلك الأيام «الحمامى» الذى حددت كتب الحسبة واجباته ومتطلبات عمله؛ فقد كان يجب أن يكون الحمامى صحيح البدن، خاليا من الأمراض المعدية؛ خاصة الأمراض الجلدية، ويجب أن تكون لدى «الحمامى» مآزر يؤجرها للمستحمين لسر عوراتهم، وأن تكون هذه المآزر عريضة بحيث تستر السرة وما بين الركبتين. وكان يمنع المصابون بأمراض جلدية، مثل البرصاء، والمجدومين، من دخول الحمامات العامة. ويتضح من كتب الحسبة أنه كان هناك مساعد للحمامى يسمى «الوقاف» مهمته حفظ ملابس رواد الحمام^(١٤٤) الذين يخلعونها لتوضع فى المقاصير التى وصفتها المصادر المعاصرة .

وقد ارتبطت الحمامات العامة بمهن وحرف أخرى غير الحمامى والوقاف، مثل البلان الذى كان يشولى نظافة أجساد الرجال فى الحمامات، ويبدو أنه كان هو المزين الذى ذكر ابن الأثير أنه يجب أن يكون «.. خفيفا رشيقا بصيرا بالحلاقة»^(١٤٥). وربما كانت الحرفتان واحدة أو متشابهتين على الأقل، على الرغم من أننا فى مصر الآن نستخدم مصطلح «مزين» ومصطلح «حلاق» بالعمر نفسه. أما فى حمامات النساء، فقد كان «البلاطة» تقوم بمهمة نظافة أجسام النساء ونشط الشعر وأعمال الزينة^(١٤٦).

كذلك ارتبطت الحمامات بعبادات معينة واعتقادات سادت فى ذلك العصر؛ فقد كان دخول الحمام بمثابة إعلان بشفاء المريض^(١٤٧). وكان من التقاليد المرمية فى احتفالات الزواج آنذاك أن يتوجه العريس إلى حمام الرجال، على حين تتوجه عروسه إلى حمام النساء؛ كل منهما فى موكب منفصل تصاحبه زفة من المغنين والموسيقى والرقصات التى تؤذيها فرق محترفة، ويشارك فى الاحتفال أصدقاء العروسين والأقارب. وبعد الانتهاء من الحمام وعمل الزينة لكل من العروسين يعمد الموكبان المنفصلان حيث يلتقى الموكبان فى مكان الاحتفال بالعرس^(١٤٨). وقد ارتبطت الحمامات ببعض المعتقدات الشعبية التى انتشرت فى المجتمع المصرى فى ذلك الزمان؛ فقد كان الناس

يعتقدون أن من دخل الحمام أربعين يوما متتالية يفتح الله عليه في الدنيا^(٧٢). ومن المهم أن نشير إلى أن هذه الحمامات كانت مجهزة على نحو لا يمكن أن تنافسه حمامات منازل الأثرياء من الأمراء وكبار التجار. ومن ناحية أخرى، كان من المنطقي أن تكون لكل مدينة مصرية حماماتها العامة بسبب عدم إمكانية توفير توصيلات المياه للمنازل. فقد ذكر أحد الرحالة الذي ترك كتابه بدون اسم المؤلف، وقد زار مدن الصعيد في أواخر القرن السادس عشر، وقال عن «مدينة جرجا» التي زارها أنه كان بها حمامان كان وجودهما ذا أهمية كبيرة بالمدينة. ولا شك في أن حمامات المدن المصرية كانت تتشابه من حيث طريقة بنائها وطريقة العمل به ووظائف العاملين فيها.

* * *

وبطبيعة الحال، لم تكن هذه كل المنشآت الاجتماعية والاقتصادية والدينية والتعليمية في المدن المصرية. فإذا كنا لم نشر إلى المدارس والجوامع والمساجد والأسبلة والزوايا وما شابهها من مؤسسات ومرافق، فإن هذا يمكن تبريره بأن البحث في هذه المنشآت يمكن أن يبعد بنا عن مسار هذه الدراسة من ناحية. وأن هذه المؤسسات حظيت بدراسات عديدة باللغة العربية واللغات الأجنبية من ناحية أخرى. كما أن كتب الرحالة العرب والمسلمين حافلة بأوصاف هذه المؤسسات وأخبارها من ناحية نالته. ومن جهة أخرى، كانت المؤسسات التي أشرنا إليها في الصفحات السابقة لها مثيلاتها في المدن المصرية الأخرى. وكانت هناك إشارات إليها، أو إلى بعضها، في كتابات الرحالة المسلمين والأوروبيين الذين زاروا مصر في تلك الفترة. كان من ضمن الأجانب الذين زاروا الاسكندرية سنة ١٣٨٤م، مجموعة من الأوروبيين وقد مر أولئك الزوار والمسافرون، وهم في طريقهم إلى مسكنهم، عبر شارع السوق الضيق حيث كانت المحانث والسقائف مغطاة بالخضير الذي يحميها من حرارة الشمس. وكان يباع بهذه السوق خليط من البضائع الغربية، وأنواع كثيرة من التوابل، وأخشاب الصندل (البخور)، والقرنفل، والصيني، والياقوت، واللؤلؤ وكانت الحيوانات والطيور البنية معروضة في هذا السوق؛ وقد جلبت من داخل القارة الأفريقية: النعام، والبيغاوات زاهية الألوان، والطيور الصداحة، والقرود، والنسائيس، والفهود^(٧٣). وفي سنة ١٥٧٧م، بعد أقل من ستين سنة من سقوط دولة سلاطين المماليك، جاء رحالة أوربي واحد إلى الاسكندرية وقضى بها شهرا ونصف الشهر وذكر أن منطقة السوق كانت مزدهرة وكذلك حي

الأعمال والفنادق في المدينة؛ وتحدث عن الحمامات القريبة من مكان إقامته بجوار قلعة قايتباي بالأسكندرية^(٧٤)؛ وهو ما يؤكد وجود المؤسسات ذات الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية في المدن المصرية الأخرى.

وزار الراهب الفرنسيسكاني فرانسشكو سورياني مصر في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، وتحدث عن مدينة «رشيد» على ضفة المصب الغربي لفرع نهر النيل (فرع رشيد) ومينائها الذي تطله أشجار النخيل. وقال إن بداخل المدينة فندق كبير يملكه البنادقة^(٧٥) ونستنتج من مثل هذه الإشارات أن التشابه بين المؤسسات في المدن المصرية المختلفة كان قائما بالفعل، وأن هذه المؤسسات كانت موجودة بالفعل في المدن الأخرى، وإن كانت ذات أبعاد أصغر بحكم صغر مساحة تلك المدن عن مساحة القاهرة.

وهكذا، نستنتج من هذه الإشارات أن التشابه بين المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية في المدن المصرية كان قائما بالفعل، وأن هذه المؤسسات كانت موجودة في المدن الأخرى غير القاهرة بل كان عددها أقل بحكم الاختلاف في المساحة وعدد السكان.

أما من حيث شكل المدينة وشوارعها ومرافقها العامة، فقد قال أحد الرحالة عن شوارع مدينة القاهرة في ذلك الزمان كانت ضيقة وغير مرصوفة ومتعرجة وهناك مساحات كبيرة غير منتظمة الشكل خالية من أي مباني تزينها أو تُمثل يُميز وسطها (وكان هذا أمراً طبيعياً في ضوء كراهية المسلمين للصور والتماثيل التي ارتبطت عندهم بالأصنام) وهو ما لم يدركه ذلك الرحالة الأوربي. وكانت المساحات الفضاء في القاهرة خاصة تتحول إلى برك من المياه في وقت الفيضان، ثم تعود حقولاً وحدائق عندما تنحسر مياه النهر.

وفي شوارع المدينة يتدافع الجمهور من جنسيات مختلفة؛ فقد كانت القاهرة مدينة عالمية ومركزاً مهماً من مراكز التجارة العالمية، وتتنافس الناس مع الدواب من الجمال والحمير وغيرها على حق المرور في الشوارع الضيقة، والشارع ليس منظماً وإنما يسوده الاضطراب؛ فالبيوت تبنى وكأنها أقيمت بغير خطة وليست بينها فراغات. كما أن الحوانيت والبيوت متلاصقة بشكل أضرب نظام الشارع؛ فضلاً عن أن الشوارع مليئة بالمساجد والجوامع^(٧٧). وكانت هناك على بعد كل عشرين أو ثلاثين بيتاً بوابة لإغلاق المنطقة لمنع اللصوص من دخول البيوت أثناء الليل، أو عرقلة

خروج اللص الذى قد يفلح فى الدخول ، وفى بعض الأحيان كانت البوابة تغلق فى منتصف الليل^(٧٨).

وقد عاقت الحركة فى الشوارع تلك المصاطب التى بنيت أمام الحوانيت، وزاد من ازدحامها أن الباعة المتجولين كانوا يرصون سلعهم، من الخبز وغيره، على هيئة أكوام على الأرض مع أن الشرطة كانت تلاحقهم دائما، فقد كانت الشوارع مزدحمة بالسقائين؛ إذ عرفت القاهرة آنذاك طائفة من السقائين عرفوا باسم «سقائى الكيزان وأرباب الروايا والقرب والدلاء». ويبدو أنهم كانوا فئتين: أصحاب الحوانيت التى توضع بها الأزيار والكيزان ليشرّب منها الناس مقابل مبلغ زهيد من المال وكان المحتسب يراقب نظافة هذه الأزيار والكيزان، لكى يتأكد من عدم غش مياه النيل بمياه الآبار^(٧٩)، والفئة الثانية «أرباب الروايا والقرب والدلاء» الذين كانوا يبيعون المياه فى الأسواق من قرب يحملونها فوق ظهورهم. وكان السقاؤون وغيرهم يزحمون الشوارع، ويلفتون الأنظار بنداءاتهم؛ كل ينادى على بضاعته أو الخدمة التى يقدمها^(٨٠).

وكان بالمدن المصرية عدد من الحرفيين الذين يقومون بأعمال الحلاقة وبعضهم يعمل فى الأسواق أو فى الهواء الطلق حسبما ذكر «بيرو طافور» الذى قال إنه شاهد هؤلاء الحرفيين «... يذرعون شوارع القاهرة جيئة وذهابا، وقد ثبتوا على صدورهم المرايا وهؤلاء هم الحلاقون الذين يحلقون رؤوس المسلمين ويزينون وجوههم ويمرون فى الشوارع منادين على بضاعتهم». وكان الحلاق هو الذى يتولى قص الشعر وتهذيب الشوارب والذقون. وكان يبدو أن المعاصرين كانوا يفرقون بين «الحلاق» و«المزين». وقد ذكر السبكى أن من الناس من كان يذهب إلى «المزين» ليشقّب أذنيه ويضع فيها حلقتين، كما يفهم من بعض المصادر أن المزين كان يقوم بختان الأطفال أيضا^(٨١). وذكر جاستون فيبيت أنه كان هناك «... من يسيرون فى الشوارع ومعهم ما يشبه المرايا معلقة فى صدورهم وهم بصيحاتهم» اللى عايز يحلق؟ «ولا ينبغى أن ننسى أصحاب الحرف الذين كانوا يعملون أمام دكاكينهم فترى عدداً من الحمالين الذين يلبون أى طلب للمشتريين؛ «فهؤلاء على استعداد للقيام بأى خدمة لقاء أجر زهيد». وعلى مسافات متباعدة كان يوجد مجبرون ومسعفون لإسعاف من أغمى عليهم، أو من أصابهم أذى ويقومون أيضا بمعالجة الرضوض^(٨٢).

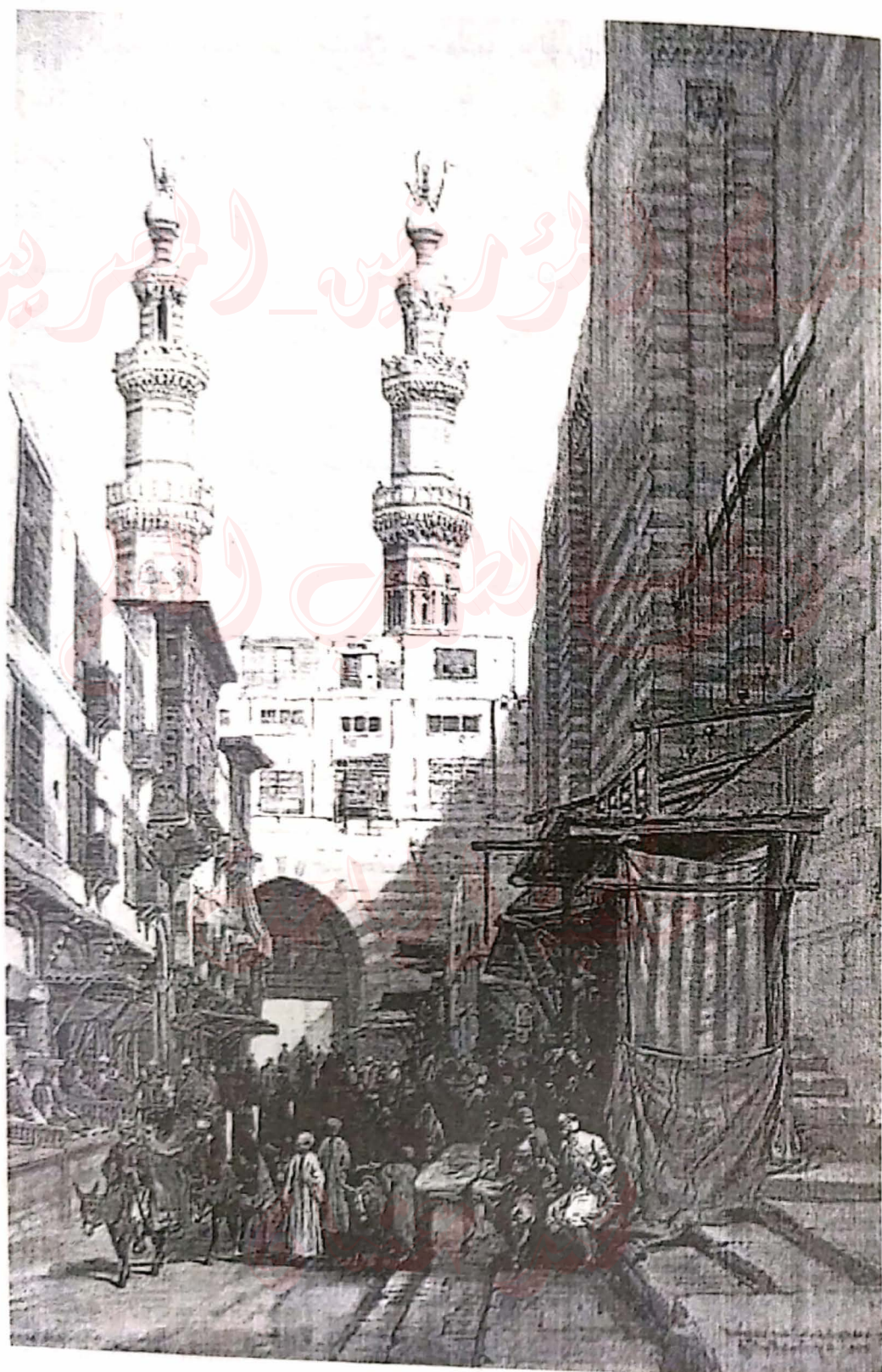
ومن ناحية أخرى، قال «بيرو طافور» إنه رأى عددا من الصبية السود الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة يجوبون أنحاء القاهرة وهم ينادون بصوت عال : من يريد الزبانة؟^(٨٢).

هكذا كانت الشوارع مزدحمة في القاهرة؛ فلكل حاجة تجارها؛ حتى إن الطباخين يغدون جينة وذهابا حاملين المواد وفوقها أطباق المحشى المعدة للبيع وهى ساخنة، وكان هناك آخرون يحملون صحاف الفاكهة يبيعونها للمارة^(٨٤).

كان الاهتمام بأمن المدينة المصرية عامة مسألة حساسة بالنسبة للسلطات المصرية؛ فقد عرف عن السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى اهتمامه بالأمن منذ بداية عهده؛ فقد ذكرت المصادر التاريخية أن السلطان أمر فى سنة ٥٦٦ هجرية أمر بقطع أيدي جماعة من نواب الولاية بالقاهرة والمقدمين بدار الولاية وخفراء وأصحاب رباع بسبب ظهور اللصوص الذين «..أفسدوا فسادا كبيرا..» وكان السلطان قد «..نزل ذات ليلة متنكرا ليرى أحوال الناس بالمشاهدة والمعاينة، فرأى واحدا من مقدمى الوالى وقد أمسك امرأة وعراها من لباسها وسطها بيده، والناس وقوف لا يجسرون أن يكلموه؛ فقال السلطان: «جميع أهل الولايات يفعلوا كذلك؟» فقبل إن بعض اللصوص الذين تم القبض عليهم اعترفوا للسلطان أن كل ما فعلوه كان باتفاق مع نواب الولاية والمقدمين والخفراء؛ فأمر السلطان بقطع أيديهم بعد أن تحقق من ذلك (٤٨).

ومن هذا النص الثير نخرج بعدة ملاحظات: أولها أن السلطان الظاهر بيبرس كان يتفقد بنفسه أحوال الأمن (وهذا كان من عادة ذلك السلطان العظيم على أى حال)، وثانيها أن النص يبين ألقاب ووظائف المسؤولين عن الأمن فى المدن المصرية: أى نواب الولاية والمقدمين بدار الولاية والخفراء وأصحاب الرباع. وثالثها أن المسؤولين عن الأمن كانوا أحيانا يشركون اللصوص سرقاتهم بالتواطؤ (على طريقة حاميتها حراميتها) ورابعها، أن السلطان لم يرض عن إهانة امرأة فعاقب المذنب ورفاقه .

وتقودنا هذا إلى الحديث عن أن مسئولية الأمن والنظام والنظافة فى المدن كانت من واجبات الوالى ومساعديه. فقد كانت دوريات العسس (الشرطة السرية) تحاول منع الاضطرابات، وكان أفراد تلك الدوريات يتربصون باللصوص وكان رئيس الدورية يتخذ طريقا مختلفا كل ليلة للقبض، بمهمته حتى لا يظن اللصوص والمجرمون إلى مسار الدورية فيتفادوا الوقوع فى طريقها. وكما



أحد شوارع القاهرة القديمة

يخرج وأمامه أحد رجاله يحمل مشعلا، ويحيط به رجاله والسقاؤون وحاملو الفئوس استعدادا لإطفاء أى حريق. وكان كل من يضبط فى مشاجرة أو سرقة يقاد إلى السجن^(٨٥). وكانت ممالك الأمراء وأجنادهم تتركب فى كل ليلة وتتفرق فى نواحي المدينة المدينة وضواحيها فإذا رأوا أحداً يمشى ليلاً حبس حتى يتبين أمره. وفى سنة ٧٥٣ هجرية والسنة التالية، زادت القوة أربعة أمراء، وأضيف لهم عدة أجناد من أجناد الحلقة للطواف بالليل خارج القاهرة^(٨٦). وبطبيعة الحال، لم تكن هذه الأمثلة الوحيدة التى أوردتها المصادر التاريخية ولكننا أردنا تقديم بعض الأمثلة الدالة على ذلك.

ومن ناحية أخرى، كان هناك اهتمام بنظافة المدن وتسوية طرقاتها وتمهيدها؛ ففي سنة ٧٨٢ هجرية أمر الأنابكى بقوق (قبل أن يتولى السلطنة) بقطع ما تكاثر من الأتربة وغيرها من الشوارع بالقاهرة ومصر^(٨٧) وفى سنة ٨٢٩ هجرية صدرت الأوامر بقطع ما ارتفع من الطرقات بالمدينة^(٨٨) وقد ذكر ابن الصيرفى أنه فى تلك السنة من حكم السلطان برسباى صدرت الأوامر السلطانية بأن «... يقطع كل واحد من أرباب الحوانيت ما تحت حانوته من الأرض ويرمى الناتج بالكيمان... فطلب الفعلة لقطع الأراضى... وطلب الحمار لنقل الأتربة ورميها»^(٨٩) كذلك كانت الأوامر تصدر من السلاطين بالزام الناس بإضاءة الشوارع والأزقة ليلاً؛ ففي سنة ٧٥٣ هجرية أُلزم الأهالى بذلك حتى أنه «... لم يبق حانوت ولا زقاق إلا وعليه قنديل يشعل طول الليل»^(٩٠) وكان على أصحاب الحوانيت أن يضعوا قدورا مليئة بالماء أمام حوانيتهم بشكل يسهل استخدامها فى حال حدوث حريق.

وكان يحدث أحيانا أن تصدر الأوامر بخروج الغرباء من القاهرة؛ مثلما حدث فى سنة ٨٠٢ هجرية أيام السلطان فرج بن بقوق، ولكن الأوامر لم تنفذ لأن ذلك السلطان كانت أيامه كلها فوضى وفساد^(٩١) وقد تكرر الأمر فى عهد السلطان قايتباى فى سنة ٨٢٧ هجرية عندما «... نودى بخروج أهل الريف من القاهرة.. فلم يخرج أحد.. وأكثر الناس من الكتابة على الحيطان: «من نصره الاسلام قتل الأعجام» وعلق المؤرخ ابن تغرى بردى على ذلك بقوله «... كل ذلك وأمر مصر غير مستقيمة». ويبدو أن الغرباء، أو بعضهم، كانوا يتسببون فى إثارة المشكلات؛ فقد ذكر ابن حجر أنه فى سنة ٨٤٠ هجرية نشبت مشاجرة بين الهنود الذين كانوا يقيمون إلى جوار مدرسة الصالحية وكانوا يشتغلون بالحلاقة لإصلاح شعور اللحي، وحدث بينهم

فى تلك السنة نفسها مشاجرة أخرى أسفرت عن أربعة قتلى؛ فصدرت الأوامر ألا يبقى أحد من الهنود بالقاهرة^(٩١).

ومن الأمور المثيرة أنه كان يحدث أحيانا أن يحاول المسئولون تنظيف المدينة من الكلاب التى كانت تسبب الضيق والمشكلات للناس؛ ففى سنة ٧٨٠ هجرية، أمر الأمير بركة بقتل الكلاب «... ولما كانت قد كثرت فى الشوارع والأزقة .. فقرر على كل أمير عددا من الكلاب .. وألزم أرباب الحوانيت أن يحضر كل صاحب حانوت كلبا، وألزم أهل الضواحي بمثل ذلك»^(٩٢). وفى مناسبات أخرى، كانت السلطات تحاول إخلاء الشوارع والساحات من الشحاذين؛ ففى سنة ٧٤١ هجرية، طلب المسئولون من يسمى «سلطان الحرافيش» ومن يسمى «شيخ الطوائف» لمنع الجعديّة من الشحاذة والسؤال فى الطرقات وإلزامهم بالتكسب^(٩٣).

على أية حال ، فإن الأمثلة التى أوردناها تكشف عن أنه لم تكن هناك هيئة حكومية دائمة مسئولة عن تسوية الشوارع أو تنظيفها ، تسير وفق سياسة ثابتة إنما كانت تتغير وفقا لشخصية السلطان الحاكم ومساعديه من ناحية ثانية، وكان يتم تكليف الأهالى من أصحاب الحوانيت وغيرهم بهذه الأعمال من ناحية ثالثة .

ويبدو من تكرار النداء بهذه القوانين فى الأسواق، وأماكن التجمع العامة، أن هذه الأوامر لم تكن تطبق دائما ، وإنما كان التجاوز عنها وعدم احترامها يمثل القاعدة على نحو ما بين المقرئى عندما قال إنها كانت مثل «ضرب رباب أو طن ذباب». ويبدو أيضا أن المدن المصرية الأخرى لم تكن تعاني من مثل هذه المشكلات ، لأنها كانت بالضرورة أقل ازدحاما من العاصمة، ولم تكن جاذبة للهجرات الداخلية من الريف مثل القاهرة بطبيعة الحال. بيد أن المدن المصرية الأخرى تشابهت مع القاهرة فى كثير من الجوانب الأخرى .

وكانت هناك من الناحية النظرية قوانين تنظم المرور فى شوارع المدينة المزدهمة؛ فقد كان ممنوعا مرور حمولة من القش أو التبن أو الأخشاب فى الطرق الرئيسية خوفا من حدوث الحرائق، ولكن مثل هذه الاحتياطات لم تمنع حدوث بعض الحوادث؛ فقد حدث فى سنة ١٥٠٨م أن فلاحا كان يقود جمليّن فى أحد الشوارع وهما محملان بالكتان فأمسكت النار من مسارح أحد الباعة بالكتان، وأصيب الجملان بالذعر، فاندفعا يدوسان الناس الذين سيطر عليهم الذعر، وقتل من

الناس عدد كبير، واستمرت حالة الذعر والفوضى تسيطر على المشهد حتى سقط الجملان نافقين في نهاية الأمر^(٩٦).

أما وسيلة المواصلات الرئيسية داخل المدن المصرية آنذاك، فكانت الحمير. وربما كانت الوسيلة الوحيدة التي يستخدمها الناس في انتقالاتهم داخل المدن وخارجها. ومن الطبيعي أنه كانت توجد في المدن مواقف خاصة بحمير الأجرة التي عرف أصحابها وسائقوها باسم «المكارية»؛ فقد ذكر ابن دقماق والمقرئزى عدة أماكن خصصت للمكارية في الفسطاط والقاهرة، وبها أحواض لشرب الدواب^(٩٧). وقد ذكر ابن بطوطة أن عدد المكارية في القاهرة كان حوالى ثلاثين ألف مكارية^(٩٨). كذلك ذكر بيرو طافور أنه هو ومرافقوه ركبوا حميرا بالأجرة عندما وصلوا إلى القاهرة وكانت هذه الحمير مجهزة جيدا بالبراذع واللجم، وقال أنها سريعة جدا^(٩٩). كما قال يوهان وايلد إن «.. الحمير الطيعة التي لا تعرف التعب كانت تشق طريقها وسط الزحام، ويؤجرها من يرغب في الشوارع. وكان كل أنماط الركاب يؤجرونها: السيدات الأنبيقات ومرافقونهن الذين يجرون بجانب الحمير، والتجار الذين يذهبون لمباشرة أعمالهم، والأجانب الذين يزورون المدينة لسبب من الأسباب^(١٠٠). وكان المكارية يهتمون كثيرا بتجهيز حميرهم وتزيينها لأنها في ذلك الزمان كانت تقوم بما تقوم به سيارات الأجرة في أيامنا هذه.

ويبدو أن بعض المكارية، آنذاك، لم يكونوا يهتمون سوى بزيادة ربحهم مثلما يفعل سائقو سيارات الأجرة حاليا؛ فقد ذكر السبكي مؤلف كتاب «معيد النعم ومبيد النقم» أن كثيرين من المكارية كان «.. لا يعجبه إلا أن يكارى الفاجرات من النساء، والمغانى منهن، لمغالاتهن في الكراء؛ فإنهن يعطين من الأجرة فوق ما يعطيه غيرهن»^(١٠١). وقال جاستون فيبيت، إنه كانت هناك مواقف خاصة لحمير الأجرة عند تقاطع الطرق تنتظر في صبر الزبائن الراغبين في ركوبها، داخل المدينة أو خارجها، وأن لكل حمار «سائقه، رجلاً كان أو طفلاً، يهزم من الخلف ليدفعه على الاستمرار في السير؛ بحيث كنت ترى طابوراً من الرجال والدواب على طول الطريق؛ ويبدو أن حمير الأجرة كانت تصبغ أذناها وذيلها باللون الأصفر^(١٠٢).

ويبقى أن نتحدث عن منازل المدن المصرية في عصر سلاطين المماليك. فقد كان سكان القاهرة يعرفون عدة أنماط من السكن؛ تدرجاً من القصور والبيوت التي شيدها الأمراء الكبار

والأثريا، على شاطئ، النيل فى بولاق، إلى الربع والحوش اللذين كانا سكن الفقراء فى قاهرة ذلك الزمان^(١٠١). وقد وصف الرحالة والزوار الأوربيون المنازل التى كان يبنيتها الأثريا، وارتفعت فى بعض الأحيان أربعة أو خمسة طوابق. وقد وصلنا من القصور التى بناها أمراء المالك فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، (والتي أحصى القرينى منها إحدى وستين داراً فى تلك الفترة) أربعة قصور فقط هى: قصر «الين باق» بشارع باب الوزير حالياً، وقصر قوصون - يشبك خلف مدرسة السلطان حسن، وقصر الأمير طاز بشارع السيوفية، وقصر بشتاك فى منطقة بين القصرين.

والأسلوب المعماري واحد فى هذه القصور التى بقيت من عوادي الزمن وكان يشغلها كبار الأمراء، وكانت الضخامة والفخامة فى تلك القصور تعبر عن قوة صاحبها ومكانته. وعادة ما كان الأمير المملوكى يبنى بالقرب من داره رباعاً ومدرسة^(١٠٢).

أما المنازل التى كان يبنيتها الأثريا، فقد كان الجزء الأسفل منها يبنى من الطوب الآجر أو الحجر الجيرى، والجزء العلوى مشيد من الخشب الخفيف. وكانت أسقف المنازل مسطحة بحيث يستطيع السكان أن يستريحوا نسيم المساء البارد فى أمسيات الصيف عندما يجلسون فى تلك الأسطح، وكان بعض الناس ينامون فوق الأسطح فى الصيف^(١٠٣).

كانت واجهات المنازل بسيطة للغاية، وجدرانها خالية من أى زخرفة. ولم تكن هناك نقوش أو زخارف على البيت تزينه من الخارج سوى المشربية المطلة على الشارع، والمصنوعة من قطع الخشب المخروط بشكل جميل من النوع الذى نسميه الآن «أرابيسك»، وكانت مرتبة ومركبة على نحو يجعلها تكون أشكالاً هندسية رائعة مختلفة. وكانت لها فائدتها من الناحية العملية؛ إذ كانت المشربية ترضى حب الاستطلاع عند من هم داخل البيت، خاصة البنات والسيدات، بدون أن يراهن أحد من فى الشارع. وكانت بيوت كبار القوم والأثريا تبدو متواضعة من الخارج، على حين كانت بالغة الروعة من حيث فخامتها واثرائها من الداخل. فقد كانت تزينها الزخارف الغنية التى رسمت بألوان مختلفة دقيقة، كما استخدم الرخام وغيره من الأحجار الملونة. أما غرفة الاستقبال، فكانت مبلطة بالرخام متعدد الألوان، وفى وسطها نافورة تضخ الماء طول الوقت. والأرض مغطاة بالبسط والسجاد. وكانت الإضاءة طبيعية من ضوء النهار بسبب توسطها الفناء المفتوحة؛ فضلاً عن أن تلك البيوت كانت مبنية عن ضوء المدينة وصخبها.

وكانت مساكن الفقراء عادة تتمثل فى «الربع» الذى وصفه باحث متخصص أنه «عبارة عن نوع من السكن المفروش، يمكن تأجير عدد من الشقق فيها يصل إلى عشر أو خمس عشرة شقة أو أكثر؛ يأوى كل منها عددا من الناس قد يصل إلى عشرة أشخاص... وغالبا ما كانت الأرباع تشغل الأدوار التى تعلو الدور الأرضى، الذى تشغله الدكاكين أو الورش أو مخازن البضائع التجارية. وعادة ما لم تكن هناك صلة بين الطابق الأرضى والطوابق السكنية التى تعلوه»^(١٠٥). ولم يكن هناك فناء عادة فى الربع، ومن الواضح أن الربع لم يكن متاحا لسكنى الناس الأشد فقرا؛ فقد كان السكن فيه بالإيجار ولم هناك الكثيرون الذين يقدرّون على دفع الإيجار.

وقدنا الوثائق بفكرة عن نوعية السكان فى الربع؛ ففى وثيقة نشرها أحد الباحثين عن القيسارية الواقعة غرب جامع المؤيد شيخ وكانت من الأوقاف التى أوقفها الظاهر بيبرس، وكانت تضم ثمان وأربعين شقة موزعة على طابقين. وكان يسكن فى هذا الربع بعض الأسر التى تعولها النساء، وأحد الحدادين وفقهيا، وصانع فخار، وصانع غزل. وكان حراس الربع (الربعيون) يشغلون ثلاثا من هذه الشقق^(١٠٦) وفى بعض الأحيان كان بعض الأبناء الكبار من العائلة نفسها يسكنون شققا منفصلة فى الربع الذى تسكنه العائلة^(١٠٧). ومن الواضح أن سكان الربع غالبا ما كانوا من الحرفيين والعمال، وربما كانت هناك سيدات وحيدات.

وقد تحدث المقرئى عن نوعية أخرى من سكان الربع فقال أن سكان «ربع الزيتى» كانوا من أهل الخلاعة، من أهل المغنى والموسيقى، وكان هذا الربع يشرف على الخليج الناصرى ومن حوله الأشجار والبساتين^(١٠٨) كما تحدث أيضا عن مكان عرف باسم «عمارة أم السلطان» كان يعلوها ربع جليل لسكن العامة يشمل عدة طباق^(١٠٩) وهو ما يكشف عن انتشار ذلك النمط من المساكن فى أنحاء العاصمة.

وثمة نوع من المساكن كان أكثر تواضعا عرف باسم «الحوش». وتصفه الدكتورة نبيللى حنا بأنه سكن أفقر سكان المدينة من العمال والصناع اليدويين، وأبناء الريف الذين وفدوا حديثا إلى العاصمة، والمكارية والسقاؤون، والحمالون، وخدم المنازل. وكانت الأحواش تبنى غالبا من الطوب اللبن، وتضم غالبا فناء عند مستوى الأرض ويحيط به عدد من الأكواخ، وربما كان به بعض غرف فى الأدوار الأعلى يصل إليها السكان عن طريق السلم. ويضم الفناء منطقة الأكل الجماعى

ومرحاضا. وكانت الأحواش تختلف عن بعضها البعض من حيث عدد وحداتها السكنية^(١١٠). وكان كثير من الناس يلجأون إلى بناء مساكن أكثر بدائية من تلك التى تحدثنا عنها؛ فقد قال أحد الرحالة الذين زاروا المدينة أواخر القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى إن المرء يرى كثيرا من الناس يعيشون فى خيام خارج القاهرة^(١١١) وفى المدينة، كان كثير من الفقراء ينامون تحت غطاء السماء ويفترشون الأرض، وعندما يطلع النهار ينهضون ويتوجهون للعمل، ولاحظ زوار القاهرة آنذاك أعدادا كبيرة من الناس لا يملكون مسكنا ونامون فى الأماكن المفتوحة وقدروا أعدادهم بالآلاف^(١١٢).

هذه صورة إجمالية للمدينة المصرية فى عصر سلاطين المماليك جمعنا فيها أهم الملامح العامة للمدن المصرية، وتحدثنا عن أهم مرافقها ومؤسساتها الاجتماعية والاقتصادية، وعن نظم المدينة المصرية والمسؤولين الذين كانت مهمتهم حفظ الأمن ومراقبة الشوارع وتنظيمها أو تنظيفها. وتحدثنا فى سياق حديثنا هذا عن بعض العادات والتقاليد التى ميزت بعض المدن المصرية التى تحدثت عنها المصادر التاريخية وكتابات الرحالة المسلمين والأوروبيين الذين زاروا مصر فى ذلك العصر. وأمدتنا ببعض الملاحظات القيمة عن البيئة من حولهم، ويبقى أن نتحدث عن حياة الناس داخل هذه المدن وتفاعلاتهم مع بعضهم البعض، ومع البيئة ومعطياتها من حولهم.

مكتبة الباحث
محرر بحثنا



هوامش الفصل الأول

- (١) رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (تحقيق الدكتور على منتصر الكنانى)، بيروت ١٤٠٤ هجرية - ١٩٨١ م، ج ١، ص ٣٥.
- (٢) المقرئى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (مطبعة بونى الأميرة)، ج ١، ص ٣٧٣-٥٧٣.

(3) Ashtor . E.. A Social and economic History of the Near East in the Middle Ages (collins. London 1979, pp. 86-91).

(٤) الخطط المقرئية، ج ١، ص ٧٣.

(٥) نفسه، ج ١، ص ٣٧٣-٣٧٥.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، (تحقيق الدكتور محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٢ هجرية ١٩٨٢ م، ج ٣، ص ١٧٧، ج ٤، ص ٣٢٤).

(٧) الخطط، ج ٢، ص ٩٨.

(٨) نفسه، ج ٢، ص ١٠٢-١٠٣.

(٩) نفسه، ج ٢، ص ١٠٣.

(١٠) نفسه، ج ٢، ص ٩٥.

(١١) نفسه، ج ٢، ص ٢٩.

(١٢) قاسم عبده قاسم، الأسواق المصرية فى عصر سلاطين المماليك (دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية)، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هجرية - ٢٠١٤ م.

(١٣) ابن الصيرفى، انباء الهصر بأبناء العصر، (تحقيق الدكتور حسن حبشى)، دار الفكر العربى، ١٩٧٠ م، ص ١٧٨.

(١٤) الخطط، ج ٢، ص ٩٦.

(١٥) نفسه.

(١٦) رحلة ابن بطوطة، ج ١، ص ٣٧-٣٨.

(١٨) رحلة بيرد طافور في عالم القرن الخامس عشر ، (ترجمة الدكتور حسن حبشى) ، دار المعارف ١٩٦٨م.

ص ٥٩ .

(١٩) نفسه ، ص ٦٤ .

(٢٠) نفسه ، ص ٩٩ .

(٢١) نفسه ، ص ٥٩ .

(٢٢) ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج ٥ ، صفحات ٢٥-٣٠ ، ٤٧-٨٠ ، ٧٣-٨٤ ،

٩٩-١٠٠ .

(٢٣) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٤٤-٤٧ .

(٢٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٤٨-٤٩ .

(٢٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٥١ .

(٢٦) تم اكتشاف هذه الأوراق في معبد الشوام بمصر القديمة (الفسطاط) وهو خاص بجماعة اليهود الفلسطينيين . وقد اهتم بهذا المعبد علماء الآثار بسبب قدم المعبد وبدأوا العمل فيه قبل إعادة بنائه سنة ١٨٩٢م . وتضم أوراق الجنيزا (وهي الأوراق التي تحمل اسم الله ولا يصح حرقها فحفظوها في جرار فخارية) وبها معلومات مهمة عن أحوال اليهود في مصر والمنطقة المحيطة بها من الناحية الاقتصادية والاجتماعية . قاسم عبده قاسم ، اليهود في مصر من الفتح الاسلامي حتى الغزو العثماني (دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية) ، ١٤٢٦ هجرية-٢٠١٥ م ، ص ٣٢-٣٣ .

(٢٧) رحلة بنيامين التطيل ، (ترجمة عزرا حداد بغداد) ١٣٨٩ هجرية ، ص ١٧٠-١٧٤ .

(٢٨) نفسه ، ص ١٧١ ؛ قاسم ، اليهود في مصر ،

(29) Mark Cohen. Jewish self- government in the Medieval Egypt (Princeton University Press) p. 3 ; Ashtor . E., Prolegomena to the Medieval History of Oriental Jewry in: the Jews and Mediterranean Economy (London 1983) pp. 55-56; Goitein. 'Jewish Society and Institutes under Islam (New York 1997), p. 173.

(٣٠) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٦٣-٦٦ .

- (٣١) الخطط المقرزية ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .
- (٣٢) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٦٥ .
- (٣٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٦٥ .
- (٣٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٦٨ .
- (٣٥) نفسه .
- (٣٦) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٠ .
- (٣٧) ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٩٩ - ص ١٠١ .
- (٣٨) قاسم ، اليهود في مصر ، ص ٥٢ .
- (٣٩) آن رولف ، كم تبعد القاهرة؟ ، ص ٨٣ .
- (٤٠) الخطط المقرزية ، تحقيق الدكتور أيمن فؤاد سيد ، مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامى بلندن ١٤٢٣ هجرية / ٢٠٠٢ م ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ - ٣٠٣ .
- (٤١) نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١٥ - ٣٥٤ .
- (٤٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦١ - ٢٨٥ .
- (٤٣) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ .
- (٤٤) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ .
- (٤٥) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣١٠ .
- (٤٦) آن رولف ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ - ١٢٥ .
- (٤٧) الخطط ، ج ٣ ، ص ٣١٠ .
- (٤٨) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .
- (٤٩) آن رولف ، المرجع السابق ، ص ٢١١ .
- (٥٠) الخطط ، ج ٣ ، ص ٧٤٢ - ٧٤٤ .
- (٥١) ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٠٤ - ١٠٦ .

(٥٢) ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م) ، الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة، ص ١٠٣ .

(٥٣) ابن سيده ، المحكم والمحيط الأعظم ، ج ٢ ، ص ٣٨٥-٣٨٦ .

(٥٤) الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ .

(٥٥) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٨ .

(٥٦) نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

(٥٧) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧٦ .

(٥٨) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ .

(٥٩) ابن خلدون ، المقدمة ، (المطبعة الأميرية ببولاق) ، ص ٤٢٢ .

(٦٠) آن وولف ، المرجع السابق ، ص ١٧١ .

(٦١) ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٥٣ .

(٦٢) آن وولف ، المرجع السابق ، ص ١٠٣-١٩٦ .

(٦٣) جاستون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ص ١٠٠ .

(٦٤) نفسه .

(٦٥) آن وولف ، كم تبعد القاهرة ، ص ١٩٣-١٩٤ .

(٦٦) ابن الأخوة ، معالم القرية فى أحكام الحسبة ، ص ٢٤٠-٢٤١ .

(٦٧) نفسه ، ص ٢٤٢ ؛ ابن الحاج ، المدخل إلى الشرع الشريف ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ .

(69) Ahmed abd Arraziq , La Femme au tmepts Mamluks en Egypte. pp. 44-45.

(٧٠) قاسم عبده قاسم ، عصر سلاطين المماليك ، ص ٣٢٨ .

(٧١) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ ؛ المقرئى الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ؛ ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور

فى مدى الأيام والشهور ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(٧٢) آن وولف ، المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٧٣) نفسه ، ص ١٤٥-١٤٦ .

- (٧٤) نفسه، ص ١٤٦.
- (٧٥) جاستون فييت، القاهرة، ص ٦٢.
- (٧٦) نفسه، ص ٦٤.
- (٧٧) نفسه، ص ٦٦.
- (٧٨) ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٣٤٨؛ بيرو طافور، ص ٩٦.
- (٧٩) السبكي، معبد النعم ومبيد النقم، ص ١٩٠-١٩٢.
- (٨٠) بيرو طافور، ص ٩٦.
- (٨١) ابن أبيك اللواداري، الدرّة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص ١٠٦-١٠٧؛ المقرئى السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٤٠.
- (٨٢) جاستون فييت، القاهرة، ص ٦٦.
- (٨٣) السلوك، ج ٢، ص ٩٠٢.
- (٨٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٢٤٥-٢٤٧.
- (٨٥) نفسه، ج ٢، ص ١٠٤؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٢، ص ١٠١.
- (٨٦) المقرئى، السلوك، ج ٤، ص ٧١٢.
- (٨٧) نفسه، ج ٢، ص ٨٧٩.
- (٨٨) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٣، ص ٢٤١.
- (٨٩) المقرئى، السلوك، ج ٤، ص ٦٧٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٨٩-٢٥٣؛ ابن حجر، انباء الغمر، ج ٤، ص ٤١-٤٢.
- (٩٠) نفسه، ج ٢، ص ٨٨٠.
- (٩١) ابن تغرى بردى، النجوم، ج ١٥، ص ٦٧؛ ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٣٥.
- (٩٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٣٥.
- (٩٣) ابن دقماق، الانتصار، ج ٤، ص ٧٢؛ الخطط، ج ٢، ص ١٢٩.

(٩٤) ابن بطوطة، ج ١، ص ٥٣.

(٩٥) بيرو طافور، ص ٦٤؛ جاستون فييت، ص ٦٩.

(٩٦) آن وولف، المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٩٧) السبكي، معبد النعم، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٩٨) جاستون فييت، القاهرة، ص ٧١.

(٩٩) آدم صبره، الفقر والإحسان، ص ١٧٢-١٧٣.

(١٠٠) جاستون فييت، القاهرة، ص ٧٣-٧٥.

(١٠١) آدم صبره، المرجع السابق، ص ١٧٣.

(١٠٢) نفسه، ص ١٧٥.

(١٠٣) نفسه، ص ١٧٥.

(١٠٤) أين فزاد، المقدمة، ج ٣، ص ٤٩-٥٦.

(١٠٥) الخطط، ج ٣، ص ٢٥١.

(١٠٦) نفسه، ج ٣، ص ٢٥٩.

(١٠٧) آدم صبره، الفقر والإحسان، ص ٧٧.

(١٠٨) نفسه، ص ١٧٩.

(١٠٩) نفسه، ص ١٧٩-١٨٠.

(١١٠) المقرئ، الخطط، ج ٣، ص ٢٥١.

(١١١) آدم صبره، المرجع السابق، ص ١٨٠.

(١١٢) نفسه، ص ١٨٠.

الفصل الثانى

شكل الحياة فى المدن المصرية

كيف كانت تبدو الحياة فى المدن المصرية فى عصر سلاطين المماليك ؟

مدخل - الحرف والصناعات والمهن المعروفة فى المدن المصرية
(حرف الطعام - حرف الملابس -الحرف والصناعات الأخرى) -
وسائل الترفيه والتسلية (حدائق الحيوان -المتنزهات العامة - أرباب
الملاعب - فنانو الشوارع - الحواة والمصارعون والمشالقون ومدرسو
الحيوانات - خيال الظل) الموسيقى والغناء - اللهو غير البرى ،
(الخمور والحشيش -الدعارة) الجرائم (القتل - المشاجرات - السطو
المسلح - النصب - القوضى والاضطرابات) الحرائق - الزلازل -
الأوبئة والمجاعات - إنشاء الأزيكبة - الأعياد والاحتفالات .

لم تكن جميع المدن المصرية متساوية فى قدرها وقدرها فى ذلك العصر؛ إذ لم تكن فترة القرون
الثلاثة التى عاشتها دولة سلاطين المماليك قد مرت بإيقاع منتظم واحد على جميع المدن . بل
إن التغيرات التى طرأت على المجتمع المصرى كانت آثارها متفاوتة بين كل مدينة وأخرى ، سلبيًا
وإيجابيًا ، وكانت تلك التغيرات فى الشطر الأول من ذلك العصر مختلفة عن التغيرات التى حدثت
فى الشطر الثانى منه. فقد كانت بعض المدن قد اشتهرت بصناعة معينة أو إنتاج صنف بعينه ،
تسبب فى نموها وازدهارها فى القرنين الأولين من عصر سلاطين المماليك ، على حين كانت مدن
أخرى قد ارتبطت بالإنتاج أو التصدير والاستيراد فى بضائع بعينها ؛ ثم تبدل الحال غير الحال مع
التدهور الاقتصادى والسكانى الذى ألم بها فى القرن الأخير من عمر الدولة . ومن ناحية أخرى،
كانت هناك بعض المدن التى اشتهرت بكونها مراكز علمية وثقافية فى عصر دولة المماليك الأولى
(البحرية) ، ثم ذبلت وتدهورت مكانتها فى نهاية عهد الدولة المملوكية الثانية (الجراكسة) ،
كما أن بعض المدن تبدلت حظوظها الإدارية والسياسية ؛ فبعد أن كانت المركز الإدارى والعاصمة
السياسية للإقليم الذى تقع فيه ، تخلت عن مكانتها لمدينة أخرى تحت وطأة التغيرات التى جرت
على البلاد كلها اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا .

وهكذا، لا يمكن رسم صورة واحدة لشكل الحياة فى المدن المصرية آنذاك . ومن ناحية أخرى ، لا يمكن أن يكون شكل الحياة اليومية فى أي من هذه المدن مناظراً ، أو مشابهاً ، لشكل الحياة اليومية فى القاهرة ؛ لأن الحياة اليومية فى العاصمة كانت مختلفة بالضرورة بسبب اتساع رقعة القاهرة ، وكثرة عدد سكانها ، فضلاً عن أنها كانت عاصمة البلاد وقاعدة الحكم والمركز الاقتصادى والسياسى للدولة . ومن ثم انفردت ببعض الملامح التى لم تشاركها فيها المدن المصرية الأخرى ، بيد أن التطورات التى جرت على البلاد عامة اشتركت فيها كل المدن والقرى المصرية فى ذلك الزمان بالضرورة .

وربما يكون مناسباً أن نبدأ الحديث عن الحرف والصناعات والمهن التى اشتغل بها المصريون من عامة الناس فى المدن ، مع الأخذ فى الاعتبار أن من الناس من عمل فى مهن ارتبطت بالحياة العلمية والثقافية ، ومنهم من عمل فى مهن ارتبطت بالحياة الإدارية والدينية ، ولكننا سوف نقصر دراستنا على غالبية الذين عملوا فى الحرف والصناعات والمهن التى كانت ترتبط بالحياة اليومية فى هذه المدن .

وقد عمل الناس بطبيعة الحال فى جميع المهن والحرف والصناعات المعروفة فى ذلك الحين . وإذا بدأنا بذكر الحرف والصناعات المتعلقة بالحياة اليومية ، فمن الطبيعى أن نتحدث عن الحرف المتصلة بالغذاء . وقد ذكر أحد كتب الحسبة سبع عشرة حرفة تتصل بأنواع معينة من الطعام ^(١) . ولكن كتاب ابن الأخوة لم يهتم بإحصاء كل المهن والحرف التى تتعلق بالطعام طبعاً ^(٢) ، فقد أغفل صناعة الخبز ، مثلاً ، والحرف التى ارتبطت بها مثل الطحان والفران والخباز أو غيرهم ^(٣) كما أنه لم يذكر شيئاً عن صناعة السكر التى كانت من الصناعات الغذائية المهمة فى مصر آنذاك ^(٤) . على الرغم من أنه تحدث عن أنواع من الحلوى المعروفة فى مصر آنذاك . وتحديث المصادر التاريخية أيضاً عن حرف أخرى تتصل بالغذاء تنوعت تنوعاً كبيراً مثل: الطحانين والنقائين (من يصنعون النقانق، وهى السجق)، وبييعونها فى الأسواق والكبوديين (الذين يبيعون الكبدة ، والبواردين (بياعو المشهيات من الطرشى والمخللات والطيور المملحة التى كانت رائجة آنذاك)، والجزارين والرواكسين (أى بياعو لحم الرأس) ... وغيرهم كثير ^(٥) . وفى هذه الدراسة نهتم بشكل الحياة فى المدن المصرية ومدى تأثيرها ، أو تأثيرها ، فى الحياة اليومية فى مصر عموماً فى تلك الأيام ، ومن ثم فإننا لا نقوم بمسح أو إحصاء لكل الحرف والصناعات الغذائية أو غيرها .

ومن المنطقي أن هذه لم تكن كل الحرف المتصلة بالغذاء فى ذلك العصر الذى اتسم فى شطره الأول بالوفرة والكفاية التى نوه عنها المؤرخ تقى الدين المقرئى ، عندما قال إن ما كان يرمى على الكيمان والمزابيل يساوى ألف دينار ذهباً .. مما يرمى فى المزابيل والكيمان مما يستعمله الجبانون ، واللبانون والطباخون ، من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن التى يوضع فيها الجبن ، والتى يأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين ، وما يستعمله بياعو الجبن ..^(٦) . ويشير كلام المؤرخ الكبير إلى تنوع حرف الغذاء تنوعاً كبيراً .

وفى تصورى أن هذه الوفرة التى تحدث عنها مؤرخنا الكبير فى إنتاج الطعام الجاهز ، كان السبب وراءها أن عامة الناس فى المدن الكبيرة ، وأهمها القاهرة ، قد اعتادوا الأكل خارج بيوتهم فى عصر سلاطين المماليك ؛ فقد كان معظمهم من البسطاء ومن الشرائع الدنيا الذين لم تكن بيوتهم مجهزة بالمياه وما تتطلبه المطابخ من التجهيزات والاستعدادات من ناحية ، وربما كانت طبيعة عملهم فى الورش والحوانيت والأسواق ، تفرض عليهم تناول وجبة الغذاء فى المطاعم من ناحية أخرى . وكانت المطاعم التى تبيع الطعام الجاهز كثيرة جداً فى القاهرة لدرجة أن أحد الرحالة الأوربيين الذين زاروا المدينة فى القرن الخامس عشر قدر عدد هذه المطاعم باثنى عشر ألف مطعم^(٧) . وقد ذكر المقرئى أن غالبية رواد تلك المطاعم ، كانوا من عامة أهل المدن والفقراء الذين كانت المطابخ تقدم لهم الوجبات المطهية الساخنة بأسعار رخيصة ، كذلك كانت عربات الباعة الجائلين تقدم الطعام الساخن وتحتتها المواقد مشتعلة لضمان بقائها ساخنة للزبائن فى الأسواق والشوارع ولأصحاب الحوانيت^(٨) . أمّا الميسورون من الناس ، فقد كانوا يرسلون ما يريدون طهوه من الأطعمة إلى حوانيت الشرائحية (وهم أصحاب المطابخ المتخصصة فى طهى الطعام وتجهيزه للعائلات فى المنازل وإرساله بعد طهيته وتجهيزه بالتوابل ومكسبات الطعم والرائحة ، أو الأفاويه ، على حد تعبير ذلك العصر) ، ويرسل الشرائحية الأطعمة مجهزة بعد إتمام طهيها إلى المنازل مغطاة فى قدورها حتى لا يلوّثها الغبار أو تقتحمها عيون الفضوليين من المارة فى الشوارع .

ومن ناحية أخرى ، عمل المصريون فى عدد كبير من الحرف والصناعات والمهن ، كما ذكرنا فى السطور السابقة . فقد عرفنا أن البعض كانوا يعملون بشكل وراثى فى مهنة العطارة التى كانت تقوم مقام الصيدلة فى عصرنا وتتطلب نوعاً من المعرفة والخبرة التى كان يوفرها التخصص الموروث داخل بعض العائلات فى المدن المصرية الكبيرة : مثل القاهرة والاسكندرية والمحلة الكبرى وغيرها

من المدن التى كان بها بعض اليهود يعملون فى العطارة إلى جانب المسلمين^(١١). وفى صناعات أخرى مثل : الصباغة ، وأشغال المعادن ، خاصة صياغة الذهب والفضة، وصناعة الأوانى الزجاجية ، وأعمال النسيج ، وأشغال الحرير ، وصناعة الجبن ، والسكر ، و دباغة الجلود... وصناعات ومهن وحرف أخرى كثيرة فى القاهرة والاسكندرية ، ومدن الدلتا والوجه البحرى عامة ، عملت جمهرة كبيرة من أهل المدن عامة فى هذه الحرف والصناعات المذكورة^(١٢).

وقد عرف المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك أكثر من أربعمئة وخمسين حرفة ومهنة وصنعة عمل بها أهل المدن وبعض الوافدين إليها ؛ وكان بعضها على درجة عالية من التخصص وتقسيم العمل: مثل صناعة تكفيت المعادن بالذهب والفضة التى نعتقد أنها كانت قاصرة على القاهرة وحدها ، كما أن صناعة الشموع كانت تتطلب مهارة عالية ونعتقد أن الصناع العاملين فى صناعة الشموع ، التى كانت الوسيلة الأسهل لإضاءة المنازل والخوانيت آنذاك ، كانوا موجودين فى غالبية المدن المصرية فى ذلك الحين . وقد كشفت لنا المصادر التاريخية وأوراق الجينيزا ، عن تقسيم العمل والتخصص الذى كان ساريا فى أوساط العاملين فى عدد كبير من الحرف والصناعات اليدوية التى عمل بها المصريون فى ذلك العصر فى مختلف المدن المصرية : مثل القاهرة ، والاسكندرية، والمحلة الكبرى ، وقلوب ، وبنها العسل (بنها) ، وشطانوف وغيرها من مدن الوجه البحرى^(١٣). واشتهرت بعض مدن الدلتا ، مثل صهرجت والمحلة الكبرى بتفوقها فى الصباغة ، التى كانت فى تلك الأيام من أهم الحرف اليدوية المنتشرة فى المدن المصرية ، وما يؤكد على أهمية هذه الحرفة اليدوية ، أن كتب الحسبة أفردت فصلا مستقلا للحديث عن الصباغة والصباغين حددت فيه متطلبات العمل فى الصباغة ، وما يجب على من يحترف هذه الحرفة التى تتعلق بأقمشة الناس وملابسهم ومظهرهم الاجتماعى وأناقاة ملابسهم ،من حيث إتقان الصباغة ومراعاة بعض المتطلبات الأخرى^(١٤). فقد كان بعض الناس يرسلون أقمشتهم إلى الصباغين لصباغتها مقابل أجر متفق عليه بشرط إجادة الصباغة ، ويبدو أنه كان من المتعارف عليه أن يلتزم الصباغ بأن يدفع تعريضا إذا ما أفسد قماش أحد الزبائن أثناء قيامه بصبغته^(١٥) . ومن الطريف أن كتاب ابن الأخوة ، الذى كان متخصصا فى أحكام الحسبة فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى ، قد اتهم معظم الصباغين بأنهم «... يرهنون أقمشة الناس ، ويعبرونها لمن يلبسها ويتزين بها ، وهذه خيانة وعدوان...»^(١٦).

ومن الواضح أن حالات الغش والاحتيال والتلاعب فى هذه الحرف ، وفى غيرها ، كانت معروفة فى الحياة المصرية آنذاك ، كما هو الحال الآن ، ومن خلال كتب الحسبة وما تحويه من تنبيهات وأوامر ونواهى يمكن أن نفهم الكثير من نواحي الحياة اليومية وتعامل الناس مع أرباب الحرف ومعاملة الحرفيين مع الناس فى ذلك العصر .

على أية حال ، ارتبطت الملابس وصناعتها بحرف يدوية أخرى عديدة : فقد عرفت عمليات تصنيع القماش بعدة مراحل فيما كان يسمى « القزازه » ، وعرف أصحاب هذه الحرفة باسم « القزازين » الذين كانوا موجودين فى عدد من المدن المصرية فى الوجه البحرى والوجه القبلى . وقد أحصت المصادر عدد « القزازين » فى مدينة الاسكندرية ، على سبيل المثال ، فى سبعينيات القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، فكان عددهم يزيد على أربعة عشر ألف نول يدوى ، ولكن هذا العدد تقلص بعد سبعين سنة تقريبا ، إلى ثمانمائة نول يدوى فقط سنة ٧٣٨ هجرية « .. ففشا فيهم ظلم الحكام ، وكثرة الجور ، وشؤم السيرة ، فتشتتوا فى البلاد شذر مذر .. » ^(١٤) . ويستفاد من بعض المصادر التاريخية أن « القزازين » كانوا فى مصر آنذاك ينقسمون قسمين : قسم يعمل لحساب أصحاب الورش الصغيرة المنتشرة فى شتى المدن المصرية بالأجر ؛ وقسم يعملون لحسابهم الخاص : ومن هذا القسم الثانى كانت توجد فئة يأخذون الغزل من الزبائن لينسجوه لهم على أنوالهم مقابل أجر يتفق عليه ؛ وفئة أخرى يشترون الغزل لحسابهم ، ثم ينسجونه على أنوالهم أيضا ويبيعونه فى السوق أثوابا جاهزة من القماش للزبائن .

بعد عملية نسج القماش ، كانت تأتى العملية التالية بعد انتهاء مهمة النسيج ، وهى عملية « القصارة » لتبييض القماش ؛ فقد كان القصارون يقومون بالعمليات التكميلية التى تلى النسيج حتى تتداخل اللحمه والسداة فى القماش بشكل يكسب القماش الليونة والنعومة المرغوبة لكى يصير القماش مناسباً لعمل الملابس . وكانت جودة القماش تعتمد على المهارة والإتقان فى عملية القصارة . وفى هذه العملية كان القماش المنسوج يرش بالماء وينشر ، ويعاد رشه بالماء ونشره عدة مرآت حتى يبيض لونه تماما . ويبدو أن بعض القصارين كانوا يفتقرون إلى الأمانة ، فكانوا يأخذون القماش من زبائنهم ، ويستخدمونه فى بيوتهم وكأنه ملك لهم « .. ويتعلل لصاحبها كلما طالبه بها أنها لم تفرغ بعد من قصارتها .. » ^(١٥) . وكانت تتصل بالملابس حرف أخرى مثل : الرقائين ، والحباكين ، والفرائين ، والرسامين ، والخياطين . ^(١٦) ولسنا نقصد فى هذه

الدراسة عن الحياة اليومية فى مصر، أن نقوم بإحصاء الحرف والمهن والصنائع ، وإنما نشير إلى أهمها مما يتعلق بالحياة اليومية ، لاسيما أننا عرضنا للحرف والصناعات بالتفصيل فى دراسات أخرى سابقة^(١٨).

على أية حال ، كان الحرفيون والصنّاع اليدويون فى المدن المصرية ينتمون إلى الشرائح الدنيا فى المجتمع المصرى آنذاك . ومع هذا ، كانت هناك تقاليد راسخة تحكم العلاقات داخل كل طائفة من الحرفيين أو الصنّاع. فلم يكن العمل البدوى فى مجتمع ذلك الزمان ينقص من قدر من يمارسه وإنما كان الصانع أو الحرفى يتمتع بمكانة اجتماعية مناسبة وكان أعلى قدرا ممن يشتغلون بالحرف الأدنى فى خدمة المجتمع ؛ وكان لكل طائفة شيخها الذى هو شيخ الصنعة أو المسئول عن الحرفة وأهلها . وكان يعمل مع المعلم عدد من الصبيان الذين يتولى تدريبهم وتعليمهم (كما ذكرنا عند الحديث عن القيساريات فى الفصل السابق) ؛ فإذا أتم الواحد منهم تعليمه أو تدريبه أجرى له الاختبار اللازم ليصير أحد الأسطوات أو المعلمين تحت رعاية شيخ الصنعة الذى يحظى بالاحترام بسبب خبرته الطويلة ومكانته فى المجتمع .

ومن ناحية أخرى ، كان من الطبيعى أن يكون هناك التخصص فى الإنتاج بين أصحاب الحرف والصنائع فى مصر فى عصر سلاطين المماليك . كما كان من الطبيعى أن يتم توارث المهنة أو الصنعة فى مجتمع ذلك الزمان ؛ فقد كان الابن يرث مهنة أبيه الذى يتولى تدريبه وتعليمه أصول الحرفة أو الصنعة فى زمن لم يعرف المدارس أو المعاهد المتخصصة التى تقدم التدريب والتأهيل . ولذلك نجد فى المصادر المتاحة عن تاريخ تلك الفترة ، وفى أدبيات ذلك العصر عموما ، أسماء عائلات كثيرة ارتبطت بالحرف والصناعات التى مارسها أبناء تلك العائلات على مدى عدة أجيال بالوراثة جيلاً بعد جيل : مثلاً النجار ، أو الزيات ، أو الحريرى ، أو الصبّاغ ، أو الجزار وغيرها من أسماء العائلات التى ما تزال نراها ونسمع عنها ونتعامل معها إلى اليوم .

ونجد فى مصادرنا وفى أوراق الجينيزا، أن أرباب الحرفة الواحدة ، أو الصنعة الواحدة، كانوا يتركزون جغرافيا فى مكان واحد حسبما تشير خطط المقرئى أو ابن دقماق أو غيرها من الكتب التى اهتمت بالخطط^(١٩) ، فقد كان اسم الحرفة يطلق على المكان الذى يتركز فيه الحرفيون مثل الفخّامين ، أو المغربلين ، أو الحريرين ، أو الصناديقيين ... الخ . وكان أرباب الحرفة

الواحدة ، أو الصنعة ، يتساندون ماليا واجتماعيا فى كثير من الأحيان ، وتحدثنا أوراق الجنيزا عن القروض المتبادلة بين الصناع والحرفيين المسلمين من جهة ونظرائهم من اليهود من جهة ثانية. كما كانت قواعد العمل وقوانينه واحدة بالنسبة لجميع العاملين فى هذه الحرفة أو تلك بغض النظر عن دياناتهم^(٢٠) .

ولا بأس فى أن نكرر أن هدف هذا الفصل من الدراسة أن نعرض بصورة كلية لشكل الحياة فى المدن المصرية . وإذا عرضنا فى الصفحات السابقة لبعض الحرف والصناعات المتصلة بحياة غالبية الناس من أهل المدن فى مجال الطعام والملابس فقط ؛ فإننا يجب أن نقرر ما هو معروف بالفعل من أن حياة الناس فى أى مجتمع لا تتعلق بالطعام والملابس فحسب ، إنما هناك جوانب أخرى متعددة فى الحياة بعضها يتعلق بالفن والثقافة ، وبعضها يتصل بالترفيه والتسلية . ومن هذه الجوانب أيضا ، ما يرتبط بالجوانب المعتمدة فى حياة الناس مثل الجرائم بكافة أنماطها والحوادث والكوارث الطبيعية ، أو تلك التى تنتج عن التصرفات البشرية . فضلاً عن شكل الحياة عموماً فى مصر من خلال تجلياتها فى الحياة اليومية فى ذلك العصر الثرى المثير .

كانت حياة الناس بطبيعة الحال ليست وقفا على العمل فحسب ، ولكنها فى المدن المصرية كانت حافلة بوسائل الترفيه والتسلية واللهو ، البرىء منها وغير البرىء ، التى سنحاول عرضها فى الصفحات القادمة . ويبدو أنه كان من بين أماكن الترفيه والتسلية فى القاهرة ذلك الزمان عدد من الأماكن تشبه حدائق الحيوان ، ولكن يبدو أيضا أن وجودها كان فى القاهرة وحدها . وقد تحدثت المصادر التاريخية عن وجود عدد من حدائق الحيوان هذه . فقد وصف بيرو طاقور ، الذى زار القاهرة فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، زيارته « .. لمشاهدة المكان الذى يحتفظون فيه بالفيلة »... « فرأينا منها سبعة ، ولونها أسود وحجمها أكبر من حجم الجمل... » وقال إنه يبدو أن هذه الحيوانات ذكية جدا « .. فهى مدربة على القيام بالحيل والألعاب ، وتعتمد فى بعض الأحيان إلى ملء خراطيمها بالماء وترش أى شخص أرادت ، كما أنها تلعب بالرمح وتقذفه فى الجو ثم تمسكه ، كما تقوم بألعاب أخرى كثيرة »^(٢١) . ويبدو أن هذا المكان كان من الأماكن التى يذهب الناس إليها للترويح عن أنفسهم وأولادهم ويجىء إليه الزوار الأجانب لمشاهدة الحيوانات التى كانت غريبة بالنسبة لهم . ويبدو أيضا أن القصة التى ذكرتها بعض المصادر عن أن فيلاً كان السياس يمشى به من مكان لمكان آخر فى أثناء سيرهم فى القاهرة ،

عندما أرادوا أن يعبروا به إحدى القناطر ، يبدو أن القنطرة كانت قديمة متهالكة «فانخfst» بالنبل ، وعبثاً حاولوا تخليصه فلم يقدروا ، وقرروا قتله رميا بالسهام فى عينيه ، ثم قتلوه ليخلصوه من معاناته^(١٢) وقد ذكر طافور أنهم كانوا يأخذون الفيلة إلى النهر لتبريد أجسامها . كما تحدث عن مشاهدته المكان الذى كانوا يضعون فيه الزرافة .

وكانت هناك عدة أماكن للترفيه والتسلية التى يذهب إليها أهل القاهرة مثل التزهة على شاطئ النبل ، أو بالقوارب على صفحة النهر ، وقد أشرنا إلى ما كان السلاطين يصدرونه من أوامر بين الحين والحين بمنع التزهة بالقوارب على مياه النهر أو التجمع على الشاطئ ، لمنع المظاهر الفوضوية وغير الأخلاقية التى كانت تصحب عادة مثل تلك الممارسات .

ومن ناحية أخرى ، لم تكن توجد بالقاهرة ، أو غيرها من المدن ، أماكن شعبية للتسلية والترفيه مثل تلك التى عرفتها بيزنطة كالمسرح والسيرك . ولكن الناس كانوا يتجمعون فى الطرق أو الساحات العامة ، يتطلعون فى دهشة إلى أحد «أرباب الملاعب» . وقد استرعى هذا المشهد نظر الزوار الأوربيين . وقال جاستون فييت إن وجود مدرّب يلاعب قرده أو دبه ، أو يرقص قروده على دقات الطبول أو ما إلى ذلك ، كان يجتذب أعداداً كبيرة من الناس الذين ينشدون التسلية^(١٣) . وقد ذكر المؤرخ تقي الدين المقرئى عدة أنماط من ألعاب الشوارع فى سياق حديثه عن «سوق الشماعين» ، كما تحدث عن عدة أنماط من ألعاب الشوارع لتسلية الناس : المناطحين بالكباش ، والمناقرين بالدبوك ، والمصارعين ، والمثاقفين ، والملاكمين ، والمشابكين ، والمقامرين على اختلاف أنواع القمار ، والفرادة والدبابة الذين يلعبون بالقروود والدب ، وغير ذلك من اللعب...^(١٤) ومن هذا النص نخرج بمعرفة أنه كان هناك عدد من «أرباب الملاعب» : كان بعضهم ممن يلاعبون القروود التى يدرّبونها على حيل بعينها يعرضونها على جمهور من الناس الذين يتجمعون حول القرد ومن يلاعبه ، أو حول الدب الذى يطيع أوامر مدرّبه لقاء ما تجوده به أنفسهم من مبالغ زهيدة مقابل تلك التسلية البسيطة .

وقد وصف الرحالة المغربى «عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى» أماكن التسلية والترفيه الشعبية حيث يتواجد السحرة والبهلولات والرجال الذين يدرّبون الحيوانات المختلفة مثل : الحمير والكلاب والقروود على الرقص والألعاب ، وحيث يوجد المصارعون الجوالون ، الذين يرفعون أثقال

الحديد ، والمنجمون الذين يجلسون وراء صناديق الرمل يقرأون الطالع لمن يريد من زبائن الشارع ، ولاعبو خيال الظل «...الذين يحركون دمي من وراء ستار...»^(٢٥) . كما يوجد المبارزون المهرة ، والموسيقيون الذين يصحبون المغنين والمغنيات فى هذه الأماكن العامة المفتوحة^(٢٦) . وذكر المقرئى اللاعبين الذين أسماهم «المشالقين» فى كلامه عن سوق الشماعين من أسواق القاهرة^(٢٧) . وقال بيير بيلون ، الذى زار مصر فى القرن السادس عشر ، عن أولئك المدربين الذين يدرّبون حيواناتهم ويستعرضون ألعابها فى شوارع المدينة وساحاتها: «... يوجد عدد كبير فى القاهرة من القرداتية والطبّالين ، وأثناء لعبهم ينقرون الطبول بأصابعهم ويغنون على صوت هذه الطبلّة (بقصد الرق) المركّب فيها عدد من الحلقات النحاسية ، ويسكونها باليد اليسرى ويدقونها باليد اليمنى . وهم على جانب كبير من المهارة فى تعليم القروء الألاعيب ، وتعليم أنواع مختلفة من الحيوانات، يعلّمونها للجدى أوغيره . من ذلك أنهم يضعون سرجا على ظهر الجدى ويركبون عليه القرد ، ويعلمون الجدى القفز كالحصان . وهم يعلمون الحمار كيف يمشى أنه يموت وأن يتمرغ فى الأرض، وأن يصطنع أنه يرفس القروء التى تتسلق ظهره ، ولديهم أيضا أنثى القروء المدربة ... ومعهم أيضا نوع الغوريلا المكّمة ، وهى حسنة التدريب لدرجة أنها تنتقل من شخص إلى آخر ممن يشاهدون الطبّال ، وهو ينقر على الرق ، وتمدّ يدها لطلب النقود ، ثم تسلمها لصاحبها»^(٢٨) .

وقد وصف الأسير الألماني «يوهان وايلد» الصخب العام فى الشوارع ، وتجمهر الناس فى تلك الشوارع حول المشعوذين البارعين ، وسحرة الثعابين الجسورين ، ومجموعات الموسيقيين الذين كانت أنغامهم غريبة على آذان الأوروبيين الزائرين لمصر آنذاك ، وفى المساء كانت المغنيات ينغمسن فى أغانيهن تصحبهن الطبلّة والعود . وقد وصف يوهان وايلد مغنية فاتنة كانت تغنى مع رفيقاتها وترتدى ثيابا من الساتان وتزين رأسها بعملات ذهبية ، ثم رقصت وذراعاها ممدودتين. هذه الفئة من المغنيات كنّ يعرفن باسم «الغوازي» (وهو الاسم الذى ما يزال مستخدما حتى اليوم) . وكانت العروض الكوميديّة التى تقدم قصصاً عن الخلاعة والمجون ، والمسرحيات الهزلية تقدم فى الشوارع والطرق العامة على ضوء الفوانيس والمشاعل^(٢٩) . كانت الجماهير التى تحتشد فى مناسبات مثل يوم وفاء النيل أوغيره من المناسبات العامة (انظر ما يلى فى الصفحات القادمة) تمضى الوقت فى مشاهدة لاعبي الشوارع مع حيواناتهم المسلية على طول الطريق المؤدى إلى بولاق . وكانت ألعاب أولئك اللاعبين تتضمن تدريب القروء والدببة التى ترقص وتقفز .

وقد شاهد «يوهان وابلد» أحد أولئك اللاعبين وهو يلف عصاة على عيني حمارة بينما كان يقدم عرضه في الشارع ، ثم يطوف بالحمار مرات ثلاث ، وبعد ذلك سحب خاتما من إصبعه ، واندمس بين الزحام حيث خيأ الخاتم تحت ثياب أحد المشاهدين . وفي ثقة من يعلم بما سيحدث ، أمر الحمار أن يسير نحو الرجل حتى توقف أمامه . وفي نبرة انتصار أعلن المشعوذ أن الحمار قد وجد الخاتم وأعادته إليه أمام الجميع . وكان العقاب الذي سينزل بالحمار إذا لم يعرف الشخص الصحيح الكثير من الضرب على يدي صاحبه أو مدرسه أمام الجميع ^(٣٠) .

وغالبا ما كانت الحمير تشترك في التمثيليات من هذا النوع أثناء عرضها في الشارع . وقد ضحك «كريستوفر هارانت» ، كثيرا على حمار مدرّب عندما شاهده يسقط مصطنعا الموت، ويتى كجثة وعيناه مغلقتان وأرجله في الهواء ... وأخذ صاحبه ينوح على فقدان حمارة بكل أسى ، وعيثا حاول أن يحرك أرجله ومع أنه تدمر وأخذ بضرب الحيوان ، ولكن الحمار رقد بلا حراك . فقال صاحب الحمار للجمهور بصوت عال إنه سيكون غدا موكب لاستقبال السلطان «... وأن أجمل النساء سوف تركبن أجمل الحمير ، وأن الحمير بهذه المناسبة سوف تمنح المياه العذبة وتختار الشعر...» وما كاد الرجل ينطق بهذه الكلمات حتى قفز الحمار على أرجله واقفا وبدأ يرقص فرحا ^(٣١) .

وكان من مظاهر التسلية الأخرى لعب الناس بالحمام . وقد ذكر المؤرخ «جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردى» أنه في أيام حكم أولاد الناصر محمد بن قلاوون ، وفي سنة ٧٤٦ هجرية على وجه التحديد ، «...كثّر لعب الناس بالحمام وانتشرت الفوضى المرتبطة بهذا النوع من اللعب... ونودي بالقاهرة ومصر ألا يعارض لقاب الحمام ، وأرباب الملاعب ، وشنع الأمر لمحبة السلطان في هذه الأمور...» ^(٣٢) وهكذا كان يحدث أحيانا عندما يكون السلطان طفلا ، يعين بشكل مؤقت إلى حين حسم الصراع على العرش لصالح أحد الأمراء الكبار المتنافسين على العرش، أن تسود رغبة السلطان الطفل أو الصبي في هذه الألعاب ، وتصدر الأوامر بعدم التعرض لأرباب الملعب .

وقد كان من وسائل التسلية المعروفة في ذلك العصر عروض خيال الظل التي كانت تعرض في شوارع القاهرة ؛ وهي عبارة عن عروض كانت تجمع بين التمثيل الذي يقدمه مؤدون غير ظاهرين للجمهور ، يؤدون أدوارهم من وراء ستار ويسمع الجمهور حوارهم فقط ، وفن التلاعب

بالظلال والأضواء التى تسلط على شخوص مصنوعة من الورق المقوى تمثل شخصيات التمثيلية التى تعرض (فيما يشبه السلويت المعروف حاليا) . وقد كانت تمثيلات خيال الظل التى عرفت آنذاك باسم «البابات» تتناول موضوعات فكاهية تتعلق بالأوضاع الاجتماعية غالبا ، وتغلب عليها مسحة السخرية فى لغة دارجة تتخللها عبارات بذيئة . وقد حفظ لنا الزمان عددا من هذه «البابات» تنسب إلى ابن دانيال . وقد ذكر ابن إياس أنه قد صدرت أوامر السلطان فى السنوات الأخيرة من ذلك العصر بإحراق معدات خيال الظل فى القاهرة .

كذلك كان يحدث أحيانا القيام ببعض العروض البهلوانية بصفة طارئة فى القاهرة ؛ ولكنها لم تكن عروضاً دائمة ، كما أنه لم يكن هناك مكان محدد تعرض فيه مثل هذه العروض مثل السيرك ؛ فلم تعرف العاصمة أو غيرها من المدن ، مثل هذه المنشآت فى عصر سلاطين المماليك . وقد حدث سنة ٨٢٨ هجرية أن شذ شخص من المماليك اسمه «يشبك» حبلاً ما بين الأشرافية فى القلعة إلى مأذنة جامع السلطان حسن قبالتها ولعب فوق الحبل «.. وأبدى صنائع جمّة ، ورمى بالمكحلة ، ورمى قوس الرّجل ، وهو على الحبل ..» بحضور السلطان والأمراء الذين انبهروا بألعابه البهلوانية الشّيقة وكافأه السلطان . ثم جاء شاب من أهل البلد وقدم «... فنونا تذهل لرويتها كأنما خلق من الريح فكان شيئا عجبا ..»^(٣٣) .

كانت الموسيقى والغناء من المهن والحرف التى مارسها عدد من المصريين فى ذلك العصر ، وازدهرت بدرجة كبيرة . ولا غرو ، فقد كانت الموسيقى والغناء من الفنون التى ازدهرت فى مصر منذ أيام قدماء المصريين وطوال العصور التى مرّت على مصر . وفى عصر سلاطين المماليك عرف المصريون أيضا بحبهم الشديد للموسيقى والغناء ؛ سواء فى الأفراح والحفلات والاحتفالات الخاصة ، أو فى الاحتفالات العامة أو حتى فى حياتهم اليومية بشتى مظاهرها . واستلقت نظر الرحالة الشهير «ابن بطوطة» أن أهل مصر «... ذو طرب وسرور ولهو ..»^(٣٤) . فقد كان الناس فى ذلك العصر ، كما هو دأبهم دائما ، يذهبون إلى الأماكن التى يغنى فيها المطربون والمطربات ، ويتواجد بها الموسيقيون ، لكى يستمعوا إليهم ويستمتعوا بفنونهم . وقد اعتاد المصريون من جميع الطبقات ، وفى المدن والريف ، على إحياء حفلات العرس وغيرها بالملاهى والمغنين والمغنيات . ومن الأمور الجديرة بالاعتبار أن بعض المدن المصرية الكبيرة آنذاك كانت بها قاعات مخصصة لإحياء حفلات الزواج أو غيرها فى عصر سلاطين المماليك^(٣٥) ويبدو أن تلك القاعات كانت تتخذ شكل

المراقى العامة وتؤجر لمن يريد تأجيرها . ولكن ذلك لم يمنع قيام البعض بإحياء مثل هذه الحفلات فى البيوت أو فوق أسطح المنازل لسبب أو لآخر حسبما نعرف من مصادر تاريخ ذلك العصر ، وهى ممارسة ما تزال موجودة فى مصر حتى أيامنا هذه .

واهتمت المصادر التاريخية فى ذلك العصر بأنواع الآلات الموسيقية المستخدمة والتى كانت معروفة فى حضرها وريفها وبواديها . كان «العود» من الآلات المعروفة فى ذلك الحين ، ووصف البعض بأنه «..أفخر آلات الطرب وأرفعها قدراً ، وأطيبها سماعاً ..»^(٣٦) كما تحدثت المصادر عن آلة «الجنك» التى ذكر أنها آلة وترية يقترب صوتها من صوت العود فى نغماته ، بيد أنها كانت تختلف عن العود فى الشكل . وتحدثت المصادر أيضاً عن المزمار ، والطبلة ، والرق ، وكانت الرباب (الربابة) الآلة الموسيقية المفضلة لدى البدو العربان ، كذلك كانت هناك آلة تسمى «الشبابة» التى وصفت بأنها نوع من أنواع الناي كانت تصنع من القصب المجوف ، وكان يوجد المزمار العراقى ، والدف ذو الصنوج الذى عرف فى مصطلح ذلك العصر باسم «الصراصير» . وكانت هناك سوق خاصة لبيع الآلات الموسيقية ؛ وإن كان المؤرخ تقى الدين المقرئ لم يذكرها فى خطته وهو يتكلم عن أسواق القاهرة فى زمانه .

ونلمس فى مصادر تاريخ ذلك العصر أن المؤرخين بصفة عامة اهتموا بأخبار الموسيقيين والمطربين والمطربات . فالمؤرخ ابن حجر ، وهو من المؤرخين الذين اشتغلوا بالحديث النبوى إلى جانب اهتمامه بالتاريخ واشتهر بتدوينه القوى ، لم يربأس فى ذكر الموسيقى والموسيقيين ، أن من بينه وفيات سنة ٧٨٠ هجرية ، «عارف بن محمد العجمى» الذى قال إنه نزل القاهرة (يعنى أنه جاءها وافداً من بلاده واستقر بها) وقال عنه «..كان عارفاً بالموسيقى ، وانتهت إليه الرئاسة فى ذلك ، وكان أحد الصوفية بالبيبرسية ..»^(٣٧) ومن هذه الإشارة نعرف أن من الموسيقيين من كان متصوفاً من المنقطعين فى خانقائهم ولكنهم يمارسون الموسيقى أيضاً . أما المؤرخ «ابن إياس» فقد ذكر من أخبار أهل الموسيقى والغناء ، من النساء والرجال ، ما يشير إلى أنه كان من عشاق هذا الفن . ويبدو أنه كان يتابعهم ويسعى إلى أماكن وجودهم وحضور حفلاتهم ، كما اهتم بتسجيل أخبارهم ؛ فقد ذكر فى حوادث سنة ٩٠٦ هجرية وفاة المطربة «عزيزة بنت السطحي» التى قال إنها «..كانت من أعيان مغانى مصر ، فريدة عصرها ، فى النشيد مع حسن الصوت ، وفصاحة إعراب الشعر ، فلم تخلفها أحد من النساء المغانى ، ورأت من الأعيان ما لا رآه غيرها من

أرباب هذا الفن ... وكان لها بمصر شهرة زائدة ..^(٢٨) كما أنه ذكر فى حوادث سنة ٩٠٥ هجرية وفاة «... الرئيس نور الدين على بن رهاب .. المغنى الناشد المادح ، فريد عصره ، ووحيد دهره ، وكان آخر مغانى الدكة فى الدخول والطرب ... وقد رثاه مؤرخنا ابن اياس بعدة أبيات من الشعر أوردها فى كتابه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»^(٢٩) . وقد أوردت لنا المصادر طائفة من أخبار المطربين والمطربات والموسيقيين ؛ فقد ذكر ابن حجر أن «إبراهيم بن بابى العواد المغنى» كان مقربا من السلطان المؤيد شيخ المحمودى^(٣٠) . كما ذكر ابن الصيرفى أسماء خمسة من كبار الموسيقيين توفوا فى وقت واحد «... ووافق هذا الشهر (صفر سنة ٧٩٠ هجرية) موت خمسة من أصحاب النغم والآلة الذين فقد بموتهم هذا الأمر ، ولم يخلف نظيرهم ...»^(٣١) .

والواضح أن الفنانين من الموسيقيين والمطربين والمطربات المجيدين كانوا يحظون بمكانة مرموقة وكان الأغنيان و «أرباب الدولة» يحرصون على سماعهم فى بيوتهم وقصورهم ؛ بل إن بعض السلاطين كانوا يحرصون على تقريبهم . بل إن المؤرخين ، وهم الفئة المثقفة الواعية آنذاك ، كان منهم كثيرون يقدرّون هذا الفن وأربابه ويحرصون على سماعهم وتتبع أخبارهم . بيد أنه كانت هناك فئات أخرى من الفنانين الموسيقيين والمطربين والمطربات أقل حظاً أو أدنى موهبةً من هؤلاء ، النفر ولكن هؤلاء كان لهم أيضا الجمهور الذى يعجب بما يقدمونه من فنونهم فى أماكن أخرى غير القصور وبيوت الأثرياء .

ومن ناحية أخرى ، كان ولع المصريين بالموسيقى والغناء قد بلغ حدا جعل بعضهم يصطحبون معهم آلات الموسيقى وتصحّبهم الأغاني فى المراكب التى يركبونها أو القوارب والشخاتير (وهى المعديات التى تستخدم لعبور نهر النيل من ضفة لأخرى) فى أثناء قيامهم برحلات النزهة والترفيه فوق صفحة النهر . وكانت الموالد بطبيعة الحال تمثل مجالا مفتوحا لذلك النوع من المغنين والمنشدين الذين ما نزال نراهم فى أيامنا فى الموالد . وكانت المصادر تقدم لنا أمثلة عديدة على هذا النمط من الغناء والإنشاد فى كل مجال من مجالات الحياة اليومية فى ذلك الحين . بل إن بعض الناس كانوا يأخذون معهم الطبله وغيرها من الآلات الموسيقية عندما يذهبون إلى القرافة لزيارة موتاهم فى الأعياد أو غيرها وهو ما أثار حنق ابن الحاج وغضبه^(٣٢) .

وكانت السوق التى تباع بها الآلات الموسيقية ، التى أشرنا إليها فى السطور السابقة ، المكان الذى يقعد فيه الموسيقيون والمطربون عندما لا يكونون مشغولين فى حفل أو فرح فى انتظار

زبائنهم الذين قد يطلبون حضورهم لإحياء مناسبة من المناسبات ؛ مثل حفلات الزواج أو غيرها من المناسبات ، فقد كان من الطبيعي أن يجلس هؤلاء الفنانون بلا عمل فى فترة النهار لأن عملهم كان غالبا ما يرتبط بفترة المساء والليل ، ومن ثم كانوا يقضون نهارهم فى الجلوس بهذا السوق فى كسل وتراخ . ولعل هذا ما جعل المترمتين من الناس ينفرون من مكانهم ويتعدون عنه ويشيعون أن من يمرّ بهذا المكان لا تقضى له حاجة .^(٤٣) ومن المهم أن نشير هنا إلى أن هؤلاء الفنانين الفقراء لم يكونوا يتمتعون بحماية أحد مثل كبار المغنين والموسيقيين الذين ذكرنا بعض الأمثلة عنهم ، بل كان هؤلاء الفنانون الفقراء يتعرضون أحيانا للإهانات والمظالم من السلطان وكانت المغنيات الفقيرات يتعرضن للإهانة لأسباب غريبة ؛ فقد حدث فى عهد بيبرس الجاشنكير أن «.. طلب المغانى من النساء وصورن .. وتم سجنهن فى سجن النساء المسمى الهجرة أياما، حتى تاب بعضهن عن الغناء وتزوج بقيتهن ، وكان السبب فى ذلك التصرف القاسى أن ابن السلطان قد أغرم بإحداهن .. »^(٤٤).

وفى بعض الأحيان كانت تحدث المشكلات بسبب حفلات الأفراح ؛ فقد حدث فى سنة ٧٨٥ هجرية أن أقام جماعة من النصارى فى ناحية برما بالغربية حفلا للاحتفال بزواج أحدهم وجاءوا بمجموعة من المطربين والموسيقيين وعددا كبيرا من أصحاب الملاهى . وفى أثناء الحفل صعد المؤذن إلى مأذنة الجامع ليسبّح الله ، ويبدو أن هذا قد أثار أصحاب الفرح ؛ فسبّوا المؤذن وأهانوه، وأنزلوه بعد أن ضربوه ضربًا مبرحًا .. ولما أراد خطيب الناحية أن ينجده ضربه هو الآخر وكادوا أن يقتلوه ... وتم تصعيد المشكلة حتى وصلت إلى السلطان الذى حقق فى الأمر ، ولما ثبت أن النصارى هم المذنبون أمر بعقابهم^(٤٥) . وهذا المثال تكرر عدة مرات طوال ذلك العصر ، ولكن أسبابه لم تكن نفس الأسباب دائما .

وقد ربط البعض بين اللهو والتسلية والترفيه البرىء المتمثل فى حفلات الأفراح وما شابهها من جهة ، وبين اللهو غير البرىء والفساد المرتبط بتناول الخمر والحشيش وما يصحب ذلك بالضرورة من أمور تنافى الأخلاق من جهة ثانية . ومن هنا كانت الأوامر تصدر بين الحين والحين بمنع التزهة فوق مياه النيل أو الخلجان ؛ وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فى سلطنة الثانية، وفى سنة ٧٠٦ هجرية صدرت الأوامر بمنع المراكب والشخاتير من دخول الخليج الحاكم^١ إلا المراكب التى تحمل القمح أو التجارة بسبب «... ما يحصل فيه من الفساد ، والنظام

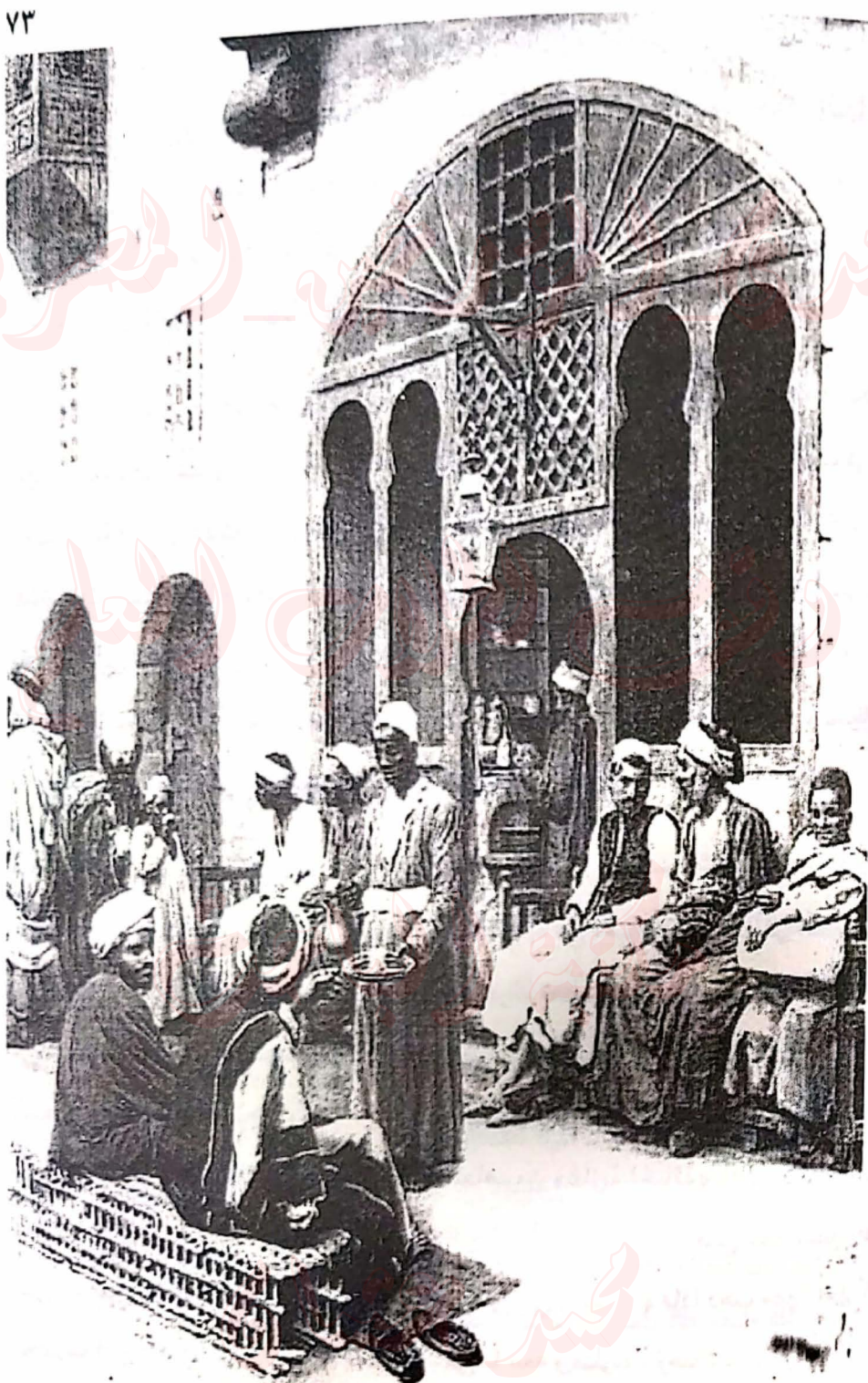
بالمسكرات التى تجمع الخمر وآلات الملاهى ، والنساء المكشوفات الوجوه ، والمتزينات بأفخر زينة.. وكان يحدث أحيانا أن يقتل البعض فى أثناء هذه التزهات فوق مياه الخليج الحاكمى ..^(٤٦) . وكثيرا ما صدرت الأوامر بمنع التزهة على صفحة مياه نهر النيل أو التزهة على شاطئه للأسباب نفسها . ويمكن أن نسوق أمثلة كثيرة على ذلك فى فترات مختلفة من ذلك العصر الذى امتد قرابة ثلاثة قرون من الزمان .

أما موقف السلطات من الخمر وتعاطيها ، فقد كان موقفا متذبذبا ما بين التشدد الصارم والتغاضى الذى كان يبلغ حد التواطؤ . وفى سنة ٧٤٤ هجرية صدرت الأوامر بمصادرة الخمر وإراقه ما تتم مصادرته منها واستمرت الحملة شهرا ، وأرقت كميات هائلة من الخمر ، وأحرقت كميات كبيرة من الحشيش عند باب زويلة من تلك الكميات التى تمت مصادرتها^(٤٧) . وفى عهد بيبرس الجاشنكير تجددت الأوامر بإراقه الخمر وهوجمت بيوت النصارى واليهود لهذا السبب^(٤٨) . وفى سنة ٧٤٤ هجرية أيضا هجرة قامت السلطات المسئولة بشن حملة عنيفة أخرى لمصادرة الخمر حتى وصلت إلى الفرنج فى مدينة الاسكندرية ، على الرغم من أنه كان مسموحا لهم بوجود الخمر فى فنادقهم وبيوت قناصل الدول الأوربية بشرط عدم تعاطيهم الخمر علنا وبشرط عدم خروجهم بها من الأماكن المحددة لهم^(٤٩) . وفى سنة ٨٠٣ هجرية ، فى عهد السلطان فرج بن برقوق ، تم شن حملة موسعة لمصادرة الخمر وصودرت حوالى خمسين ألف جرة من مناطق : منية الأمراء (منية السيرج) فى شبرا ، وطنان ، وبليس ، وبعض الحارات فى القاهرة^(٥٠) . ويبدو أن الكميات التى صودرت كانت كبيرة للغاية بحيث ذكرت المصادر التاريخية هذا العدد الهائل من الجرار التى أريق منها الخمر . ومن المعروف أن منية السيرج ، التى ذكرت هنا باسم منية الأمراء ، قد اشتهرت فى ذلك العصر بزراعة العنب وعصيره وإنتاج الخمر بحيث كان الفلاحون بها يدفعون ما عليهم من الخراج من مبيعات خمورهم . وقد تكرر الأمر سنة ٨١٩ هجرية فى أثناء حكم السلطان المؤيد شيخ وصودرت كميات كبيرة من الخمر من اليهود والنصارى^(٥١) . بيد أن المصادر أوردت خبرا له دلالة ومعناه عن أن السلطان الأشرف برسباي أمر بإراقه الخمر وإحراق الحشيش .. فأريق وأحرق ما لا يحصى كثرة .. ثم أعيد بدسائس أهل الظلم والمكر بعد مدة قريبة ..^(٥٢) . فقد كانت الأمور قد فسدت فى جميع الجوانب بمصر فى الفترة الأخيرة من عصر سلاطين المسالك وكان التراجع عن القرارات والأوامر المهمة مثل مكافحة الخمر والحشيش

هذه المناطق والممارسات التي ارتبطت بها ، بيد أن المصادر التاريخية لم تقدم لنا شيئاً عن هذه المدن اللهم في حديث عابر عن مدينة الاسكندرية سوف نأتى على ذكره فى السطور القادمة .

فقد كان بناحية بولاق مكان يطلق عليه اسم « كوم الزبل » يتواجد فيه عدد من « .. أهل الفسوق من أرباش العامة .. »^(٦٦) . وفى سنة ٦٦٤ هجرية أصدر السلطان الظاهر بيبرس أوامره بمنع المنكرات وإغلاق الحانات فى مصر والشام^(٦٧) وكانت تلك الحانات مكان تجمع النساء الخواطى وأهل الخمر والحشاشين . وفى سنة ٦٦٧ هجرية تجددت أوامر السلطان بيبرس « .. بإزالة الخمر وإبطال الفساد والخواطى من القاهرة ومصر ، وجميع أعمال مصر ؛ فظهرت كلها من المنكر ، ونهبت الحانات التى جرت عادة أهل الفساد على الإقامة بها ، وسلبت جميع أموال المفسدات ، وحبس حتى يتزوجن ، ونفى كثير من المفسدين .. »^(٦٨) . والجدير بالملاحظة فى هذا النص أن أوامر السلطان بيبرس شملت « جميع أعمال مصر » وهو ما يعنى أن المدن المصرية الأخرى كانت بها مثل هذه الأماكن والممارسات كما كنا قد افترضنا فى السطور السابقة . كما أمر بيبرس بتطهير ثغر الاسكندرية من « الخواطى والفرنجيات »^(٦٩) مما يشير إلى أنهم كن يمارسن الدعارة فى المدينة لتقديم خدماتهن للفرنج المقيمين بالاسكندرية أو التجار والبحارة القادمين إليها لأغراض مختلفة .

وقد ذكر ابن حجر أنه كان بالضواحي بالريف (ولعله كان يقصد الضواحي) « .. حارة للمغانى مفردة ، يعمل بها من الفساد جهراً ما يقبح ذكره ، ومن اجتاز بها غلطاً ألزم أن يزنى بخاطئة ، فإن لم يفعل فدى نفسه بشىء »^(٧٠) . وفى سنة ٧٤٤ هجرية نزل والى القاهرة إلى « خزانة البنود » فصادر ما بها من الخمر ، وألقى القبض على من بها من البغايا .. ثم خربها وجعلها دكا .. وهذه المنطقة كانت فى الأصل سجنًا من سجون القاهرة ثم نقل السجن من هذا المكان ... وسكنها الأرمن واستقروا فيها ، وزاد عددهم ، وكانوا يصنعون الخمر فى هذا المكان وكان لحم الخنزير يباع عندهم علناً من غير احتشام .. واتخذوا عندهم أماكن لاجتماع الناس على المحرمات « .. فبأتيهم الفساق وظلون عندهم الأيام على شرب الخمر ، ومعاشرة الفواجر ، بالفساد والدعارة واللواط ... حتى إن المرأة إذا تركت زوجها أو أهلها ، أو الجارية إذا تركت مواليتها ، أو الشاب إذا ترك أباه ، ودخل عند الأرمن بخزانة البنود ، لا يقدر أحد أن يأخذه منهم ولو كان من كان .. » ونزل والى القاهرة برجاله إلى ذلك المكان الموبوء وداهمه ، وأخرج جميع سكانه وهدم خزانة البنود فى تلك السنة^(٧١) .



مقهى بالقاهرة

ويبدو أن تلك المناطق كانت تتحول في بعض الأحيان إلى مناطق غير خاضعة للسلطات ، وتمكنوا بها مع مرور الوقت ما يشبه العصابات التي تمارس كل أنماط الفساد وتجذب إليها جميع المارقين من الرجال والشباب والنساء ، حيث يتم استغلالهم وحمايتهم في الوقت نفسه حتى تنفج نراحة غير الطبية من تلك الأماكن ، وتتكاثر الشكوى منها مما يدفع السلطات إلى التدخل ومهاجمة تلك الأماكن أو القضاء عليها تماما .

وكان هناك نوع آخر من الجرائم التي عرفتھا الحياة اليومية في المدن المصرية آنذاك ؛ ولكن من نهم أن نأخذ في اعتبارنا أنه كان ثمة فارق أساسي بين الجرائم الفردية الى كانت تحدث في ذلك العصر ، والتي قد تحدث في أي مكان آخر وفي أي زمان مختلف ، وبين الجرائم الجماعية التي كانت ترتبط بتشكيل العصابات وارتكاب الجرائم الكبرى مثل السطو وقتل الحراس واللصوصية ، وقطع الطريق على المسافرين في البر أو على صفحة نهر النيل ، وهي جرائم كانت وماتزال مؤشرا على غياب سلطة الدولة وضياح القانون ، وترتبط بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومدى تأثيرها على الناس وأمنهم سواء في الحضر أو في الريف ، أو على طرق السفر البرية والنهرية .

وكان من الأمور العادية أن تقع بعض الحوادث الفردية في الحياة اليومية بالمدن المصرية ، أو في مناطق الريف ، ونسوق بعض الأمثلة من تلك الجرائم تعطينا فكرة عن طبيعتها ؛ فقد حدث في سنة ٦٦٢ هجرية ، في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداری ، أن وجدت بمنطقة خارج باب الشعيرة امرأة تستدرج الرجال والنساء إلى بيتها واستعانت ببعض الرجال يساعدها في القيام بجرائمها . وقد كانت تلك المرأة التي أسماها المعاصرون «غازية الخنّاقه» ذات حسن وجمال . وكانت تجول في المدينة ، ومعها عجوز تغري الرجال على مغازلتها «... فمن طمع فيها وطلبها تقول له العجوز إنها لا تذهب لأحد ، ومن يريدھا يأتي إلى بيتها ..» فإذا ذهب معها أحد كانت مجموعة الرجال المنتظرون في البيت يستولون على ما معه ويقتلونه . وحدث ذات مرة أن العجوز ذهبت إلى واحدة من الماشطات ، التي يبدو أنها كانت ميسورة الحال ، وزعمت أن عندها حفل زفاف ، وطلبت منها أن تذهب معها لتزين العروس وتحضر معها ما استطاعت من الحلوى ، وبالفعل ذهبت الماشطة إلى ذلك البيت ومعها جاريتها تحمل الأدوات والمعدات اللازمة لعمل الزينة... وبعد انصراف الجارية قتل رجال «غازية الخنّاقه» الماشطة المسكينة بعد ما استولوا على ما كان

معه من الحلى وغيرها ... ولما استبظأت الجارية سيدتها الماشطة ذهبت إلى البيت تسأل عنها فأنكروا وجودها ، وأبلغت صاحب الشرطة فى المدينة بما حدث ، فذهب من فوره إلى ذلك المنزل وقبض على الموجودين فيه ، وعذبهم حتى اعترفوا بجرائمهم كلها ، وتم أيضا القبض على شخص صاحب قمينة طوب كان يساعدهم فى التخلص من الجثث بإحراقها فى قمانن الطوب حتى يخفى أثرهم ... وكانت عقوبة الجميع التسمير فى الخشب فوق الجمال والطواف بهم فى المدينة حتى يموتوا^(٦٢) . وقد ذكر المقرئى أن بيت تلك المرأة قد هدم ، وبنى فى مكانه مسجد عرف بمسجد الخنافة ولكن الناس كانوا يرفضون الصلاة به .

وفى سنة ٧٥٠ هجرية ، فى عهد السلطان المنصور قلاون ، ضبطت امرأة كانت تستميل النساء وترغبهن فى عمل الفاحشة ، وتمضى بهن إلى موضع توهمهن أن به الرجال الذين يعاشرنهن بفاحشة ؛ فإذا دخلت المرأة عندها أمسك بها عدد من الرجال الذين كانوا يستعدون لهذا الأمر وقتلوها وقد عرفت هذه المرأة أيضا بالخنافة ، على الرغم من الفارق الزمنى الكبير بين الحادثين ، وقد قبض عليها وعوقبت بأن تم تسميرها على جمل وطيف بها فى أحياء القاهرة ،

ورقع أيضا حادث مشابه فى أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون عندما قبض على امرأة فى أرض الطبالة كانت تفعل ذلك بالنساء ، فقبض عليها وسُرت على جمل يطوف بها فى القاهرة؛ فكانت تقول للنساء إذا رأت النساء وهن يتفرجن عليها : « آه يا قحاب ، لو عشت لكنت أفنيتهن ، لكن ما عشت »^(٦٣) .

وفى سنة ٧٧٥ هجرية شنت المرأة الخنافة وزوجها جمعة الخناق للذنان كانا يقيمان بالمقابر فيدوران بالقاهرة ومصر وظواهرهما ، يأخذان من أطفال الناس وأولادهم ما قدروا عليه ، ويخنقاه لأخذ ما عليه من الثياب الجميلة ؛ « ففقد الناس عدة أولاد ، واشتد حزنهم عليهم ، حتى ذعروا منه ففضح الله جمعة هذا وامراته ؛ فقبض عليهما وشنقا »^(٦٤) .

وثمة من الحوادث الغريبة ما كان يحدث أحيانا لأسباب لا تبدو طبيعية ولكنها يمكن أن تحدث فى أى مكان ؛ فقد حدث سنة ٧٢٣ هجرية ، فى سلطنة الناصر محمد الثالثة ، أن رجلا من الصوفية كان قد جاء من دمشق وكان يشتهر بأنه منقطع للعبادة ، فقام ذات يوم ومعه سلاحه وتحزّم وقال « أنا رايح أجاهد فى سبيل الله وأموت شهيدا .. فرأى رجلا من المسلمين قد تبع بعض

الكتاب النصارى ، وقبل يد النصرانى الذى لم يعبأ به ... فضرب النصرانى بسلاحه وقتله واجتمع الناس وقبضوا عليه ... وأمر السلطان بقتله فضرب عنقه على باب القلعة ^(١٦٥) .

وفى سنة ٧٢٧ هجرية ، حدثت فتنة بالاسكندرية بسبب مشادة وقعت بين بعض تجار الفرنج الموجودين فى مدينة الاسكندرية وبعض المسلمين ؛ وفى غمرة الشجار قام الفرنجى بضرب المسلم. وكان الفرنجى قد « .. وقف بجوار صبي أمرد ليأخذه ويفعل به ذلك الفعل » وعندما نهاه بعض المسلمين عن ذلك تطور الأمر إلى اشتباك بالأسلحة بين المسلمين والتجار الفرنج ، وأغلقت أسواق المدينة وأبوابها ... وحاول والى الاسكندرية الدفاع عن الفرنج « .. ولكن الناس قاتلوه إلى أن هزموه .. » وانتهى الأمر بأن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل قوات كبيرة لإخماد الفتنة التى عانى منها سكان الاسكندرية كثيرا ^(١٦٦) .

كانت مثل تلك الحوادث تحدث بين الحين والآخر حقا ، ولكنها كانت حوادث فردية فى التحليل النهائى سرعان ما كانت السلطات تتعامل معها ومواجهتها ، وكانت هناك حوادث أخرى تختلف فى دوافعها ونتائجها ولكنها أيضا كانت حوادث فردية أيضا مثل ذلك الحادث الذى وقع بمنية السبرج فى ناحية شبرا لأن جماعة من الصوفية احتكوا بالنصارى من سكان منية السبرج ، وعابوا عليهم بيع الخمر (على الرغم من أنه كان معروفا أنهم كانوا يزرعون العنب ، ويصنعون منه الخمر ، التى يبيعون منها كميات هائلة يدفعون منها ما عليهم من الخراج كما ذكرنا من قبل). وبدوا أن الصوفية تحمسوا أكثر من الحد المعقول ؛ فضرب أحدهم نصرانيا أسال دمه ، ثم دخل الجامع لأداء صلاة الجمعة فى الجامع . وتجمع النصارى وضربوا الفقراء (الصوفية) بعد الصلاة.. وخرجت الاشتباكات عن حد السيطرة « .. ووصل النهب إلى بيوت المسلمين .. » وتدخل نائب السلطان وبعث والى والحجاب إلى مكان الحادث . وبدأوا فى إعادة الأمور إلى نصابها وأعيدت السروقات لأصحابها من الطرفين . وكان من بين السارقين عدد من الأجناد « ... فضربوا وسجنوا وقطعت أخبازهم .. » . لقد كان رد فعل السلطات إزاء هذه الحادثة قويا صارما من ناحية ، وكانت الحادثة نفسها نتاجا للتعصب والجهل من ناحية ثانية ، وتصاعدت وتيرتها بسبب العدوان المتبادل بين الصوفية ونصارى منية السبرج ، بيد أنها تسببت فى خراب منية السبرج ؛ فقد « .. أقامت النية خرابا ، وبيوتها مهدمة ، نحو الشهرين حتى عاد إليها أهلها .. » ^(١٦٧) .

فقد كانت سلطنة السلطان الناصر محمد الثالثة فترة تميّزت بقوة سيطرة الدولة وسرعة حسم المشكلات المثيرة للاضطرابات مثلما حدث فى فتنة الاسكندرية وفتنة منية السيرج بعدها بأربعة عشر عاما ، فكان أن بقيت فى حدود الحوادث الفردية لأسباب طارئة، على خلاف تلك الحوادث العامة التى اتخذت منحى مغايرا والتى سوف نعرض لها فى الصفحات القادمة .

وثمة نوع آخر من الجرائم اتسمت بقدر من الفكاهة والسخرية السوداء ، تمثلت فى جرائم النصب والاحتيال الجماعى أو الفردى . وتقدم لنا أحد الملامح القائمة فى شكل الحياة اليومية فى المدن المصرية آنذاك . فقد ظهر بناحية بولاق سنة ٧٤٤ هجرية «بكوم الزيل» مكان يأوى إليه الفاسدون من أوباش العامة ، على حد تعبير المؤرخ تقى الدين المقرئى ، وقد بنى رجل يسمى «شعيب» بيتا فى هذا المكان ، ثم أشاع أنه رأى فى المنام أن البناء الذى يبنيه فوق قبر واحد من الصحابة .. وأشاع هو ومن والاه من العامة أنه «.. يقيم المقعد ويردّ بصر الأعشى..» ثم جاءه الناس من كل مكان لكى يساعدوه فى الحفر بالمكان الذى زعم أن به قبر أحد الصحابة تبركاً .. وحفر شعيب حفرة كبيرة زعم أنها موضع قبر الصحابى .. وجاءت إليه نساء الأمراء ، فيأخذهن وينزلهن تلك الحفرة «.. وما منهم إلا من تدفع الدنانير والدراهم ..» وصار بعد ذلك يأخذ جماعة يوهم الناس أنهم من أصحاب العاهات ، ثم يخرجون وقد ادعى أنهم قد شفوا تماما، وهم يصيحون.. «الله أكبر... الله أكبر».

وكان عدد الناس يتزايد فى هذا المكان يوماً بعد يوم ، «... بحيث كان يسرج فى كل ليلة نحو مائتى قنديل ومن الشموع الموكبية شئء كثير جدا...» ، وارتاب الوالى فى الأمر ، فذهب لكشف حقيقة المكان وما يجرى به فثار عليه العامة وكادوا يقتلونه ، ثم اكتشف الناس أخيراً أن الموضوع كله كان عملية نصب بعد أن هرب شعيب ورفيقه الذى كان يساعده فى جريمته ، بعد أن جمعا «.. من المال والثياب شيئا طائلا ..» (٦٨) .

فى سنة ٧٨١ هجرية قام رجل ممن كان يتكسب بالشهادة فى حوانيت اليهود كان اسمه «ابن الفيشى» (كان البعض يشهدون بالأجر فى المنازعات أمام القضاة ، وكانت مهنة معترف بها فى ذلك العصر؛ إذ كانت حوانيت اليهود يجلس بها من يتكسبون بالشهادة فى انتظار من يطلبهم. وعلى الرغم من أنه كان يفترض فى الشاهد العدل أن يكون عارفاً بدينه ، وأن تكون أخلاقه طيبة

وسمعتة نقية ، فالواضح أن قصة ذلك الرجل تبين أن الأمر لم يكن على هذا النحو دائما ، وكان بيت هذا الرجل قريباً من الجامع الأزهر . وعندما دخل منزله سمع صوتاً يقول : « اتق الله ، وعاشر زوجتك بالمعروف » ، فظن أن الصوت من الجان وحَدَّث أصحابه بما حدث ، فذهبوا معه إلى البيت ، وسألوا بعض الأسئلة إلى الصوت الذى ظنوا أنه الجان ، فإذا بالصوت يجيبهم دون أن يروا شيئاً ، فظنوا أنه من الجان حقاً ، وأشاعوا الأمر بين الناس « .. فارتجت القاهرة ومصر ، وأقبل الناس من كل جهة إلى بيت «ابن الفيشى» لسماع كلام الحائط ، والحائط بزعمهم يكلمهم ويحدثهم ، فكثر بين الناس قولهم «يا سلام سلم الحائط بيتكلم» ، وزادت فتنة الناس بالحائط . ولكن المحتسب الذى لم تنطل عليه الحيلة ، أخذ يدبر لكشف هذا الاحتيال ، ودس إلى ابن الفيشى من استدريجه إلى الاعتراف بأنها حيلة ، فركب المحتسب من يومه إلى بيت ابن الفيشى وقبض عليه ، وعلى زوجته ، كما قبض على واحد من الصوفية « .. كان للناس فيه اعتقاد .. » واعترفت المرأة بأنها هى التى كانت تتكلم من وراء الحائط لأن زوجها كان يسىء عشرتها ، فاحتالت عليه هذه الحيلة؛ ثم أعلمته بما كان منها ، فرأى أن تستمر على ذلك « .. لينالا به جاهاً ومالاً فوافقته .. وسَمَرُوا بالقاهرة .. »^(١١) .

هكذا ، كانت عمليات النصب تجري بسهولة فى ذلك المجتمع الذى يلقه الجهل المزوج بالتدين الشعبى الذى يثق فى الأولياء والمعجزات ، كما يثق فيمن يدعون القدرة على إتيان المعجزات والحوار^ك . فقد كان عامة الناس أسرى الجهل فى ذلك العصر الذى لم يكن فيه اتصال أو تواصل بين الفئة المثقفة العارفة وبين عامة الناس ، الذين وصفتهم المصادر المعاصرة بأنهم «سواد العامة»؛ بل كانت تصفهم بالعامة والزعر والخرافيش وأوباش العامة ، والأراذل . ومن ثم ، كان مجرد ذكر اسم أحد الصحابة بدون وجه حق ، أو وجود أحد الصوفية فى المشهد يسهل عملية النصب ، ويجعل الناس يسقطون بسرعة فى براثن النصابين ، ولا يجب أن ننسى أن المقريزى وكثيراً من المعاصرين كان رأيهم سليباً تماماً فى الصوفية . على أية حال ، كانت عمليات النصب باسم الدين تلقى النجاح بسهولة فى المجتمع . ومن الإنصاف أن نقرر أن ذلك لم يكن وفقاً على المجتمع المصرى فى تلك العصور ، وإنما كان سمة مشتركة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وأوربا آنذاك.

وحدثت حوادث نصب واحتيال من نوع مختلف ، ولكنها لم تكن ذات بال ، ولم تحدث الأثر السلبي الكبير الذى أحدثته حوادث الاحتيال التى أشرنا إليها فى السطور السابقة . فقد ذكر

ابن إياس فى حوادث سنة ٨٥٨ هجرية ، فى عهد السلطان الأشرف أينال ، أن طواشيًا نزل من القلعة ومعه امرأتان ، وذكر أن السلطان رسم لهما أن يأخذا من كل دكان درهم فلوس جدد بسبب دين عليهما ، ودار بهما الطواشى شوارع القاهرة وكل من الثلاثة على حمار مكارى ، وجبى من الدكاكين مالا وفيرًا ، والطواشى يقول : « حسب المرسوم الشريف » ؛ ثم اكتشفت عملية النصب وعلم السلطان بما حدث ؛ فأمر بإحضار الطواشى ، وضرب النصابين الثلاثة ضربًا مبرحًا ، ورسم بتشهيرهم فى شوارع القاهرة ومصر ، ونودى عليهم هذا جزاء من يكذب على الملوك^(٧٠) .

ثمة حوادث من نوع آخر ، كانت تحدث بسبب الاختلال العقلى أو النفسى عند بعض الناس فيرتكبون مثل هذه الحوادث التى لم تكن تضر أحدًا ؛ ففي سنة ٨١٩ هجرية ظهر شخص أعجمى ادعى أنه صعد إلى السماء ، ويكلم البارى عز وجل فى كل يوم مرة .. فاعتقده جماعة كثيرة من أهل مصر ، فلما شاع أمره بين الناس أمر السلطان بعقد مجلس من القضاة الأربعة لمناقشة هذا الحادث .. ثم شهد جماعة من الأطباء أن فى عقله خللًا فسجنوه ، ثم نقله إلى البيمارستان وصار مع المجانين^(٧١) .

وحدث حادث مشابه فى سنة ٧٨١ هجرية ، عندما ادعى شخص أنه هو محمد بن عبد الله النبى الأُمى فقبض عليه ، وسجن بالمرستان (البيمارستان) «... وكان قد سئل عن معجزته ، فقال إن أحرف القرآن تنطق لى ، وسئل أيضا هل يعترف بنبوّة محمد رسول الله ، فاعترف ، وذكر أنه قد أرسل بعده ليقرّ شرعه وأنه موعود بالسلطنة والحكم ، فشهد رؤساء المرستان أن فى عقله اختلالا ؛ فقيّد زمانًا ثم أطلق . وقال ابن حجر إنه رأى الرجل بعد ذلك بمدة طويلة ، وهو يستعطى الناس ، ولا يذكر شيئا مما تقدم «... ويتأذى ممن يذكر له ذلك...»^(٧٢) .

مثل تلك الحوادث لا تدخل فى باب الجرائم ، فليست جريمة بأى حال من الأحوال ، وإنما هى حالة عقلية أو نفسية ، قد تصيب أى انسان فى أى مجتمع ، وفى أى زمان ، لسبب أو لآخر . وقد كان فى المجتمع مثل هذه الحالات المريضة بطبيعة الحال ، فالمجتمع لم يكن فى ذلك العصر صورة أحادية الجانب ؛ ولكنها كانت صورة كلية شاملة تحمل كافة ملامح الحياة اليومية : الحسن منها والقبيح ، المبهج وما يثير الأسى ، والفردى والجماعى .

وقد حدثت فى المجتمع آنذاك حوادث فردية أخرى عديدة نكتفى منها بهذه الأمثلة ؛ ففي سنة ٦٨٠ هجرية ، فى سلطنة المنصور قلاون ، أمر السلطان بشنق رجلين أحدهما مرّ به واحد

من السقّانين فزحه بجمله بشكل أتلّف ثيابه ، فضربه بسكين قتله فى الحال ، وتم شنقه . وكان الرجل الثانى ، الذى شقّ ، جنديًا له قماش عند أحد الخياطين لكى يخطط له ثيابا ، ويبدو أن الخياط ماطله كثيرا حتى نفذ صبره ؛ فضربه ، ومات الخياط وشنق الجندى ^(٧٣) . هذه الحوادث الفردية كانت أخبارها متواترة فى المصادر التاريخية ، بيد أنها لم تشكل ظاهرة يتوقف عندها المزرخون المعاصرون .

وفى السنة السابقة ، ٦٧٩ هجرية ، ظهر فى القاهرة رجلان من المجرمين : عرف أحدهما «الجاموس» لسواد لونه ، وعرف الآخر بلقب «المحوج» لأنه كان يضع لثامًا يشبه الحجاب . وقد أفسدا فسادًا كبيرًا . وكانا شغوفين بشرب الخمر ، ويبدو أن الخمر كانت تكسبهما شجاعة وهمية فكانا يرسلان للأعيان والأثرياء أوراقا «... بطلب شئ، من إحسانهم ...» ويوصلان تلك الأوراق إليهم ، فإذا لم يبعث أحدهم المطلوب منهم هاجماه ليلا فى منزله . وبلغ بهما التبجح حدا بعيدا «...حتى أنهما يمشيان فى مواضع النزّه ، وسيوفهما على كتفيهما» .. فلا يجسر أحد على التصدى لهما . وحاول والى القاهرة أن يرتّب للقبض عليهما ولكنه لم يفلح ؛ فقد كانت عصابتهما تتألف من أكثر من مائة رجل ... بل إن العصابة هاجمت القاهرة ذات ليلة ، وأمسك أفرادها بوالى الطواف (الذى كان مسئولًا عن تأمين المدينة ؛ فيطوف الشوارع والحدارات ليلا لحراستها وتأمينها ضد الحوادث المفاجئة) وعلّقه من ذراعيه ، وقطعا أنف المقدم وأذنيه ، بل إن هذه العصابة كانت تطارد كل من يضعه الوالى لرصد تحركاتهم ونشروا الذعر والخوف منهم بين الناس ... وفى إحدى الليالى حدث أن زعيمى العصابة كانا فى بستان بالمطرية من ضواحي القاهرة آنذاك ، وخرجا يقصدان القاهرة ؛ فصادفهما مملوك الوالى الذى كان فى طريقه إلى بلبس ومعه غلامه وعرفهما . فضرب أحدهما بالسهم فى ساقه فسقط على الأرض ، وحاول الآخر أن يهرب فى البستان ، فسقط من فوق سور البستان وانكسرت ساقه ... وحدثت ضجة وصخب فى البساتين (وكانت المطرية فى ذلك الحين كلها مزروعة بالبساتين) واستيقظ الناس بسبب الضجة ، فنزل غلام المملوك وكثّف «الجاموس» وأخرج الناس «المحوج» من البستان وساروا بهما مربوطين إلى القاهرة . ثم طلع بهما الوالى إلى السلطان ومعه مملوكه الذى ألقى القبض على هذين المجرمين ... وكان المملوك «...زربًا قصيرًا لا يؤبه به...» فعجب السلطان من ذلك .. فرسم بتسميرهما على باب زويلة وشهروا عدة أيام .. وكوفىء المملوك مكافأة كبيرة ^(٧٤) .

فى سنة ٦٨٠ هجرية ، قبض على شخص يسمى «الكريدى» فى طريق مصر ، كان يقطع الطريق على الناس ، فسمر على جمل ، وأقام أياما يطاف به أسواق القاهرة ومصر . ثم قطع المسئول عن هذا المجرم الطعام والماء عنه ؛ فلما طالب قاطع الطريق بالطعام والشراب ، قال له المسئول عنه : إنما أردت أن أهون عليك لتموت سريعاً حتى تستريح مما أنت فيه .. فردّ بقوله : لا تقل كذا ، فإن شر الحياة خير من الموت « فناول ما أكل وسقاه ثم وقعت فيه شفاعة فأطلق من التسمير وسجن ، فعاش أياما ومات فى السجن ^(٧٤) .

هذان المثالان عن الجرائم التى تسببت فى كثير من الضرر والإزعاج للناس فى مصر حينئذ لم يكونا من الجرائم الفردية طبعاً ، وإنما كانا من نمط من الجرائم الذى استشرى فى السنوات الأخيرة من عصر سلاطين المماليك نتيجة لانهايار سلطة الدولة وضياع هيبتها . وتسبب هذا النوع من الجرائم الجماعية فى خسائر جمة للأهالى من التجار وأصحاب الدكاكين فى الأسواق والقياسر الذين تعرضوا للسرقات بشكل متكرر بدرجة انعكست فى صفحات كتب التاريخ المعاصرة التى لم تكن تكاد تخلو من ذكر هذه الحوادث فى كل شهر وربما فى أيام متتالية ، فضلاً عن حوادث قتل الخفراء والبوابين التى كانت تصحب عمليات السطو المسلح هذه فى ذلك الحين .

وتحدث ابن الصيرفى فى حوادث سنة ٨٧٥ هجرية عن توسيط اثنين من المفسدين (والتوسيط نوع من الإعدام المعروف فى عصر سلاطين المماليك ، يكون بضرب من توقع عليه تلك العقوبة بالسيف من وسطه لفصل الجزء العلوى عن الجزء الأسفل من الجسم) بباب مصر ، أى الفسطاط ، وعُلّقاً حتى يرتدع المفسدون ويرجعون عن الأذى والسرقة وقتل النفس ^(٧٥) . ولكن عصابات اللصوص التى كانت تهاجم الأسواق والمنازل ، كانت معروفة ومشهورة فى الحياة اليومية منذ بداية ذلك العصر ، فذكر المقرئى فى حوادث سنة ٧٤٤ هجرية أن الناس اعتراهم الخوف من عصابة كانت تهاجم البيوت فى القاهرة وقال « .. كثر تخوف الناس من منسر انعقد بالقاهرة ؛ وذلك أن أفراد هذا المنسر كبسوا عدة بيوت » .. وكتبوا أوراقا يطلبون فيها الأموال من الأغنياء .. « ومتى لم يبعث إليهم أحد ذلك كانوا يقولون ساخرين إنهم سيكونون ضيوفه » . فاتفق أنهم كبسوا بيتاً فى بولاق ، وكان أهله قد أنذرهم البعض بما سيحدث ، فاستعدوا للمنسر وتركوا أبوابهم مفتوحة ، فدخل اللصوص البيت عند منتصف الليل ، وإذا بالنشاب قد انهال على اللصوص الذين أخذتهم المفجأة « .. وقد وشج فى صدورهم ... » فأصابوا منهم ثلاثة وفرّ الباقون منهزمين ، واستمرت

المطاردة ، فقتل أصحاب البيت واحداً آخر من اللصوص ، وقبضوا على ثلاثة آخرين ، وساقوهم إلى الوالى الذى وضعهم تحت التعذيب ، فأقرّوا على جماعة بالجزيرة . وتتبعهم الوالى إلى أن ظفر بجماعة منهم سرّوا وشهروا...»^(٧٧) . وفى سنة ٩٧١ هجرية هاجم المنسر سوق باب الشعرية ، وقتلوا البواب وفتحوا عدة دكاكين أخذوا ما بها ، وخرجوا من الباب . وفى هذه السنة أيضا ، أمر السلطان قايتباى بتوسيط شخص من كبار اللصوص اسمه أحمد الدنف .. وله حكايات فى السرقة يطول شرحها...»^(٧٨) .

فى سنة ٧٨٨ هجرية ، فى عهد السلطان برقوق ، تجمع منسر يتكون من حوالى ستين لصا ودخلوا القاهرة فأكمنوا بها ، بعد أن تدلّوا من السور وقصدوا سوق الجمّلون ، وقتلوا نفرين... ثم استطاع والى القاهرة القبض على ثلاثة منهم .. واعترفوا تحت التعذيب على بقيتهم . ومضت عدة أشهر حتى تمكن الوالى من الإمساك بثمانية عشر لصا من هذه العصابة ؛ فرسم بتسميرهم على الجمال ؛ فسرّوا فى أيديهم وألبسوا فى أرجلهم قباقيب الخشب ، وبعد ذلك تم توسيطهم إلا واحدا لكى يدلّ على الباقيين^(٧٩) . وفى سنة ٩٠٥ هجرية هجم المنسر على سوق الوراقين ، وسوق المهازمين ، وكسروا عدة حوانيت ونهبوا ما فيها وكانت العصابة تضم أكثر من مائة لص ما بين مشاة وركاب ، ومعهم قسى ونشاب ؛ فقتلوا ثلاثة خفراء ونهبوا قماشا بنحو عشرة آلاف دينار^(٨٠) .

فى سنة ٩٠١ هجرية هاجمت عصابة من اللصوص سوق التجار بجوار جامع أحمد بن طولون، وكسروا عدة حوانيت ونهبوا ما فيها^(٨١) . وفى السنة التالية هاجم المنسر سوق باب اللوق ، وأخذوا أموال التجار وفعلوا الشئ نفسه بسوق تحت الريع ، وتكرر الأمر فى السنة نفسها إذ هاجموا سوق أمير الجيوش، وأخذوا أشياء كثيرة من الدكاكين وقتلوا الخفير^(٨٢) . وفى سنة ٩٠٣ هجرية تكرّر هجوم اللصوص على الأسواق فركب والى القاهرة وقاتل المنسر، فقتلوا عدداً من رجاله .. ولم يبلغ من المنسر مأربا...» وراحت على الناس أموالهم^(٨٣) . ويبدو أن الأمر تعدى حدود قدرة السلطات ؛ فقد نادى والى القاهرة بأن يعمل أهل الأسواق والحارات عليهم دروبا.. وكانت قد كثرت فى تلك الأيام المناسر جدا ، وصاروا يهجمون على الأسواق والحوانيت والحارات «... ويعطعون بها...»^(٨٤) . وهكذا وصل الأمر إلى أن يطلب من الناس عمل الحواجز وبينون ما يحميهم من هجمات اللصوص بسبب غجز الوالى . وفى سنة ٨٢٠ هجرية ، هاجم جمع من الحرامية

داخل القاهرة ، ونهبوا عدة حوانيت وقتلوا رجلين ، ثم عادوا إلى مثاهم فى حارة الباطلية (كانت فى موضع منطقة الفجالة الحالية) ، وكان بينهم فارسان ولم يتبعهم أحد ^(٨٥) .

والواضح من الأمثلة التى قدمناها فى السطور السابقة ، أن الأمن كان قد تدهور بصورة متسارعة فى أواخر عصر سلاطين المماليك ، صحيح أن حوادث السطو المسلح واللصوصية تواترت وتكررت أخبارها فى المصادر التاريخية عن القاهرة وحدها ، بما فيها من الأسواق والقياسر والمنازل؛ لكن ذلك لا يعنى أن المدن الأخرى والريف لم تكن بمنأى عن مثل هذه الحوادث ، ولكن العكس هو الصحيح تماما ؛ فقد ذكرت المصادر التاريخية الحوادث التى كانت تقع فى القاهرة فقط لأنها كانت العاصمة التى يتركز بها الحكم ويمثلو السلطة المسئولون عن الأمن ويهتم بها المؤرخون لأنهم أيضا يقيمون بها ، ولكن المناطق الأخرى غير القاهرة كانت نهبا للفوضى التى انتشرت فى البلاد فى سنوات التدهور والذبول التى انتهت بسقوط الدولة ، ولكن أخبارها لم تجد طريقها إلى صفحات المصادر التاريخية . وإن وجدت أصداها فى صفحات سيرة الظاهر بيبرس التى أعتقد أن تسجيلها كان فى ذلك العصر الثرى المثير ، وحملت الكثير من مسميات الجرائم والمجرمين فى عصر سلاطين المماليك والتى لم يعرفها المؤرخون بطبيعة الحال.

المهم أن هجمات المنسر استمرت حتى نهاية ذلك العصر على أقل تقدير ؛ ففي سنة ٩٠٧ هجرية هجم المنسر على سكان المسطاحى بجوار قنطرة الحاجب وقتلوا أحد الخفراء ونهبوا عدة بيوت ثم دخلوا إلى الجسر بجوار بركة الرطلى ... وكان عددهم حوالى ستين لصا مسلحين بالقسي والنشاب .. وطاردهم الوالى فقبض على ثمانية منهم ، وهرب الباقون وسرّ الوالى الباقيين على جمال وطيف بهم فى القاهرة ^(٨٦) . وفى السنة نفسها هجم المنسر على سوق جامع أحمد بن طولون وكسروا حوالى أربعة وعشرين دكانا ، ونهبوا ما بها من قماش وغير ذلك ... وشكى التجار للسلطان قنصوه الغورى ؛ فأمر الوالى بمطاردة اللصوص فقبض على حوالى عشرين لص من المنسر ووسطهم الوالى فى وسط سوق أحمد بن طولون ^(٨٧) . وذكر المقرئى فى تعليقه على جرائم السرقات أن والى القاهرة ومصر (الفسطاط) وغيرهما من الولاة فى سائر النواحي كانوا فاسدين مرتشين ولصوصا .. فإن جميع ما يسرق من الناس يأخذونه من السراق ... فلا يأتون بسارق معه سرقة إلا أخذوها منه ، فإن لم تكن معه ألزموه مالا ويتركونه لسبيله ، صار كل من يقطع يده من السراق إنما يقطع لأمرين : إما لقوة جاء من سرقت منه السرقة ، أو عجز السارق عن القيام بالمال .. ^(٨٨) .

فى هذا النص المثير يتكشف جانب آخر من جوانب التدهور الذى حاق بالحياة المصرية فى أواخر عصر سلاطين المماليك ؛ فقد كان الولاة ، وهم المسئولون عن حفظ الأمن فى البلاد ، يسرقون من اللصوص ما يسرقونه ، إذا ضبطوهم (حاميتها حراميتها) . ولا تطبق عقوبة السرقة سوى إذا كان الضحية من أصحاب النفوذ والجاء ، أو إذا لم يستطع اللص أن يعطى الوالى ومساعديه ما يطلبونه من المال . وكان هذا أمرا طبيعيا فى ظل فساد المسئولين فى العقود الأخيرة من عصر سلاطين المماليك ، الذين كانوا يتولون وظائفهم بالرشوة (البذل والبرطلة) وانعدمت مؤهلاتهم العلمية والأخلاقية . فضلا عن أن القضاة كانوا فاسدين لدرجة أن الناس كانوا يتندرون بفساد القضاة ، وقد أورد ابن إياس قصيدة طويلة تداولها الناس فى الأسواق وأماكن تجمعهم عن فساد القاضى «ابن عبد البر» وحاول القضاة القبض على الشاعر ومعاقبته على قصيدته فتجمعهم الناس وأنقذوه وكادوا يفتكون بالقضاة ..

وكانت بعض جرائم السرقة تتم من داخل المنشآت التجارية بواسطة بعض التجار الفاسدين أنفسهم . فقد حدث فى سنة ٧٨٣ هجرية ، فى سلطنة برقوق ، أن أحد تجار قيسارية جهاركس أخلى حماما قرب القيسارية وأوهم حارس القيسارية بوجود كنز ، وكان معه ابنه وصانع أقفال ، وساعد الرجل فى فتح الأقفال الحديدية كلها .. وأخذ من دكاكين القيسارية ما قيمته أكثر من عشرة آلاف دينار من البضائع ، وهرب تحت جنح الليل هو وابنه . وفى الصباح فوجئ أصحاب الحوانيت والناس بما جرى ...ولكن امرأة قالت إنها شاهدت ابن القماش التاجر فى القيسارية ليلة السرقة .. وبعد فترة تم القبض على السارق وابنه وصانع الأقفال .. وضربوا وحكم عليهم بالسجن عدة سنين ^(٨٩) .

وفى سنة ٧٦٩ هجرية كان الناس قد بلغ بهم الخنق على المماليك البلغاوية مبلغا كبيرا « .. لقبح سيرتهم ، وكثرة فسادهم » . فقد كانوا يهجمون على النساء فى الحمامات العامة ، ويخطفون الصبيان المرد من الأسواق ويخطفون القماش من الدكاكين ... فتعصبوا عليهم الناس قاطبة ونزل قائدعهم من وراء التلعة بمن معه من المماليك البلغاوية... فلقيهم الناس فى جمع غفير.. ودارت بين الجانبين معركة حامية امتدت حتى الظهر « .. فألقى الله الرعب فى قلوب البلغاوية.. » ثم نادى الوالى ، أن من قدر على مملوك من ممالك بلغا ، فله مكافأة وله أيضا مكافأة مالية؛ فأخذ العامة فى مطاردة أولئك المماليك فى الاصطبلات والأزقة والحارات وأخذوا فى قتلهم أو القبض

عليهم^(٩١) . وفى السنة التالية هاجم العامة الوالى ورجموه حتى كاد أن يهلك من رجمهم له فالتجأ هرباً منهم إلى باب السلسلة .. وظل نهاره كله مختبئاً فيه ، والعامة قد وقفوا يتربصون به تحت القلعة حتى اقتربت صلاة العصر^(٩٢) . وفى سنة ٨٥٣ هجرية ، غضب العامة من المحتسب ، وزاد من غضبهم احتكاره القمح ... وتجمعهم الناس من داخل باب زويلة إلى تحت القلعة (وهى مسافة كبيرة داخل القاهرة ، وكان عددهم ضخماً بحيث ملأوا هذه المنطقة) «...وهم يصيحون ، ويلعنون ، ويسبّون... ثم انضمت إليهم طائفة من المالكين ... وأحكموا ذله بالمشى، والعرى ، والضرب ، من سائر الأركان...» حتى صدر الأمر بعزله^(٩٣) . وفى سنة ٨٢٠ هجرية أساء والى دمياط إلى أهل البلد كثيراً «... وجرى على عادته فى ظلم الناس ، وأخذ أموالهم، ونسائهم ، وشباب أولادهم...» وكان من جملة أهل دمياط طائفة يعرفون باسم «السنانية» كانوا يتعيشون من صيد الأسماك فى بحيرة تنيس... واستفزتهم تصرفات ذلك الوالى الفاسد ؛ فتجمعوا وأوقعوا بنائب الوالى وضربوه .. ثم تجمعوا على الباب الوالى الذى حاول فى البداية أن يقاتلهم ، ثم حاول أن يهرب عن طريق البحر، فأمسكوا به قبل أن يتمكن من الهرب... وقتلوا نائب الوالى بعد أن شهروه على جمل... والمغانى تزفه...» ثم قتلوا الوالى نفسه وسبوا حريمه وأولاده^(٩٤) . وفى زمن السلطان الأشرف برسباى اشتكى أهل دمياط ، أيضاً ، من أن ابن الملاح الكاتب النصرانى من طائفة الملكانية (أى الروم الأرثوذكس) «... متجاهر باللواط، وإظهار الفاحشة .. ومنع الناس أولادهم من الخدمة عنده لأنه يفسدهم بكثرة عطاياه ، ومعاقرة الخمر والغناء...» وشكوه للسلطان الذى أمر بمحاكمته ... وأعلن إسلامه «... وحسنت سيرته بالنسبة إلى ما كان والله أعلم...»^(٩٥) .

من هذه الأمثلة نستطيع أن نتصور أن الحياة اليومية كانت تتلون بشكل كبير من جراء ما كان الناس يلاقونه من الصعوبات والمشكلات ؛ بيد أن الناس لم يتحلوا بالصبر دائماً ؛ فقد كانوا يشورون ويعمدون إلى أخذ القانون فى أيديهم ، عندما تغيب سلطة الدولة أو تتوارى لسبب من الأسباب . ومن ناحية أخرى ، تكشف هذه الأمثلة السلبية ، وكلها تقريباً من الشطر الثانى من عصر سلاطين المالكين ، أن الفساد كان قد أنشأ مخالبه فى جسد الدولة المتهالك .

ومن الملامح القائمة فى العقود الأخيرة من ذلك العصر ، أن «فساد العريان» كان من المظاهر التى كانت تتناسب تناسباً عكسياً مع قوة الدولة وهيبتها ؛ فإذا كان السلطان الحاكم قوياً

وحكومته صارمة ، توارى العربان فى مضاربهم ، أما إذا كان السلطان ضعيفا أو طفلا تحت السيطرة المفروضة من كبار الأمراء الراغبين فى الاستيلاء على الحكم واغتصاب السلطة ، مثلما حدث فى سلطنة الناصر محمد بن قلاون الأولى والثانية ، عندما كان السلطان ضيقا غرا ، فقد زاد شر العربان ، كما حدث سنة ٧٠١ هجرية فى الصعيد ، وتمادوا فى قطع الطريق « .. إلى أن فرضوا على التجار وأرباب المعاش فى أسبوط ومنفلوط ، فرائض جبوها شبه الجالية (أى الجزية التى كان أهل الذمة يدفعونها ، وكانت الجزية تسمى جوالى ، ومفردتها جالية) ولبسوا الأسلحة ، وتسموا بأسماء الأمراء ، وجعلوا لهم كبيرين : أحدهما اسمه بيبرس والآخر سمّوه شلار (على اسم الأميرين اللذين كانا يتحكمان فى سلطنة الناصر محمد الثانية) ، ولبسوا الأسلحة وأخرجوا أهل السجون بأيديهم ... وتم تجريد حملة كبيرة ضد العربان برأ ونهرا .. وهاجمت الحملة العربان على حين غفلة! فوضعوا السيف فى العربان من الجزية حتى أسبوط ، فلم يتركوا أحدا إلا قتلوه .. ووسطوا منهم حوالى عشرة آلاف رجل ، وما منهم إلا من أخذوا ماله وسبوا حريمه ... ومن الأمور الطريفة أن المالك استخدموا حيلة بسيطة لمعرفة البدو وتمييزهم عن بقية الناس من أهل الحضر « .. فإذا ادعى أحدهم أنه حضرى قيل له قل «دقيق» فإن قال بحرف كاف العرب قتلوه .. » وحصل من أموالهم شىء عظيم جدا ^(٩٤) .

وفى سنة ٨٧٩ هجرية ، هاجمت طائفة من العربان ضواحي القاهرة وأخذوا يستولون ما على الناس من ملابس وما معهم من حاجيات أو نقد ، وكانوا حوالى عشرين خيالا ^(٩٥) .

ونجد فى المصادر بعض حوادث ذات طابع فريد لكنها تشير إلى تفشى الفوضى فى العقود الأخيرة من ذلك العصر ؛ إذ كان العبيد أحيانا يقومون بالهجوم على بعض الأماكن بأعداد كبيرة، ولم توفر لنا المصادر التاريخية معرفة السبب وراء هذه الظاهرة الغربية ؛ ففى سنة ٨٢٢ هجرية هاجم عدد من العبيد حمام النساء فى ميت عقبة .. وتم القبض عليهم وسجنوا ^(٩٦) . وقد حدث فى سنة ٨٠٢ هجرية أن كسرت جموع الغوغاء والزعر « .. حبس الديلم ، وحبس الرجة ، وأخرجوا ما بها من أرباب الجرائم ، وصارت القاهرة فى ذلك اليوم غوغاء ؛ فمن غلب على شىء صار له .. » ^(٩٧) . وفى سنة ٨٤١ هجرية أطلق السلطان برسباى سراح من بالسجون من الرجال والنساء وغلقت جميع الحبوس .. ويبدو أن ذلك كان بتأثير الاضطراب العقلى الذى أصيب ذلك السلطان برسباى من جراء الوباء الذى ضرب البلاد فترة طويلة ، فقد علق المؤرخ ابن اياس على هذا الخبر

بقوله « ولكن لم يحدث من هذه الفعلة للناس خير .. » وكثرت السرقات بالقاهرة ، وامتنع من عليه دين عن إعطائه ، وضاعت حقوق الناس .. » (٩٨) .

من ناحية أخرى ، شهدت البلاد عدة حوادث ناتجة عن اشتعال الحرائق طوال ذلك العصر ، ولو أن معدل وقوعها زاد كثيرا فى العقود الأخيرة من ذلك العصر . وكان بعض تلك الحوادث بفعل فاعل ، ويهدف الانتقام ، وكان بعضها الآخر نتيجة عوامل أخرى طارئة ، وغير متعمدة . ولعل أول حريق طالعنا به المصادر التاريخية فى عصر سلاطين المماليك وقع بحارة الباطلية (وهى منطقة الفجالة فى القاهرة اليوم) فى سنة ٦٦٣ هجرية ، أثناء حكم السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى ؛ فقد أحرقت النيران ثلاث وستين دارا جامعة ، ثم اشتد الحريق بعد ذلك فى الفسطاط ، حتى احترق عدد من رباعها المشهورة ، وغير ذلك « .. ووجدت لفايف من المشاق والكبريت والأصناف النفطية على الأسطح ، وشاع الخبر أن النصارى يفعلون ذلك بسبب ما فعله السلطان الظاهر بيبرس ببلاد الإفرنج من إحراق الكنائس .. » فجمع السلطان النصارى واليهود وأمر بجمع الأخشاب والأحطاب ليحرقهم فى القلعة ، ولكن تدخل كبار الأمراء ، ومنهم الأمير فارس الدين أقطاي أتاك العسكر ؛ فشفع فيهم على أن يلتزموا بالأموال لتعويض خسائر الحريق .. وكان الشرط أن يقدموا خمسين ألف دينار لبيت المال ففعلوا (٩٩) .

فى سنة ٧٢٠ هجرية ، فى سلطنة السلطان الناصر محمد الثالثة ، نشب حريق فى القاهرة ومصر .. واحترقت فيه كثير من الدور ... و كانت هناك ريح شديدة وقت وقوع الحريق فسرت النار فى عدة أماكن وخرج الحريق عن القدرة البشرية .. « فخرج الناس وتعلقوا بالمآذن ، واجتمعوا فى الجوامع والزوايا يدعون إلى الله تعالى ... وتم جمع كل البنائين والنجارين لإطفاء الحرائق فأخذوا يهدمون البيوت من أسفلها .. ونودى فى القاهرة أن يعمل بجانب كل حانوت زير أو دن كبير ملىء بالماء تحسبا لاشتداد الحرائق .. وشاع بين الناس أن النصارى هم الذين دبروا الحريق انتقاما لما جرى من حرق كنائسهم .. ثم تم القبض على راهبين فور خروجهم من المدرسة الكهارية متلبسين برمى النيران فيها ، وقد اعترف الراهبان أنها وآخرون ارتكبوها هذه الجريمة ، وتم القبض على الجناة ، وأعدم عدد منهم ، وقد اعترف أحد المقبوض عليهم أن النصارى قد اجتمعوا وعملوا النفط وفرقوه على جماعة ليدوروا به على المواضع التى أشعلوا بها النيران .. وبعد التحقيق تقرر عقوبة أربعة عشر راهبا من دير البغل بالموت .. وأحرق أربعة رهبان منهم فى حفرة كبيرة ..

وكانت نتيجة هذا الحريق أن زاد حق العامة والسلطان على النصارى^(١٠٠) . فخرجت المظاهرات تطلب بطرد النصارى من الخدمة فى دواوين الحكومة ودواوين الأمراء واضطر السلطان الناصر للنزول على رغبة الناس بعد أن حاول منعهم بالقوة لكنه فشل .

وفى سنة ٧٥١ هجرية ، نشب الحريق فى خط البندقانيين ، الذى قال عنه المقرئى إنه كان «أعمر خطط القاهرة وأنزهها» . وقد نشب الحريق والناس فى صلاة الجمعة ، وما كاد الناس يخرجون من الجوامع حتى زاد الحريق التهاباً واشتعالاً.. وتوجه والى القاهرة لإطفاء الحريق ، وحدث فى ذلك اليوم أن كانت هناك ريح عاصفة فامتدت النيران إلى مناطق بعيدة... ثم جاء الوزير ومعه عدد من الأمراء الكبار ومعاليتهم ؛ ولكنهم عجزوا عن إطفائها ... وركب كبار الأمراء لإطفاء النيران ولكى يمنعوا النهاية من نهب البيوت التى طالتها الحريق .. ولكن الحريق كان أقوى من كل تلك المحاولات ، وانتشر الحريق حتى احترقت دكاكين البندقانيين ودكاكين الرسامين (الذين يزخرفون الملابس) ، والفندق المجاور ، والربع الذى يعلوه... ويبدو أن الأمر قد تفاقم بحيث خرج الحريق عن نطاق السيطرة تماما . فقد نودى بالناس أن يحترسوا على مساكنهم «... فلم يبق أحد من الناس ؛ أعلاهم وأدناهم ، حتى أعدّ فى داره أوعية ملآة بالماء ؛ ما بين أحواض وأزبار ...» وأخذ الناس يتناوبون السهر فى الليل حتى لا تفاجئهم النيران وهم نيام .. وترك جماعة من الناس الطبخ فى بيوتهم خوفاً من النار من منتصف شهر صفر حتى العاشر من شهر ربيع الآخر ، كما نودى فى البلد ألا يقيم فيها غريب ، وجرى التنبيه الخفراء وولاة المراكز باليقظة واتخاذ الحيطة والحذر... وأخذ من يتوهم فيه ريبة ، أو ينكر شىء من أمره.. وهكذا تسبب ذلك الحريق المروع فى زرع الخوف والوهم فى نفوس الناس العادية والمسؤولين فحاولوا أن يتخذوا كل الاحتياطات اللازمة ... ولكن أحداً لم يعرف سبب الحريق^(١٠١) .

وفى سنة ٧٩٩ هجرية ، وقع حريق خارج باب زويلة ، عند دار التفاح التى كانت سوق الفاكهة المركزية فى القاهرة تستقبل الواردات من بساتين مصر أو من الواردات من فواكه الشام، وتتولى توزيعها على الأسواق والباعة ، وقد حرقتهما النيران كلها كما حرق الرّبع الذى كان حولها .. ووصلت النار إلى حوانيت البراذعيين ثم امتدت إلى حوانيت الموازينيين ، ولولا سور القاهرة لاحترق نصف المدينة . وجاء كل أمير بمماليكه لإطفاء النيران ، وصاروا بهجمون على بيوت السفّانيين قسراً للمساعدة فى إطفاء الحرائق ... ولكن الحرائق زادت اشتعالاً ... واستمرت

الحرائق ثلاثة أيام متوالية ^(١٠٢). وفى السنة التالية ، وقع حريق خارج باب النصر وحرق آخر تجاه البانسية ، خارج باب زويلة ، ووقع الحريقان فى ليلة واحدة مما أعيا الناس وأرهقهم عندما حاولوا إطفاءها ^(١٠٣) . وفى سنة ٨٦٢ هجرية وقع حريق ببولاق ... واحترق أكثر من ثلاثمائة دار ، وربوع ، ودكاكين ، وشون .. وظلت النار مشتعلة على مدى أسبوع كامل ... وكان ابتداء الحريق الذى وقع بعد ذلك فى القاهرة « .. واقتقر بسبب ذلك خلق كثير من التجار وغيرهم من كثرة البيوت والدكاكين التى احترقت .. » ^(١٠٤) . وفى سنة ٨٢٨ هجرية « .. كان بدمياط حريق شنيع .. ذهبت فيه بيوت كثيرة » ، وقد مات فى ذلك الحريق الشنيع عدد من الناس ^(١٠٥) . وليست لدينا معلومات كثيرة عن ذلك الحريق ، وكان المفريزى هو المؤرخ الوحيد الذى ذكره .

فى السطور السابقة ، ذكرنا بعض حوادث الحريق التى أوردتها المصادر التاريخية ، ويظهر من خلالها أن الاهتمام كان منصباً على القاهرة والفسطاط وأخبارهما كما ذكرنا فى حديثنا عن كل جانب من جوانب الحياة اليومية ؛ فقد كانت العاصمة محور اهتمام المؤرخين جميعاً لأسباب ليست هناك ضرورة لتكرارها ؛ ولكن الإشارة الوحيدة التى ذكرها تقى الدين المقرئ عن الحريق الذى نشب فى مدينة دمياط ، يبدو أنها فرضت نفسها بسبب بشاعة الحريق وكثرة ضحاياه من البشر . ويمكن أن نقرر دوغماً تردد أن الحرائق كانت كثيرة الحدوث فى كل الأنحاء فى عصر لم تكن توجد فيه قوات مخصصة لإطفاء الحرائق ، أو إدارة حكومية مسئولة عن ذلك ؛ إذ كانت جهود السلطات فى حالات الحريق تدور فى إطار رد الفعل دون أن تكون هناك استعدادات مسبقة أو سياسة جاهزة لتطبيقها فى حال حدوث أى حريق . ومن هنا كانت الحرائق من الملامح الحزينة القائمة فى شكل الحياة اليومية المصرية فى المدينة وفى الريف المصرى بسبب ما كان ينجم عنها من كوارث ومصائب ؛ ويكفى أن نشير إلى ما أورده ابن إياس من أن كثيراً من التجار وغيرهم « افتقروا » بسبب الحرائق .

ومن المعروف أن المجاعات والأوبئة كانت من أخطر الكوارث الطبيعية التى ضربت مصر آنذاك ، وكان أشهرها وأخطرها ما عرفته المصادر التاريخية باسم « الموتان الكبير » الذى ضرب مصر فى سنة ٦٤٨ - ٦٤٩ هجرية فى عهد السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، والذى نزل بعدد السكان إلى درك مخيف من النقصان بحيث أثر على البلاد سلباً لفترة طويلة من الزمان . وكان معدل المجاعات والأوبئة مرتفعاً فى الشطر الثانى من عصر سلاطين المماليك مما أسهم فى المزيد

من التدهور ، ولكننى ناقشت هذه المسألة تفصيلا فى كتابى الموسوم « النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المالبك » مما يغنينى عن تكرار البحث فى هذا الموضوع .

٥٢ وقد أسهمت كوارث طبيعية مع هذه الكوارث البشرية فى زيادة الملامح القائمة فى صورة الحياة اليومية فى مصر آنذاك . فقد كانت الزلازل من تلك الحوادث الطبيعية التى عرفتھا مصر طوال تاريخھا .

فى سنة ٧٠٢ هجرية ، سلطنة الناصر محمد الثانية ، فى يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ذى الحجة اهتزت الأرض كلها ، وسمع للحيطان قعقعة ، وللسقوف أصوات شديدة ، وصار المائى يميل ، والراكب يسقط ، حتى تخيل الناس أن السماء انطبقت على الأرض ، فخرجوا فى الطرقات رجالا ونساء ، وقد أعجلهم الخوف عن ستر النساء وجوههن ، واشتد الصراخ ، وعظم الضجيج والعليل ، وتساقطت الدور ، وتشققت الجدران ، وتهدمت مآذن الجوامع والمدارس ، روضع كثير من النساء الحوامل ما فى بطونهن ، وخرجت ریح عاصفة ، ففاض ماء النيل حتى ألقى المراكب التى كانت على الشاطئ قدرمية سهم ، وعاد الماء عنها فصارت على اليابس ، وتقطعت مراسيها ، واقتلع الريح المراكب السائرة فى وسط الماء وحذفها إلى الشاطئ .

وفقد للناس من الأموال شئ كثير، فإنهم لم يخرجوا من دورهم فزعين من غير أن يعوا على شئ، مما فيها، فدخلها أهل الزعارة ، وأخذوا ما أحبوا .

وصار الناس إلى خارج القاهرة ، ويات أكثرهم خارج باب البحر ، ونصبوا الخيام من بولاق إلى الروضة ، ولم تك دار بالقاهرة ومصر تسلم من الهدم ، أو تشعث بعضها ، وسقطت الزروب التى أعلى الدور ، ولم تبق دار إلا وعلى بابها التراب و الطوب ونحوه ، ويات الناس ليلة الجمعة بالجوامع والمساجد يدعون إلى الله إلى وقت صلاة الجمعة .

وتواترت الأخبار من الغربية بسقوط جميع دور مدينة « سخا » ، حتى لم يبق منها جدار قائم، وصارت كوما وأن ضيعتين بالشرقية خربتا حتى صارت كوما . وقدم الخبر من الاسكندرية أن النار انشقت ، وسقط من أعلاه نحو الأربعين شرفة ، وأن البحر هاج وألقى الريح العاصف موجه حتى وصل باب البحر ، وصعد بالمراكب الأفرنجية على البر ، وسقط جانب كبير من السور ، وهلك خلق كثير .

وقدم الخبر من الوجه القبلى بأنه فى اليوم المذكور هبّت ريح سوداء ، حتى لم يرُ أحدُ أحدًا قدر ساعة ، ثم ماجت الأرض وتشققت ، وظهر من تحتها رمل أبيض ، وفى بعض المواضع رمل أحمر ، وكشط الريح مواضع من الأرض فظهرت عمائر قد ركبها السافى (التراب الأحمر الذى حملته الريح) ، وخرت مدينة قوص ... وجاءت الأخبار من البحيرة أن دمنهور لم يبق بها بيت عامر . وخرت عدة مساجد وجوامع من القاهرة ، فالتزم عدد من الأمراء : كل ببناء أحد الجوامع التى تهدمت^(١٠٦) . وقد تحدث كل من ابن أبيك الدوادارى ، وابن تغرى بردى ، والعينى ، عن ذلك الزلزال بدرجات متفاوتة من التفصيل أو الاختصار ، ولكن المقرئ هو الذى قدّم لنا صورة تفصيلية . إلى حد بعيد .

وقد حرصت على إثبات رواية المؤرخ الكبير تقي الدين المقرئى كاملة نقلا عن كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، لأنه المؤرخ الوحيد الذى رسم بقلمه صورة تفصيلية لما جرى فى أثناء الزلزال فى جميع أنحاء مصر من جهة ، ولأنه وصف ما حدث فيما يشبه اللوحة الفنية المعبرة عن ذلك الفرع والهول الذى ضرب المدن المصرية كلها من جهة أخرى . صحيح أن المؤرخ ابن أبيك الدوادارى كان معاصراً للسلطان محمد بن قلاون وشهد هذا الحادث أو سمع عنه من الذين كانوا بمصر وقت حدوث الزلزال ، ولكنه كتب باختصار عن ذلك الحادث المهول لأنه كان رجلاً عسكرياً كان جلّ اهتمامه موجهاً إلى الشئون العسكرية والسياسية . ومن ناحية ثانية ، يبدو أن المقرئى الذى لم يكن معاصراً قد نقل عن مصادر أخرى أسبق زمنياً أخبار زلزال سنة ٧٠٢ هجرية وقدم لنا ما يليق بالمؤرخ الكبير فى شكل تفصيلي .

❦ وإذ قدمنا فى الصفحات القليلة السابقة بعض الملامح القائمة عن شكل الحياة فى المدن المصرية آنذاك ، من الجرائم ، والاضطرابات ، والحرائق ، والزلزال ، يبقى أن نشير إلى أن بعض الملامح المضينة كانت تطالعنا من بين ثنايا صورة المدن فى أواخر ذلك العصر .

فقد كان بعض كبار الأمراء المماليك يميلون إلى التعمير والتطوير فى مواجهة التدهور الذى ألمّ بالحياة بشكل عام فى السنوات الأخيرة من عمر دولة المماليك ؛ من ذلك ما قام به الأمير «أزبك» الأتابكى فى سنة ٨٨٠ هجرية / ١٤٧٦م ، عندما عمّر المنطقة التى حملت اسمه بعد ذلك حتى اليوم (الأزبكية) . وكانت المنطقة خراباً ، فأحضر الثيران والمحارث لكى يزيل منها الأكوام الطينية والرملية ، وحفر بها البركة التى توسطت المنطقة ، وجعلها تستمد مياهها من

الخليج الناصري زمن الفيضان . ومع مرور الزمن تطورت المنطقة حتى صارت فى سنة ٩٠١ هجرية منطقة من أجمل مناطق القاهرة «.. وصارت مدينة على انفرادها...» على حد تعبير المؤرخ ابن إياس^(١٠٧) . وقد وصفها عدد من الزوار الذين زاروا القاهرة فى ذلك العصر وبعده . وقال جاستون فبيت واصفاً المنطقة إن حتى الأزبكية من أمتع أحياء القاهرة ، وكثيرا ما أعجب به الرحالة . وكان قبل ذلك مجرد سهل ملحي تتخله بعض الكثبان والأكوام ، حيث كانت تنمو بعض أشجار التمرحنة والصمغ العربى . وكان خاليًا مهجورًا عندما قرر الأمير أزيك أن يبني فيه حظيرة للجمال التى يملكها ، ثم خطرت له فكرة إنشاء منزل له فى الموقع ؛ فبنى عددًا من الغرف وردة للاستقبال ومقصورة . ثم تطورت الفكرة فى ذهنه وجلب عددا من الشيران والمحارث لإزالة الكيمان والكثبان التى كانت فى الموقع وحفر بركة أحاطها بمنتره... وسرعان ما حذا حذوه أثريا ، أهل القاهرة ، وأخذوا فى بناء بيوت فخمة هناك ، وأقبل الناس على الإقامة هناك وبقي حتى الأزبكية قائما فى القاهرة حتى اليوم على الرغم من أنه تدهور كثيرا وتغيرت ملامحه بشكل سلبى الآن .

الميم أنه عندما كان النيل يبلغ حد الوفاء وتتدفق مياه الفيضان فى الخليج الناصري كان يتم فتح الخليج أثناء الاحتفال بوفاء النيل ويتم فتح الخليج الناصري رسميا (كما سنرى فى السطور القادمة عند الكلام عن الاحتفال بوفاء النيل) وبفيض الماء إلى بركة الأزبكية فى احتفال كبير يحضره كبار الأمراء . وقدم لنا بعض الرحالة وصفا لبركة الأزبكية «... وهى عبارة عن سهل يقع فى تجريف على شكل صدفة بحرية تحيط بها من كل مكان المنازل الفاخرة .. وليس هناك منظر أكثر جمالا من هذه الأرض التى تكون حوضًا كبيرا يمتلئ بالماء لمدة ثمانية أشهر فى السنة ، ويصبح حديقة مشرقة طوال الأشهر الأربعة الأخرى ؛ ففي شهر سبتمبر يستطيع المرء أن يركب قاربًا فيها ، وفى شهر أبريل تتحول إلى أرض خضراء تغطيها الأزهار . وعندما تغمرها مياه الفيضان تسير فيها قوارب شراعية مذهبة يركبها أفراد من عليية القوم فى المساء . وعلى شواطئ البركة ، يزدحم جمهور كبير من الناس الذين يلتمسون الهواء العليل والراحة بعيدا عن حرارة الشمس ، عندما ينحسر الماء تتزين الأرض بجمالها الطبيعى ؛ فترى بها أشجار النخيل والتمرحنة ، وأنواعا شتى من الخضروات والفواكه التى تكون جميعا أجمل منظر يمكن تصويره . هذه حدائق مسحورة حقا فهى تنبت فى المكان ذاته الذى كانت تسير فيه القوارب قبل ذلك بأشهر قليلة...»^(١٠٨) .

وسنحاول فى الصفحات القليلة القادمة أن نتعرف على جانب مهم ومشوق من جوانب الحياة اليومية المصرية فى عصر سلاطين المماليك ؛ وهو الاحتفالات والأعياد التى كانت كثيرة ومتنوعة منها ما هو دينى ومنها ما كان مصرياً بصفة عامة ، ومنها ما كان دينياً يخص المسيحيين أو اليهود ، ومنها ما يمكن وصفه بأنها احتفالات شعبية . ولأننى تناولت هذه الأعياد والاحتفالات كلها فى دراسة سابقة لى ، فإننى سوف أكتفى بمجرد الإشارة إلى أهمها ، اللهم إلا إذا كانت هناك معلومات أخرى لم أكن قد ذكرتها فى الدراسة التى أشرت لها .

كان أول الاحتفالات يدور حول شهر رمضان الذى يبدأ باستطلاع هلال الشهر . وقد شهد الرجال ابن بطوطة الاحتفال برؤية الهلال فى مدينة أبيار بالقرب من المحلة الكبرى من الغربية فى مصر . وهم يسمّون هذا اليوم يوم «الركبة» . وعند ثبوت الرؤية كان أهل الحوانيت يوقدون الشموع لتنير حوانيتهم^(١٠٨) . وفى تصورى أن كلمات ابن بطوطة فى وصف ذلك الاحتفال يمكن أن تصدق على الاحتفالات فى المدن المصرية كلها فى ذلك الزمان . وفى شهر رمضان كانت الحياة تتخذ شكلاً مختلفاً عنها فى بقية شهور السنة سواء من حيث ازدهار الأسواق ورواجها أو من حيث الاحتفال بصلاة التراويح والحياة التى تدب فى جميع مظاهر الحياة المصرية ، أو من حيث وجود المسحراتى الذى كان يتولّى تنبيه الناس وإيقاظهم لتناول السحور ، أو من حيث البهجة العامة التى تكتسبها الحياة عموماً فى شهر الصوم^(١٠٩) .

كذلك كان الناس يحتفلون بعيد الفطر بعد نهاية صيام شهر رمضان ؛ فكان البعض يسهرون ليلة العيد لتجهيز ملابسهم الجديدة ، وبعد صلاة العيد يتبادلون التهاني وأطباق كعك العيد مع جيرانهم وأقاربهم وأصدقائهم . وكان من المعتاد تناول الوجبة الأولى بعد الصيام من السمك المملح الذى كان يلقى فى الزيت بعد أن ينقع فى ماء طوال الليلة السابقة حتى يقللون درجة ملوحته . وفى تلك الأيام كانوا يتبادلون الهدايا من الحلوى والتماثيل السكرية^(١١٠) .

أمّا فى عيد الأضحى ، فكان الناس يجهزون الأضاحى منذ الليلة السابقة على العيد . وكان البعض يشترون اللحم من الجزارين ويطبخون منه عدة أصناف ثم يقومون بزيارة المقابر وبعد عودتهم يزورون الأهل والأصدقاء^(١١١) .

وكانت هناك احتفالات أخرى للمسلمين وللمسيحيين واليهود وغيرها من الاحتفالات آنذاك ،

ولكننا نكتفى بأن نشير لهذه الدراسة التى قدمناها فى كتبنا «عصر سلاطين المماليك - التاريخ السياسى والاجتماعى» .

ولكن الاحتفال بدوران المحمل كان من أهم الاحتفالات التى تقام فى ذلك الحين ، استعداداً لسفر قافلة الحجاج من مصر واقتراب موسم الحج والسفر إلى الأراضى الحجازية . وكان دوران المحمل مرتين فى العام يحرص المصريون على المشاركة فيهما : كانت المرة الأولى فى شهر رجب وتسمى «الرجبية» ، وكانت الثانية فى شهر شوال . وفى رجب يطوف المنادون بشوارع القاهرة والفسطاط ينادون فى الأسواق لتنبية من يريد الحج ويعلمون الناس بموعد دوران المحمل قبل موعدة بثلاثة أيام . ويقوم أصحاب الحوانيت أثناءها بتزيين أماكنهم فى طريق المحمل . وكانت الكسوة التى ستوضع على الكعبة مزينة بخيوط من الذهب والفضة ، وتوضع على جمل مزين . وتبيت النسوة والأطفال فى الطريق الذى سيمر به الموكب ويدفعون المال حتى يضمنون لأنفسهم مكاناً لمشاهدة المحمل ، وأمام جمل المحمل الذى يكون موكبه يوم الاثنين أو يوم الخميس ، تركض كوكبة من الفرسان بملابسهم الزاهية وأسلحتهم البراقة وستعرضون مهاراتهم ، وفى الموكب مجموعة من صغار المماليك (الرماحة) يقومون ببعض الألعاب البهلوانية وهم وقوف فوق ظهور الخيل .. ويمضى الموكب حتى ميدان الرميطة أمام القلعة ويتكرر الاحتفال مرة أخرى فى شهر شوال^(١١٣) .

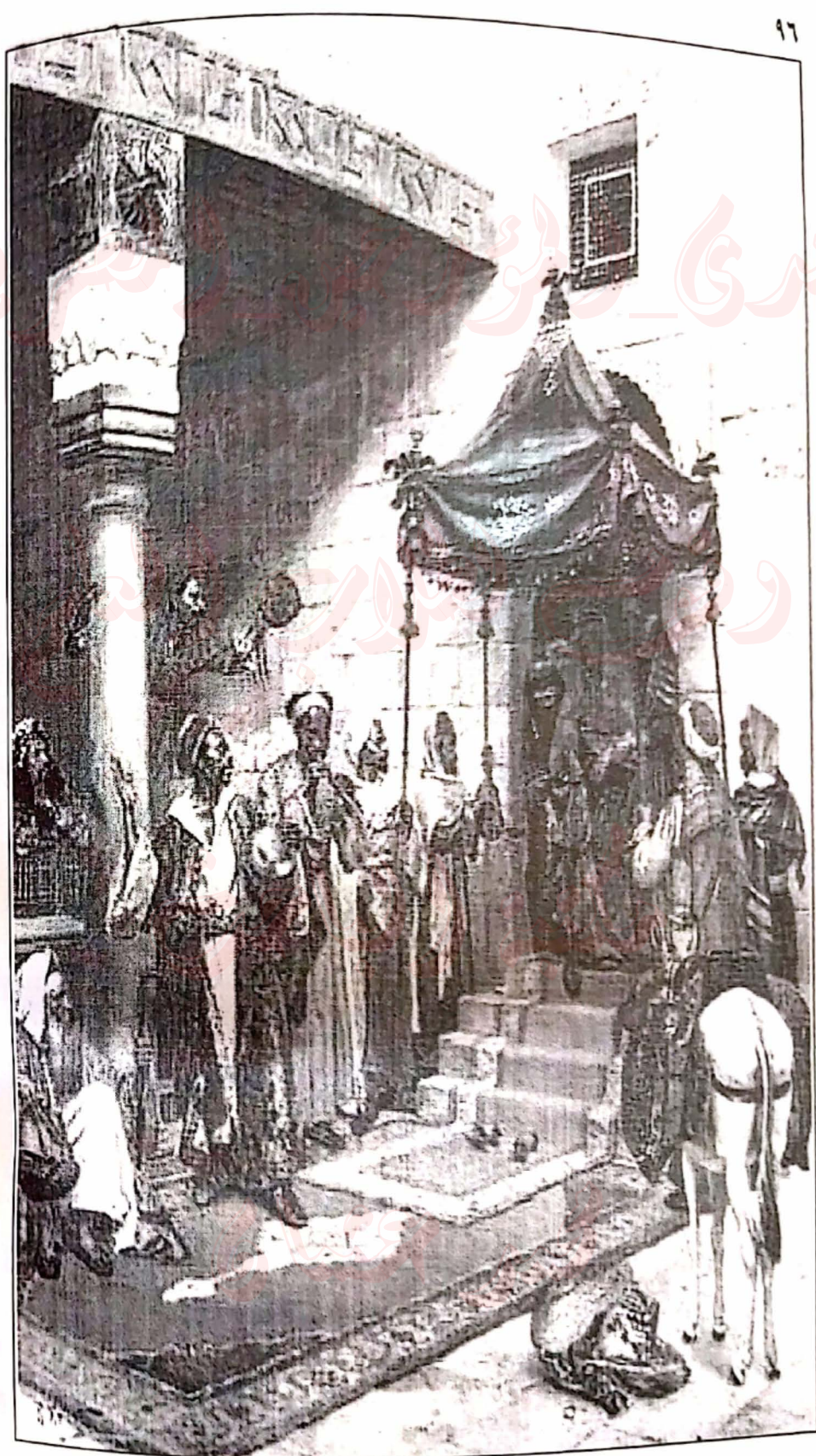
وكان الاحتفال بوفاء النيل من الاحتفالات العامة التى اهتم بها وشارك فيها كل أهل مصر ، وكان الاحتفال يبدأ بتعليق «الستر الخليفى» على الشباك الكبير فى الجهة الشرقية من دار المقياس . وتصير تلك الليلة من اللبالي البهيجة فى القاهرة والفسطاط ، فقد كانت تضاء بعدد هائل من الشموع والقناديل التى تحول ليل القاهرة إلى نهار من كثرة الأضواء .. ثم يحضر القراء الذين يتناوبون قراءة القرآن الكريم فى دار المقياس طوال الليل . ويأتى بعدهم المغنون والمنشدون الذين يتناوبون الغناء والإنشاد فى تلك الليلة . وفى صباح اليوم التالى تعد مائدة حافلة بأنواع الطعام والفاكهة والحلوى يحضرها السلطان أو من ينوب عنه^(١١٤) . بعدها يبدأ الاحتفال بنزول السلطان أو من ينوب عنه ، وفى خدمته كبار الأمراء ، ويركبون المراكب المزينة بالأعلام والشارات الزاهية ، وتطلق النفوط (الألعاب النارية) من المراكب حتى يصل الموكب النهري إلى دار المقياس ، ويعطى السلطان إشارة بالإذن إلى مسئول المقياس ؛ فيلقى بنفسه فى فسقية

المقياس بكامل ملابسه ثم يدهن عمود المقياس بالعطر (او يخلقه) وينتهى الاحتفال بتوزيع الخلع والتشريف ويركب السلطان المركب السلطانية التى تسمى «الذعبية» لكسر الخليج الناصرى ، وبدأ جمع من العمال فى إزالة السد الترابى حتى يندفع الماء فى الخليج جاريا (١١٠) .. وقد وصف ليو الأفريقى (الحسن الوزان) وغيره الاحتفال ، الذى كان الناس على اختلاف طبقاتهم يشاركون فيه ، ويسهمون فى المرح الصاخب الذى كان يسود القاهرة طوال ذلك اليوم .

تلك كانت بعض أهم ملامح الحياة اليومية فى المدن المصرية فى عصر سلاطين المماليك ، حاولنا رسمها من خلال المصادر التاريخية المتاحة ، سواء ما كان منها عاديا أو ما كان يبعث على السرور والبهجة ، أو ما كان غير هذا وذاك . ويبقى أن نناقش الحياة فى الريف فى ذلك العصر، وهو موضوع الفصل التالى .

* * *

مكتبة الباحث



زفة العروس

هوامش الفصل الثانى

- (١) ابن الأخوة ، مغالمة القرية فى أحكام الحسبة ، ص ٤٧-٤٨ .
- (٢) قاسم عبده قاسم ، الأسواق المصرية فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٤٤-٥٢ .
- (٣) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ؛ ابن الحاج ، المدخل ، ج ٤ ، ص ١٧٠-١٧٥ .
- (٤) ابن دقماق ، الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، ج ٤ ، ص ٤١-٤٦ ؛ المقرئى الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .
- (٥) ابن الأخوة ، المرجع السابق ، ص ٤٩ ، ص ١٦٥-١٦٠ .
- (٦) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٥ .
- (٧) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٨٧ .
- (٨) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٤ ؛ ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ٧٩-٨٠ ؛ بيرو طافور ، ص ٧٧-٧٨ .

(9) Ashtor, The Numbers of Jews, pp.2-3, 8-9 .

(10) Goitein, Jewish Society, Goitein, Med. Society.vol 3 p. 60 .

(11) Ashtor , The Number, pp. 22-23.

- (١٢) ابن الأخوة ، المرجع السابق ، ص ٢٢٤-٢٢٥ .
- (١٣) السبكى ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٩٤ .
- (١٤) ابن الأخوة ، المرجع السابق ، ٢٢٤ .
- (١٥) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ .
- (١٦) ابن الأخوة ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ .
- (١٧) ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ٤١ ؛ المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .
- (١٨) قاسم ، عصر سلاطين المماليك ، ص ٣١٢-٣٤١ .

(١٩) المقرئى ، المخطوط (طبعة أمين فؤاد) ج ٣ ، ص ٣١٥-٣٤٥ .

(٢٠) قاسم عبده قاسم ، اليهود فى مصر ، ص ١٠١-١٠٤ .

(٢١) طافور ، ص ٧٢ .

(٢٢) ابن حجر ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ . حوادث سنة ٨٠٤ هجرية فى عهد فرج بن برقوق ، وكان سبب ذلك أنهم عبروا بالقبيل قنطرة فانخفت به وعجزوا عن تخلصه فصار معلقا حتى رموه بالسهم ثم قتلوه ليخلصوه من عذابه .

(٢٣) جاستون فييت ، القاهرة ، ص ٩١ .

(٢٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٤٠-٦٤٢ .

(٢٥) عبد الله بن محمد العياشى ، الرحلة العياشية ، (طبعة فاس ١٣٦ هجرية) ج ١ ، ص ١٥٥ .

(٢٦) جاستون فييت ، القاهرة ، ص ٩١ .

(٢٧) انظر الفصل الأول من هذه الدراسة .

(٢٨) جاستون فييت ، المرجع السابق ، ص ٩٢ .

(٢٩) آن وولف ، كم تبعد القاهرة ؟ ص ١٨٠-١٨٢ .

(٣٠) نفسه ، ص ٢٠٠ .

(٣١) نفسه .

(٣٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ٦٩٧ . ويذكر المقرئى أن الأمر تكرر سنة ٧٤٨ هجرية ؛ ابن تغرى بردى ،

النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٢٣-١٢٤ .

(٣٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧١٣ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ٤٥٣ .

(٣٤) ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٥٢ .

(٣٥) ابن دقماق ، ج ٤ ، ص ١٣ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٣٦) الفلشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٣٧) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ٣ ، ص ١٣٧ .

(٣٨) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٨ .

(٣٩) نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٣٤ .

(٤٠) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ٣ ، ص ١٧٧ .

(٤١) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٤٢) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، صفحات ٢٤٦ ، ٢٦٨ ، ٢٨٣ - ٢٩٠ .

(٤٣) المقرئ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٩ .

(٤٤) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ .

(٤٥) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٤٦) المقرئ ، ج ٢ ، ص ٢٩ : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٤٧) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٣٥ - ص ١٣٦ : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٤٨) نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٦٣ .

(٤٩) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٤٦ .

(٥٠) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٥١) نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٥٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ٣ ، ص ٣٩٩ .

(٥٣) المقرئ ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٤١٧ - ص ٤٢٤ .

(٥٤) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٠ .

(٥٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٥٦ .

(٥٦) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٤٩ - ص ٦٥٠ .

(٥٧) نفسه ، ج ١ ، ص ٥٥٣ .

(٥٨) نفسه ، ج ١ ، ص ٥٧٨ .

(٥٩) ابن عبد الظاهر ، سيرة السلطان الظاهر بيبرس ، ص ١٧٦ .

(٦٠) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

(٦١) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٣١ - ص ٦٤٣ .

(٦٢) العيني ، عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٣٨٦ : المقرئ ، ج ١ ، ص ٥٢١ . وقد ذكر المقرئ إن الدار التي كانت بها الغازية الخنّاق ، هدمت بعد موتها وبني مكانها مسجد عرف بمسجد الخنّاق . انظر أيضا : النوري ، نهاية الأرب ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

(٦٣) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٦٤) نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٦٥) نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٠٠ .

(٦٦) إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٦١ : ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٢٨ .

(٦٧) نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٤٩ - ص ٦٥٠ .

(٦٨) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٦١ - ص ٣٦٤ .

(٦٩) ابن تغري بردي ، حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ٤١١ .

(٧٠) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٧١) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

(٧٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٠٠ .

(٧٣) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٨٩ .

(٧٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٦٧٢ - ص ٦٧٣ .

(٧٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٦٨٩ .

(٧٦) ابن الصيرفي ، إنباء الهصر ، ص ٢٦١ .

(٧٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٤٤ .

(٧٨) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٢٩ - ص ٢٣٤ .

(٧٩) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣١٩ .

(٨٠) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٥٤٠ - ص ٥٤٣ : ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ١٢٩ :

ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٦٩ - ص ٣٧٠ .

(٨١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ - ص ٣٥٩ .

(٨٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٨٢ .

(٨٣) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٨٣ .

(٨٤) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ٣ ، ص ١٤٤ : المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٣٠ .

(٨٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٩ - ص ٤٠ .

(٨٦) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٨٩ .

(٨٧) نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٥٤ - ص ٤٥٩ .

(٨٨) ابن أبيك الدوادار ، كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٣٤٨ .

(٨٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٩٠) نفسه ، ج ١ ، ص ٨٨ - ص ٨٩ .

(٩١) السخاوى ، التبر المسبوك ، ج ٢ ، ص ١٦٧ - ص ١٦٨ .

(٩٢) المقرئى السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٢٩ : ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٤٠٣ .

(٩٣) ابن حجر ، غنبا الغمر ، ج ٣ ، ص ٣٩٩ .

(٩٤) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٢٠ - ص ٩٢٣ .

(٩٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١١٩ .

{٩٦} نفسه ، ج ٣ ، ص ١٢٠ .

{٩٧} ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٨٩ .

{٩٨} ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

{٩٩} النورى ، نهاية الأرب ، ج ٢ ، ص ١١٤ : المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٣٥ : العينى ، عقد

الجمان ، ج ١ ، ص ٤١٠ .

{١٠٠} المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢١٦ - ص ٢٢٠ : ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١ ، ص ٦٣ - ص ٧٩ .

{١٠١} ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٢١ : ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ١٦٦ .

{١٠٢} المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٩٠١ .

{١٠٣} نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

{١٠٤} نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

{١٠٥} المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٨٤ .

{١٠٦} ابن أبيك الدوادار ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، ص ١٠٠ - ص ١٠١ : المقرئى ، السلوك ،

ج ١ ، ص ٦٤٢ - ٦٤٤ .

{١٠٧} العينى ، عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

{١٠٨} ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٠٢ .

{١٠٩} ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١١٨ .

{١١٠} جاستون نبيت ، القاهرة ، ص ٩٤ - ٩٥ : آن رولف ، كم تبعد القاهرة ، ٢٠٠ - ٢٠١ .

{١١١} فاسم عصر سلاطين المالك ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ : ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ -

٢٨٨ .

{١١٢} المقرئى ، المخطط ، ج ٢ ، ص ٩٨ : ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

(١١٣) القلقشندی ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٥١٢-٥١٣ ؛ الكتبی ، مباهی فکر و مناهی العبر ، ج ١ ، ص ٨٦ ؛ السيوطی ، حسن المحاضرة ج ٢ ، ص ٧٠٣ ؛ ابن تغری بردی ، حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ٣٧٨ ؛ ابن شاهین الظاهری ، زیة كشف المالك ، ٨٧ .

(١١٤) ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ١١-١١٥ .

(١١٥) القلقشندی ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٥١٢-٥١٣ ؛ ابن تغری بردی ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٢٢٣ .

دفتر مطالعات العالم

إهداء من مكتبة الباحث محمد عثمان
عفی الله عنه وعن والديه

مكتبة الباحث
محمد عثمان

إهداء من مكتبة الباحث محمد عثمان

الفصل الثالث

الحياة فى الريف

مدخل - السام مصر - الفيضان ومناسيبه - رى الميادين
طريقة الزراعة - منشآت ضبط النهر - أهم المحاصيل - البساتين
وأشجار الفاكهة - الحرف والصناعات فى الريف - الثروة الحيوانية
والداجنة - تربية الكتاكيت - أسواق الريف والمولد - نقل منتجات
الريف إلى أسواق الاستهلاك - المراكب - سكان القرية - الطعام -
بيوت الفلاحين - الحياة الاجتماعية - المسئولون فى الريف - فائى
القرية - تدهور الريف وأسبابه ونتائجه.

الحضارة المصرية القديمة ، فى كل العصور ، حضارة نهربية قامت فى أصلها على نهر النيل . فمن المعروف أن وادى النيل فى شطره المصرى تكوين رسوبى من الطمى الذى كان النهر يحمله كل سنة فى فيضانه السنوى من فوق جبال الحبشة إلى الوادى فى شطره المصرى ؛ مما كَوَّن هذه الواحة الفيضية الخصيبة فى الركن الشمالى الشرقى من قارة أفريقيا التى تحمها الصحراء من الشرق . وفى هذه البقعة من الأرض قامت الحضارة المصرية القديمة على ما بهجس به النيل من مياه ، وعلى الأرض والمياه قامت الزراعة ، وبسببها وبفضلها ، عرف المصريون كيف يروىون الدهر العظيم ، وكيف يزرعون صفاته بحقولهم وبساتينهم وقراهم ومدنهم ، وتعلموا العلوم التى تدعون بها كل هذا ، من علم الرياضيات والهندسة التى ساعدتهم فى ضبط النهر ومياهه ، وتفسير طرق الزراعة وأساليبها . كما تعلموا الفلك والعلب ، ثم عرفوا كيف يقيمون الدولة والقانون ، ويصممون ديارهم ، ويعبؤون عن هذا كله فى فنونهم وأدابهم . وفى هذا كله لم تكن الحضارة المصرية تفلد أو تنقل عن غيرها ، وإنما كانت حضارة رائدة تعلمت منها الحضارات اللاحقة . وكان طبعها أن تقوم حياة المصريين القدماء على الزراعة التى صارت طوال عصور التاريخ ، وما تزال حتى الآن ، مصفاً للحياة فى مصر . فقد قامت حياة البلاد وماكنها على ثلاثة تدكون أضلاعها من الأرض والدهر من ناحية ، والفلاح الذى يمدل لخاله السدكان من ناحية أخرى .

كانت الحياة فى الريف المصرى محكومة على الدوام بإيقاع التفاعل بين ثالث الأرض والنهر والفلاح. وعلى الرغم من كل التغيرات التى جرت على مصر على امتداد تاريخها ، وفى الفترات المختلفة من هذا التاريخ ، ظل ثالث الأرض والنهر والفلاح يحكم الحياة المصرية فى كل العصور. ولم يكن عصر سلاطين المماليك استثناء فى ذلك بطبيعة الحال . إذ كانت الزراعة الحرفة الرئيسية لأهل الريف ، وهم الأغلبية السائدة بين المصريين فى كل عصر من عصور التاريخ المصرى الضارب فى أعماق الزمان . وعاش الفلاحون فى قراهم التى انتشرت على شكل مروحة فى الدلتا ، أو الوجه البحرى ، أو فى القرى الممتدة على طول النهر من جريانه عند النوبة وأسوان فى الجنوب ، أو الوجه القبلى ، إلى أن يصل إلى مصبه فى البحر المتوسط من خلال فروعه التى لم يبق منها سوى فرعين عند دمياط ورشيد .

ويقول المؤرخ "تقى الدين المقرئى" فى كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" إن الأمر فى مصر استقر على قسمين : الوجه البحرى والوجه القبلى ، وقد قسّمت الأرض جميعها على ستة وعشرين عملا الشرقية ، والمراحية ، والدقهلية ، والإبوانية ، وثمر دمياط .

أما الوجه البحرى ، فيضم : جزيرة قوسا ، والغربية ، والسمنودية ، والدنجاية ، والمنوفية ، والنسراوية ، وفوة ، والمزاحمتين ، وجزيرة بنى نصر ، والبحيرة ، واسكندرية وضواحيها ، وحوف رميس .

والوجه القبلى ، فيضم : الجزيرة ، والإطفيحية ، والبوصيرية ، والفيومية ، والبهنساوية ، والأشمونين ، والمنفلوطية ، والأسبوطية ، والإخميمية ، والقوصية .

وقد كانت جميع قرى مصر فى بداية عصر سلاطين المماليك حسبما ذكر مؤرخنا الكبير ألفين وثلاثمائة وخمسة وتسعين ^(١) . وقد عاش الفلاحون فى هذه القرى ، بالوجهين القبلى والبحرى ، يمارسون حرفتهم التى مارسوها منذ آلاف السنين ويقوا يشكلون الضلع الثالث من ثالث الأرض والمياه والفلاح الذى بقيت الإشارة إليه . ولم يكن السواد الأعظم من المصريين يعرفون لهم حرفة ومعاشاً فى بلادهم التى كان النيل فيها يمثل مدار حياتهم وعصب وجودها غير الزراعة ، وبسببها ومن أجلها ، تعلموا هندسة الري وأساليب الزراعة ، ودرسوا مواعيد الفيضان وابتكروا وسائل

صيانة النهر والتحكم فى مياهه عن طريق الترع والقنوات التى شقوها فى الأجزاء المختلفة من البلاد ، كما درسوا الفلك وارتبطوا بالتقويم الشمسى الذى يناسب الزراعة .

كانت الحرفة الرئيسية بالريف المصرى الزراعة بطبيعة الحال كما ذكرنا . وكانت الزراعة ترتبط بالمياه والأرض وعمل الفلاح : فإذا كانت المياه يأتى بها نهر النيل من منابعه فى أفريقيا ويجدد عطاءه بالفيضان السنوى الذى تزيد فيه المياه التى تحمل الطمي المجدد لخصوبة الأرض ، فقد كانت الأرض تتطلب أنماطاً من العمل يقوم بها الإنسان للقيام بأعمال الري والزراعة ، حتى تتم عملية التفاعل الثلاثى التى سبقت الإشارة إليها . وكانت بشائر الفيضان تأتى مع زيادة النيل فى شهر بؤونة من الشهور القبطية وتستمر طوال شهرى أبيب ومسرى من كل سنة ^(١) وهو ما يقابل شهر أغسطس فى بداية الفيضان ويستمر طوال شهرى سبتمبر وأكتوبر . ومنذ أيام قدماء المصريين سارت الزراعة وفقاً للتقويم الشمسى وارتبطت بالفيضان ؛ وهو ما جعل الفلاح المصرى يعتمد على التقويم القبطى الشمسى الموروث عن قدماء المصريين فى الزراعة حتى الآن . وقد لاحظ المؤرخ الكبير "تقى الدين أحمد بن على المقرزى" ، أن مدة الفيضان تمتد حوالى ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوماً منذ بداية الفيضان عندما كانوا يلاحظون بدايته عند أسوان ^(٢) ، تكون فى أثنائها مياه الفيضان وقد غمرت الأرض الزراعية كلها وصار التنقل بين القرى المصرية صعباً غير ميسور سوى عن طريق القوارب أو فوق ظهور الجواميس ، على حين كان الانتقال بين سائر أنحاء البلاد يتم على الجسور الترابية .

كان النيل قوام الحياة المصرية دائماً ، ولذلك كان المصريون يرقبون الفيضان سنوا بمزيج من الشوق والقلق . فإذا جاء الفيضان مناسباً ، احتفلوا بالفيضان فيما كانوا يطلقون عليه "وفاء النيل" . وكان منسوب الفيضان الذى يعتبر مناسباً فى بداية عصر سلاطين المماليك ، عندما يرتفع النهر بعد بداية الفيضان إلى ست عشرة ذراعاً فى مجرى النهر، المنسوب الذى تصح عنده زراعة الأرض ، وكان بلوغ منسوب مياه النهر ست عشرة ذراعاً علامة وفاء النهر . وعندها كان يجب أخذ الحراج من الفلاحين ولهذا كانوا يسمون علامة الست عشرة ذراعاً "ماء السلطان" . ولكننا يجب أن نلاحظ أن ذلك المنسوب لم يعد كافياً لرى كل الأرض الزراعية فى أواخر عصر سلاطين المماليك ؛ بسبب إهمال وسائل صيانة مرافق الري من قنوات ومصارف وترع ، أو تطهيرها أو

أعمال صيانة السدود ، وغيرها من الأعمال اللازمة للزراعة ؛ مما أدى إلى ارتفاع منسوب الأراضي على ضفتى نهر النيل ، وتراكم الطمي والرمال فى الترع والقنوات وانسدادهما أحيانا من جراء إهمال المسؤولين عن أعمال صيانة النهر ومرافق الري ؛ بحيث لم تعد بعض الأراضي البعيدة عن مجرى نهر النيل تروى بسهولة ، أو بصعوبة ، حتى إذا بلغ ارتفاع مياه الفيضان منسوب العشرين ذراعاً^(١) .

ومن المهم أن نلاحظ أنه عندما كان يجبىء موسم الفيضان، كان يتم توزيع مياه النهر على الأراضي الزراعية فى مصر كلها ؛ بما تحويه من حقول وساتين ومزارع ، فى أربع مراحل متتالية:

١- المرحلة الأولى ، عند بلوغ الفيضان ست عشرة ذراعاً ؛ وفيها كان يتم فتح خليج القاهرة (ثم الخليج الناصرى الذى حفره الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥ هجرية) لرى الأراضي القريبة من نهر النيل . ٢- وبعدها تأتى المرحلة الثانية ، فى يوم النوروز أى بداية السنة القبطية والاحتفال الذى كان يعقد بمناسبة بداية السنة الجديدة بشكل صاحب أخاذ . وفى هذه المرحلة كانت تفتح السدود التى عرفت فى مصطلح ذلك العصر باسم "النيروزية" ، لرى المزيد من الأراضي الزراعية.

٣- وبعد ذلك تأتى المرحلة الثالثة ، بعد سبعة عشر يوماً من المرحلة الثانية ، لرى المزيد من الأراضي الأكثر بعداً عن مجرى النهر . ٤- وفى المرحلة الرابعة والأخيرة ، كان يتم فتح بقية السدود ، ويستكمل رى الأراضي الزراعية^(٢) .

وعندما كان يتم فتح جميع السدود بعد المرحلة الرابعة ، كان الماء يغطى وجه الأرض فتبدو فى ذلك الحين مثل بحر حقيقى تكون القرى فيه مثل جزر منعزلة لا يمكن الوصول إليها سوى بواسطة القوارب ، أو على ظهور الجواميس ، أو فوق الجسور الترابية الممتدة بين أجزاء البلاد المختلفة فى الدلتا والوجه البحرى وفى الصعيد^(٣) . وكان الرى يتم بهذه الطريقة البسيطة حينما كان يتم غمر جميع الأراضي الزراعية بمياه الفيضان فيما يعرف باسم "رى الحياض" ؛ وهى الطريقة التى ظلت سائدة فى مصر حتى القرن العشرين عندما بنى خزان أسوان ، ثم بنى السد العالى لتحويل الرى من طريقة "رى الحياض" إلى طريقة الرى الدائم التى تسير عليها عمليات الرى والزراعة فى مصر حالياً .

أما الزراعة نفسها ، فكانت عملية بسيطة وبدائية فى ظل طريقة رى الحياض التى كانت

الأكثر شيوعاً حتى بنى محمد على عددًا من القناطر أشهرها "القناطر الخيرية" فى القرن التاسع عشر ؛ ثم كان بناء "خزان أسوان" فى النصف الأول من القرن العشرين ؛ ثم "السد العالى" الذى بناه جمال عبد الناصر فى النصف الثانى من القرن العشرين . وكان رى الحياض يقوم على غمر الأراضى كلها بمياه الفيضان فترة من الزمن ، ثم تفتح المصارف لتصريف المياه الزائدة عن حاجة الأرض بعد فترة معلومة تكون فى أثنائها قد تشبعت بالمياه ، وبعدها لا يرى المرء سوى مساحات من الأرض الطينية السوداء على مرمى البصر ؛ وقد تشبعت بالمياه التى تحمل الطمى الذى تحمله مياه الفيضان من فوق جبال الحبشة ليجدد خصوبتها . ويقوم الفلاحون بحرث الأرض وهى مازالت رطبة بحيث يرمون البذور فيها ، وتتم الزراعة بهذه الطريقة البدائية البسيطة بعد إلقاء البذور فيها^(٧) . ولكن هذا لايعنى أنه لم تكن هناك أراض تروى رياً دائماً فى مصر كلها ؛ وإنما كانت هناك بعض الأراضى التى تروى رياً دائماً بسبب قربها من المجرى الرئيسى لنهر النيل ، أو الترع والخلجان النيلية ، أو فرعى النيل عند دمياط ورشيد . وقد ذكر "بيلوتى الكرىتى" ، الذى زار مصر فى القرن الخامس عشر ، وعاش فيها فترة من الزمن وكان على علاقة طيبة بالسلطان فرج بن برقوق ، أنه كانت هناك أراضى مناطق كثيرة فى الدلتا تروى بواسطة ألف ساقية ترفع المياه لرى الحقول ، وقال إن الدلتا كانت مصدر تموين القاهرة بحاجاتها من الخضروات والفاكهة والبقول، علاوة على المنتجات الأخرى مثل منتجات الحيوان ومنتجات الألبان كما يأتى فى السطور القادمة^(٨) .

وبعد جنى المحاصيل كانت الأرض تظل جافة خالية ، وتشقق التربة فيما عرفه الفلاحون باسم "الشراقى" ، فى انتظار الفيضان الجديد^{كما} . أما نظام الزراعة نفسه الذى كان الفلاح يقوم به فقد كان محكوماً بالظروف السائدة فى ظل النظام الإقطاعى ، الذى ورثه سلاطين المماليك عن الدولة الأيوبية ، ثم طوره وأدخلوا عليه المزيد من التعديلات مع مرور الزمن ، فقد قامت الزراعة فى كثير من الأحيان على أساس ما سُمى "المقاسمة" ؛ وهو نوع من المشاركة فى استغلال الأرض الزراعية بين صاحب الإقطاع والفلاح . وقد تراوح نظام "المقاسمة" هذا ما بين المناصفة ، أى يكون نصف المحصول مشاركة بين المقطع والفلاح ، أو تقسيم آخر يختلف باختلاف خصوبة الأرض ، أو نوعية الجهد الذى يتطلبه العمل بها؛ فقد كان الفلاح فى بعض الأحيان يحصل على الثلث ، أو الربع ، أو الخمس ، أو السدس ، لقاء عمله طوال السنة فى الأرض . وكان الفلاح يأخذ نصيبه

بشهادة شهود يتناولون أجراً عن شهادتهم (كما ذكرنا فى الفصل السابق) ويدفع أجر الشهود صاحب الإقطاع والفلاح سويًا ^(١١) .

وكان الفلاح يحصل على التقاوى التى يريد زراعتها من الشؤن السلطانية وفق نظام كان يسمى "التقاوى السلطانية" التى كانت موجودة فى جميع مناطق الريف ، وكان عليه أن يردها بعد جمع المحصول إلى هذه الشؤن السلطانية. وظل العمل ساريًا بهذا النظام بانتظام حتى ما بعد "الروك الناصرى" (عملية تعديل مساحات الأرض الزراعية المقسمة إلى إقطاعات أى فك وتعديل زمام القرى والنواحي ، أو مساحة الأرض الزراعية لكل قرية ، أو زمامها) . وقد نسب الروك الناصرى إلى "السلطان الناصر محمد بن قلاوون" . وترتب على ذلك الروك توزيع الإقطاعات فى عدة مناطق بعد أن كانت مركزة لكل أمير فى منطقة واحدة ؛ وهكذا تمكن "السلطان محمد بن قلاوون" من السيطرة على أمرائه حقًا ؛ ولكن نتائج هذه السياسة جاءت سلبية وغاية فى الخطورة على المدى الطويل . فقد أدت إلى توزيع الإقطاع فى عدة نواحي ، كما ساعدت على التلاعب فى النواحي المالية ؛ فضلا عن تدهور القرى وانهيار إنتاجية الأرض الزراعية ^(١٢) ولم بعد حائز الإقطاعات حريصين على تحسين أرضهم خوفا من أن يستولى السلطان على الإقطاع أو يعطيه لأمر آخر من الأمراء . ومن ثم ، لم تعد التقاوى السلطانية موجودة ومتاحة للفلاح حتى يستخدمها فى زراعة المحاصيل الجديدة ، ولكنها اختفت لعدة أسباب لا يتسع المقام لذكرها فى هذه الدراسة . وتفاقم الحال مع التدهور العام الذى ألمّ بالبلاد فى الشطر الثانى من عصر سلاطين المماليك ، وتعيّن على الفلاح أن يقوم بتخزين جزء من المحصول يتخذ منه التقاوى فى الموسم القادم ^(١٣) .

وكان من الضرورى إقامة المنشآت الخاصة بضبط النهر والتحكم فى مياهه ، وعدم ترك مياه النهر للظروف ؛ إذا فاض فأغرق ، أو إذا غاض فأعطش" . كما كان من المهم صيانة مرافق الري ، وكانت الجسور أولى المنشآت المهمة خاصة ما سُمى "الجسور السلطانية" التى يعمّ نفعها جميع أنحاء البلاد ، والمفروض أن تتم صيانتها من الديوان السلطانى . وكانت هناك مبالغ مالية مقررّة على كل بلد لشراء الأبقار والجراريف التى يجرف بها التراب لإقامة الجسور ^(١٤) . وكانت الدولة مسنولة عن إقامة الجسور وصيانتها ، ويعيّن السلطان فى كل سنة واحدًا من كبار الأمراء فى كل ناحية مهتمته بصيانة الجسور وترميم ما يكون قد تهدم جزء منها أو تهدمت كلها ،

ويحمل لقب "كاشف الجسور" أحيانا ولقب "كاشف التراب" أحيانا أخرى^(١٣) بيد أنه كانت هناك نوعية أخرى من الجسور يقوم الأهالي بإنشائها وصيانتها من أموالهم حرصا على زراعاتهم تسمى "الجسور البلدية". وتعددت وظائف المسئولين عن الريف المصرى ومنشآت صيانة النهر من الترع والجسور ، أو غيرها من منشآت الري . ولا يتسع المجال للتوسع فى الحديث عن رجال الإدارة وإنما نقصر حديثنا حول تأثيرهم فى حياة الفلاحين^(١٤).

على أية حال ، من المهم أن نعرض لأهم المحاصيل التى كان الفلاح يزرعها آنذاك . ولسنا بصدد حصر المحاصيل الزراعية التى عرفتتها مصر فى ذلك العصر ، ولكننا نشير فقط إلى أن الفلاح كان ينتج ما تحتاجه البلاد من الغذاء إلى جانب ما وفرته مياه النيل ومياه البحر الأحمر والبحر المتوسط والبحيرات الداخلية من الأسماك ؛ فضلا عن الثروة الحيوانية والداجنة التى كانت متوفرة فى المناطق الريفية فى ذلك الزمان . وكان الفلاح يقوم بتربية بعضها ، بينما كان بعض أصحاب الإقطاعات يملكون قطعانا كبيرة من الماشية والحيوانات .

كان القمح أهم المحاصيل التى تزرع آنذاك بطبيعة الحال ، فالقمح يصنع منه الخبز أهم المواد الغذائية عند الأغلبية الساحقة من المصريين فى الريف وفى المدينة على حد سواء (ومن الأمور ذات الدلالة أن المصريين حتى الآن يسمون الخبز اسم "العيش" ، مما يدل على مدى أهميته فى الحياة المصرية) . وذكر المقرئى مواعيد زراعة القمح وتحديث عن إنتاج الأرض من هذا المحصول وكيفية اعتماد ذلك على مدى جودة الأرض ، أو عدم جودتها . وكان القمح تجود زراعته فى الصعيد وفى منفلوط بوجه خاص . وتشير المصادر التاريخية إلى أن القمح كان يجلب من الصعيد دائما ، خاصة فى أوقات الشدة والأزمات الاقتصادية ونقص الغلال . وكذلك كان الشعير يزرع فى الوجه القبلى بعد زراعة القمح . كما كانت من المحاصيل المعروفة آنذاك : الفول ، والعدس ، والحمص ، والحلبة ، والثوم ، والبصل ، والتمرس ، والبرسيم ؛ فضلا عن الكتان الذى قال المقرئى إنه كان يقلع قصباناً ، فإذا جف ، حمل وهدر ، وعزلت ثماره التى أسماها جوزة ، يستخرج منه بذر الكتان ، ويؤخذ منه الزيت الحار . وكان الكتان يزرع فى إقليم الفيوم والوجه القبلى بكميات كثيرة^(١٥) . كذلك كان الفلاح المصرى يزرع البطيخ ، واللوبيا ، والسهم ، والقطن ، والأرز الذى كان يزرع بصفة خاصة فى إقليم الفيوم وشمال الدلتا ؛ بسبب وفرة المياه اللازمة لزراعة الأرز فى هذه المناطق . كذلك كانت تزرع فى المناطق الريفية كافة أنواع الخضروات : مثل

القلناس، والباذنجان، والبامية، والملوخية، والخس، والجزر، والكرنب، والقرنبيط، والقرع، والخيار، والقثاء، واللفت، والكرات، والفجل الذى تصلح زراعته طوال العام. كذلك كانت زراعة القصب من أهم المزروعات التى اهتم بها الفلاح المصرى خاصة فى الصعيد حيث تجود زراعة قصب السكر، وتنتشر معاصر قصب السكر فى جميع أنحاء الصعيد، كما سنوضح فى السطور القادمة. وحين تخرج أوراق القصب، كانت تزرع الحلفاء والبقلة الحمقاء التى يسميها أهل مصر، "الرجلة"، كما ذكر أن القلقاس كان يزرع فى وقت زراعة القصب^(١١).

ومن جهة ثانية، انتشرت البساتين التى تحمل كافة أنواع أشجار الفاكهة فى جميع أنحاء البلاد. وكان نخيل البلح مزروعاً بكثافة فى الوجه القبلى بصفة عامة، وفى منطقة أسوان والنوبة بصفة خاصة، مع أنه كان يزرع بوفرة فى الوجه البحرى أيضاً. وقد اختلفت أنواع البلح الذى ينتجه نخيل الوجه البحرى عن تلك التى كان ينتجها نخيل الوجه القبلى، بسبب أحوال التربة واختلاف الظروف المناخية فى كل من الوجهين. أما الفواكه الأخرى، فكان منها: العنب، والتين، والرمان، والخوخ، والمشمش، والبرقوق، والتفاح، والكمثرى، واللوز، والنبق، والموز^(١٢). الذى اشتهرت به دمياط فى ذلك العصر وكانت ترسل منه كميات كبيرة إلى القاهرة كما ذكرنا فى الفصل الثانى من هذه الدراسة.

وقد كانت الفواكه ترد من جميع أنحاء مصر إلى المدن الكبرى، وكان ما يأتى منها إلى القاهرة يوضع فى "دار التفاح" التى كانت السوق المركزية فى القاهرة فى ذلك الوقت؛ ومنها توزع على الأسواق الصغيرة فى القاهرة والفسطاط، وتوزع على دكاكين الفاكهيين الموجودة فيهما^(١٣). وكان البعض يورد الفاكهة إلى المدن المصرية الأخرى بشكل مباشر من مناطق إنتاجها

ولم تكن الحياة فى الريف المصرى قاصرة على الفلاحة وأعمال الزراعة بطبيعة الحال، وإنما كانت هناك بعض الصناعات التحويلية البسيطة القائمة على ما تنتجه البيئة الزراعية فى الوجه القبلى وفى الوجه البحرى على السواء. كذلك كانت هناك بعض الصناعات اليدوية البسيطة لتلبية حاجات المستهلكين فى المدن وفى الريف أيضاً. وقد تنوعت الحرف والصناعات فى الريف المصرى آنذاك ما بين الصناعات الغذائية وصناعة المنسوجات، وما بينهما من صناعات وحرف أخرى بسيطة أو كبيرة.



جنى محصول قصب السكر



الحياة فى الريف

كأما الحرف والصناعات التى وجدت فى الريف المصرى حينئذ ؛ فكانت تقوم على المنتجات الزراعية التى يجرى تحويلها أو استخدام خاماتها فى الصناعات اليدوية التى عرفها الريف المصرى^{١١٤}. فعلى قصب السكر قامت صناعات بسيطة مثل السكر ، والعسل الأسود ، والحلوى . وكانت معاصر السكر منتشرة فى الصعيد ؛ مدنه وقراه ؛ لأن "دواليب السكر" (وهو الاسم الذى كانوا يطلقه المعاصرون على معاصر السكر فى ذلك الحين) كان ينشئها المقطعون وغيرهم من الأثرياء ، فى بلاد الصعيد ، وسط حقول القصب أو بالقرب منها^(١١٥) . وكان العمل موسميًا فى معاصر السكر لأنه كان مرتبطًا بموسم نضج محصول القصب وجنيه . وقد ذكر "ابن بطوطة" أنه مَرَّ ببلدة منلوى (ملوى) فى شمال الصعيد "... وهى مدينة صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل... وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر... "^(١١٦) . ويبدو من كلام المؤرخين المعاصرين أن الصناعة التى قامت على قصب السكر كانت رائجة ومزدهرة على الأقل فى الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك فقد كانت معاصر السكر موجودة فى جميع أنحاء البلاد ، ولم تكن وقفًا على الصعيد فقط لأن السكر كان ، وما يزال ، من المواد الغذائية المهمة .

كذلك انتشرت صناعة المنسوجات فى مدن مصر وقراها بالوجه البحرى والوجه القبلى على السواء ؛ إذ قامت صناعة المنسوجات من التيل أو الكتان فى كثير من المدن والقرى فى المناطق الريفية . فقد كان الكتان يزرع ويتم نسجه فى الوجه القبلى وفى الفيوم بكميات كبيرة . ولم تكن هناك مصانع غزل ونسيج بالمعنى المعروف حاليا ، وإنما كانت هذه الصناعة اليدوية تتم على أنوال بسيطة يمكن أن توجد فى البيوت . وربما اشتغلت بعض النسوة فى الريف المصرى بهذه الصناعة اليدوية . وقد ذكر المقرئزى أسماء المناطق والمدن والقرى القريبة التى اشتهرت بصناعة الغزل والنسيج ، ومنها "شطا" قرب تنيس ودمياط ، وقال إن كسوة الكعبة كانت تصنع بشطا قبل عصر سلاطين المماليك ، كما تحدث عن دبيق والبهنسا وغيرها^(١١٧) . كذلك تحدث "ابن بطوطة" عن الثياب التى كانت تصنع فى إقليم الغربية بالوجه البحرى و الثياب الصوف الجيدة التى كانت تصنع فى البهنسا بالوجه القبلى وغيرها .

كذلك قامت بعض الحرف اليدوية البسيطة على استغلال ما هو موجود من معطيات البيئة الزراعية ؛ فمن النخيل ، مثلاً ، كانت تصنع الأقفاص ، والقفاف ، وحبال الليف ، والمكاس

المصنوعة اليدوية من ليف النخيل أو من عراجين البلح الجافة. كما كانت بعض أنواع الحبال تصنع من الكتان^(٢٢). كذلك كانت صناعة الحصير من الصناعات البدوية الشائعة فى الريف المصرى وتقوم على بعض النبات الذى يصلح لعمل الحصير ، وكانت الحصر تستخدم لغرض أرضيات البيوت، والمساجد ، كما كانت تستخدم أحياناً لتغطية السقائف فى الأسواق لحماية البضائع من أشعة الشمس وحرارتها^(٢٣). وفى بلاد الصعيد الأعلى ، مثل قنا وأسوان وما جاورهما ، اشتهرت صناعة الأوانى الفخارية التى امتازت بنوع الطمى الذى تصنع منه مثل القلل والأزمار، وما شابه ذلك^(٢٤).

من ناحية أخرى ، لعبت الثروة الحيوانية ، والثروة الداجنة ، دوراً رئيسياً فى الاقتصاد الريفى بمصر فى عصر سلاطين المماليك . ولم يكن غالبية الفلاحين يمتلكون من الحيوانات قطعاناً كبيرة، أو حتى صغيرة ، وربما كانت الأسرة فى أكثر الأحيان تمتلك حيواناً واحداً من حيوانات الحقل للمساعدة فى العمل الفلاحي ؛ فقد تمتلك الأسرة جاموسة تساعد فى العمل ، ويستفنون بلبنها وفى إنتاج اللبن والزبد وغيرها من منتجات الألبان . ويستغلون روثها فى تسميد الأرض وفى توفير الوقود فى الأفران البدائية فى بيوت الفلاحين . وقد يمتلك الفلاح وأسرته بعض الماشية والحيوانات المنزلية الصغيرة مثل الأرانب أو الطيور مثل الأوز، والبط ، والدجاج ، والحمام وغيره. وكان يبيع بعضها ، وما تنتجه من البيض . ومع ذلك كان السواد الأعظم من الفلاحين أجراً، لا يمتلكون شيئاً من هذه الحيوانات أو الدواجن . ولكن أثرياء الريف من أصحاب الإقطاعات وغيرهم كانوا يمتلكون قطعاناً من الماشية والأغنام والماعز تتفاوت أعدادها بين القلة والكثرة التى قد تصل إلى المئات^(٢٥).

وقد تحدث بعض الرحالة الأوربيين ، الذين زاروا مصر فى ذلك الوقت ، برنة استغراب وإعجاب، عن المفارخ التى كانت مخصصة لتفريخ الكتاكيت فى جميع أنحاء الريف المصرى. وفى تلك المفارخ ، كان البيض "يفقس بدون أية مساعدة من الدجاج" حسب تعبير أحدهم . وقد ذكر الطبيب الباريسى "بيير بيلون" أنه "... حول الريف المنبسط فى الدلتا كانت تنتشر بنايات غريبة، ذات قباب مدببة لتربية الدجاج ، وكانت هى نفسها التى كانت تستخدم منذ أيام الفراعنة...". ولاحظ "بيير بيلون" أن الفلاحين بدلاً من أن يضعوا البيض تحت جناحي الدجاجة ، كانوا يضعونه فى أفران مغطاة بروث البهائم المأخوذ من الزرائب ؛ وهو روث البقر والماشية والماعز

مختلطا بالثش. ويوجد فى تلك المفرخات هذا الخليط ويتم تزويده على فترات لتنظيم الحرارة. وكان يمكن تسخين ما قد يصل إلى ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف بيضة سويا يجلبها القرويون المحليون ليتم تسخينها بهذه الطريقة لإنتاج الكتاكيت^(٢٦). وبأخذ الفلاح نسبة من ناتج الفرائج أو ربما يكون قد باع البيض لصاحب المفرخة من الأصل.

وقد شاهد "بيلوتى الكرىتى" الفلاحين الذين يعملون بمهنة التفريخ فى منطقة مصر القديمة، وهم ينادون على بضاعتهم بصوت عال لمن يريد شراء الكتاكيت التى فقسّت لبيعها ؛ وقد رأى أحد أصحاب المفرخات فى مصر القديمة ، وهو يتجول ببضاعته على زبائنه . ومن المناظر التى كانت مألوفة فى ذلك الحين ، منظر صاحب المفرخة الذى يسوق الكتاكيت أمامه كما لو كان يسوق قطيعا من الماشية على طول الشوارع المزدحمة بعد أن ينزل بها إلى القاهرة لبيعها ، وقد تبعثرت الكتاكيت فى الشوارع بين أقدام المشاة وحوافر الحيوانات ، وبين الفينة والأخرى كان صاحب المفرخة يعود إلى تجمعها بصعوبة شديدة فى وسط الطريق . وكانت الكتاكيت تباع بالوزن وليس بالعدد ويتم تعبئتها فى الأقفاص المكسّسة وقد برزت أرجلها الصغيرة من بين جريد الأقفاص فى جميع الزوايا . ومن المشاهد التى كانت مألوفة أيضا آنذاك منظر بائع الكتاكيت وهو يبيع بضاعته للنسوة عند أبواب بيوتهن^(٢٧) (وقد شاهدت هذا المشهد كثيرا فى الأحياء الشعبية من القاهرة فى القرن العشرين ولست أدري ما إذا كان ما يزال موجودا فى الريف حتى الآن أم لا) وقال جاستون فييت ، فى كتابه عن القاهرة ، وهو يتحدث عن مشاهدات الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر آنذاك ، والذين كتبوا عن إنتاج الكتاكيت أن البائع كان يضع هذه الكتاكيت فى مكبال خاص بلا قاع ، تكال به الكميات المراد بيعها ثم توضع فى سلة المشتري ، ثم يملأ الصاع بالكتاكيت ويعدّها يرفع الصاع ملئته من جديد^(٢٨).

ومن المعلوم للمتخصصين فى تاريخ عصر سلاطين المماليك أن السلطات المملوكية كانت تفرض ضريبة على الدجاج عرفت باسم "مقرر الفرائج"، تفرض أحيانا ، ثم يتم إلغاؤها لتعود وتفرض من جديد وكانت تلك الضريبة من بين الضرائب التى ألغها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ولكن الضريبة لم تلبث أن فرضت مرة أخرى .

كانت تلك الطريقة التى استرعت انتباه الكثيرين من الزوار الأوربيين الذين زاروا مصر فى تلك

الأوقات أشهر وسائل تربية الدواجن فى الريف ، وبيعها فى الأسواق بالقاهرة والفسطاط وغيرها ، وقد استلقت أنظار الكثيرين من الأوربيين ، الذين رأوا فى هذا شيئا غربيا لم يعرفوه فى بلادهم . وليست هناك وسائل مشابهة ذكرتها المصادر التاريخية التى لدينا كانت تستخدم لتربية الأوز والبط أو الحمام ، ويغلب على الظن أنه كانت تتم تربيتها بالطريقة المعروفة حتى اليوم .

أما الماشية من الأغنام والماعز والبقر والجاموس ، فكانت تربي فى المراعى التى تقلص عددها كثيرا فى عصر سلاطين المماليك ، وصارت بعد ذلك تتغذى على البرسيم بصفة رئيسية . وكان البرسيم لا يتوفر سوى فى موسمه . ومن ثم كان التبن من أهم أنواع الغذاء البديل الذى تأكله الحيوانات من الأبقار والجاموس والماشية ، وكان يتخلف عن موسم جمع القمح بعد عملية الدراس وغيرها . كذلك كانت هناك مواد أخرى تتغذى عليها الحيوانات الماشية والأغنام منها النخالة وقشر قصب السكر الذى يتخلف عن بقايا موسم جنى قصب السكر ^(٢٩) . ومن هذه الماشية بأنواعها كانت تتوفر اللحوم المطلوبة لاستهلاك الناس فى المدن الكبرى ، وكانت ترد إلى القاهرة عن طريق المراكب ، وأسوقا على أقدامها إذا كانت قادمة من بلد قريب من القاهرة

والى جانب الثروة الحيوانية والدواجن ، كانت هناك مناحل كثيرة لاستخراج عسل النحل منتشرة فى كل مناطق الريف وتنتج عسل النحل الذى كان الناس يقبلون عليه إقبالا كبيرا . وكانت هناك مناطق اشتهرت بإنتاج عسل النحل ، مثل منطقة بنها التى كان اسمها فى ذلك العصر "بنها العسل" ^(٣٠) .

كانت تلك أهم الخطوط العريضة للإنتاج الزراعى، والمنتجات اليدوية الصناعية فى الريف المصرى فى ذلك العصر ، وكذلك الثروة الحيوانية ، والثروة الداجنة بشكل عام . ويفرض السؤال نفسه عن الوسيلة والكيفية التى كان يتم بها تسويق منتجات الريف ؛ سواء ما كان منها من صنع الإنسان ، أو ما كان من صنع الطبيعة .

كانت الأسواق المكان الطبيعى لتصريف منتجات الريف ؛ أيًا كانت طبيعتها . بيد أن الأسواق فى الريف كانت مختلفة تماما عن أسواق القاهرة والمدن الكبرى ، سواء فى شكلها أو مساحاتها ، أو طبيعة وظائفها من جهة ، ولم تكن فى القرى أسواق متخصصة ، مناظرة لأسواق القاهرة والفسطاط من جهة ثانية ، ومن حيث أن معظم قرى الريف المصرى كانت بها أسواق تعقد فى

أحد أيام الأسبوع بصفة دورية فى قرية معينة من جهة ثالثة ، وكانت تلك النوعية من الأسواق فى الريف تقوم بتوفير ما يحتاجه سكان الريف من مواد استهلاكية^{٣١١} . أما الغذاء فلم يكن يباع فى مثل تلك الأسواق ولكنه كان يوجد فى البيوت . ويمكن أن نأخذ مثلاً على ذلك ما ذكره المقرئ عن الجيزة وسوقها الأسبوعى : فقد قال " .. اعلم أن الجيزة اسم لقرية كبيرة ، جميلة النيان على النيل من الجانب الغربى ، تجاه مدينة الفسطاط لها فى كل يوم أحد سوق عظيم يجىء إليه من النواحي أصناف كثيرة جداً ، ويجتمع فيه عالم عظيم ، وبها عدة مساجد جامعة .. " (٣١١) .

وقد قال الرحالة "ابن بطوطة" يصف رحلته على فوق صفحة مياه نهر النيل " .. ومن هذه المدينة (سمنود) ركب النيل مصعداً إلى مصر ، ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض ، ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد .. والأسواق متصلة من مدينة الأسكندرية إلى مصر ، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد .. " (٣١٢) . هذا الوصف الموجز البليغ الذى قدمه ابن بطوطة يدلنا على أن مناطق الريف كان بها من الأسواق ما يقدم لكل مسافر فوق صفحة نهر النيل حاجته من المواد الغذائية أو غيرها . ولسنا نعرف ما إذا كانت بالقرى أسواق من عدمه ؛ بيد أننى أعتقد أن القرى لم يكن يوجد بها أسواق دائمة ، وربما كان ببعضها حانوت أو أكثر . ولكن بعض المدن الإقليمية الكبيرة كانت بها أسواق تتناسب مع مساحاتها وعدد سكانها ، وكان توفر للقرويين حاجتهم من المواد الضرورية فى الوقت نفسه .

كانت هناك فى الريف أسواق مؤقتة بمناسبة "الموالد" التى كانت تقام احتفالاً بمولد أحد الأولياء ، الذين كانوا محل تبجيل واحترام من الفلاحين وغيرهم . وكان رواد هذه الموالد من أبناء الريف ويشكلون الزبائن الذين يبيع لهم التجار والباعة فى هذه الأسواق كل ما كانوا يحتاجون إليه من أنواع البضائع والسلع المختلفة كبيرها وصغيرها : من الأثاث والمفروشات حتى الطعام والحلوى؛ وهى الأسواق التى كانت تقام فى جميع أنحاء الريف المصرى وكان بها ما تحتاجه بيوت الريف المصرى فى القرى من بضائع وحاجات ، وما يحتاجه من يَمرون بهذه القرى من المسافرين لأى سبب من الأسباب ؛ سواء من المواد الغذائية أو غيرها وكانت النساء والرجال هم الزبائن الذين يشترون من جميع البضائع المعروضة فى أسواق الموالد المؤقتة سواء كانت من البضائع الكبيرة المعمرة ، أو غيرها من البضائع الاستهلاكية اليومية . وفى تلك المواد التى كانت تباع فى الدكاكين المؤقتة

التي كانت تقام على شكل السفائف أو الخيام وما شابهها ، وتعرض فيها كافة أنواع البضائع التي يرغب فيها رواد الموالد (٣٣) .

ولم تكن الموالد كلها قاصرة على المسلمين وحدهم ، ولكن كانت هناك موالد القديسين المسيحيين أيضاً . ومن أمثلة الموالد الإسلامية ، مولد إسماعيل الإمبابي الذي كان يقام بناحية إمبابة من الجزيرة حالياً . وكانت تعرف في ذلك الحين باسم "إنبوية" أو "إنبابة" . وكان يحضره عدد كبير من سكان المناطق المجاورة الذين كانوا في الوقت نفسه زبائن السوق المؤقتة المقامة على هامش المولد ، وكان المولد يقام سنوياً في موعد معين . وقد حدث سنة ٧٩٠ هجرية ، في عهد السلطان برقوق ، أن أقيم ذلك المولد في مواعده المعتاد وكانت هناك أعداد ضخمة من الخيام المنصوبة في ذلك المكان " . . . وقد حضره من الخلق من لا يحصى عددهم " . . . ، وقد يصل عدد الخيام المنصوبة في مكان هذا المولد إلى خمسمائة خيمة في بعض الأحيان تقوم مقام السوق المؤقتة التي تتم فيها عمليات بيع وشراء مختلف البضائع والسلع التي يقوم بشرائها رواد المولد (٣٤) . وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية تحدثت عن المظاهر السلبية التي كانت تصحب ذلك المولد من تعاطي الخمر والحشيش ، والزنا واللواط ، وغير ذلك من مظاهر الفساد الأخلاقي التي أدانها المؤرخون المعاصرون ، فإن ما يهمنا في هذا المجال أن الأسواق كانت تقام على هامش تلك الموالد . ومن أمثلة الموالد المسيحية ، كان "عيد الشهيد" الذي يقام في اليوم الثامن من شهر بشنس من الشهور القبطية في كل سنة ، مناسبة مهمة عند المسيحيين المصريين ، ويقام في منطقة شبرا على أطراف القاهرة آنذاك . وكان مناسبة ذلك العيد أسطورة رائجة تقول إن أحد شهداء الأقباط إصبعة موجود في تابوت محفوظ بكنيسة في شبرا ، ولا يزيد نهر النيل في موسم الفيضان ، سوى بعد غسيل ذلك الإصبع في مياه النيل (٣٥) . وكان يخرج للاحتفال بهذه العيد عدد ضخم من الناس إلى شبرا على شاطئ النيل وفي الجزر الموجودة بالنيل ، ويجتمع فيه عدد ضخم من المغنين والموسيقيين ، وكل أصحاب الفنون التي تناسب مثل هذه الاحتفالات . وكل أصحاب الملعوب . وتستمر الاحتفالات بهذا اليوم ثلاثة أيام . وبغض النظر عن شكل الاحتفال ، وما كان يثيره من اعتراضات المتدينين ، وما كان يصحبه من مظاهر أخلاقية سلبية ، فإن السوق التي كانت تقام بمناسبة "عيد الشهيد" كانت تلقى رواجاً كبيراً ، وكفى أن نشير إلى أن مبيعات الخمر في ذلك المولد كانت تتجاوز ثلاثة آلاف دينار في ثلاث ليالى ، وكان فلاحو شبرا يعتمدون على

مبيعاتهم من الخمر فى ذلك المولد لدفع الأموال المقررة عليهم فى الخراج^(٣٦) . وقد أبطل السلطان "محمد بن قلاؤن" هذا المولد فى سنة ٧٠٢ هجرية ، ولكن السلطان نفسه أعاد الاحتفال به فى سنة ٧٣٨ هجرية ، تلبية لرغبة أحد أمرائه ، ثم ألغى الاحتفال "بعيد الشهيد" نهائياً سنة ٧٥٥ هجرية وهدمت الكنيسة التى كان بها ذلك التابوت الذى يوضع به الأصبع ، وأحرق التابوت الذى كان به الإصبع^(٣٧) .

فى هذين المثالين رأينا كيف كانت الموالد التى يقيمها المسلمون أو المسيحيون ، تستغل لإقامة الأسواق المؤقتة ، وكيفية رواج عمليات البيع والشراء فى تلك الأسواق المؤقتة ، وهو أمر كان يتكرر بالضرورة فى كل الموالد التى عرفتها القرى والمدن المصرية فى الريف آنذاك . ومن المهم أن نضع فى الحسبان أنه لو لم تكن تلك الأسواق الموجودة فى الموالد تلبى حاجة الريفيين المادية ، إلى جانب ما تؤديه الموالد نفسها من تلبية الحاجات الروحية لهم ، لما قامت تلك الأسواق على الإطلاق . وهو ما يدعم ما ذهبنا إليه من أن الأسواق لم تكن قائمة على الشكل التقليدى المعروف فى المدن أو القرى .

ومن المهم أن نشير إلى أن ظاهرة الموالد الريفية ، أو الموالد التى تقام فى المدن ، ومنها القاهرة والأسكندرية ؛ سواء كانت تقام احتفالاً للأولياء المسلمين أو للقديسين المسيحيين ، كانت تنتشر فى كل أنحاء البلاد المصرية ، بحيث كان لكل قرية من القرى ، الولي أو القديس الذى يحببها ويجلب لها البركة والخير حسب اعتقاد أهلها . وربما كانت تلك التقاليد استمراراً لظاهرة الآلهة المحلية فى مصر القديمة . ومن ثم كانت كل قرية سواء كان سكانها من المسلمين ، أو من المسيحيين ، تحرص على إقامة المولد الذى تحتفل به . ولم يكن الأمر قاصراً بطبيعة الحال على القرى وساكنيها ، فقد كانت المدن الكبرى لها أولياؤها أو قديسوها ؛ مثل طنطا السيد البدوي ، أو إبراهيم الدسوقي فى دسوق أو غيرهم من الأولياء ، كما اشتهر فى القاهرة مولد السيدة زينب ومولد الحسين . كذلك كانت هناك موالد خاصة بالقديسين المسيحيين مثل مار جرجس وغيره . وفى تلك الموالد كان الناس يشاركون بغض النظر عن دينهم ، وتروج عمليات التجارة والبيع والشراء التى كانت من أهم مظاهر النشاط الاقتصادى فى الريف المصرى فى ذلك الوقت .

بيد أن مظهرًا آخر مهمًا من مظاهر النشاط الاقتصادى فى الريف ، كان يتمثل فى بيع

منتجات الريف فى المدن الأخرى خاصة القاهرة والفسطاط ؛ إذ كانت منتجات الريف من الخضروات، والفواكه ، والبقول ومنتجات الألبان ، والطيور الداجنة ، واللحوم تباع فى أسواق العاصمة . وكانت هذه البضائع تنقل من أماكن الإنتاج لأسواق البيع وأماكن الاستهلاك بواسطة المراكب التى كانت وسيلة النقل الرئيسية للتجارة الداخلية فى مصر ؛ فقد كان النهر العظيم الطريق الرئيسى لنقل الناس والبضائع بين أنحاء البلاد المختلفة ؛ إذ كان النهر وسيلة مواصلات طبيعية لا نظير لها . وقد زاد من أهمية النقل النهري أن وادى النيل فى شطره المصرى عبارة عن شريط ضيق من الأرض الزراعية باستثناء الدلتا ؛ وهو ما يعنى أنه لم تكن هناك مشكلة فى الانتقال بين الشرق والغرب ، لأنها كانت مناطق صحراوية (الصحراء الشرقية والصحراء الغربية) غير مأهولة؛ ومن ثم لم تكن هناك حركة سفر كبيرة للناس والبضائع سوى فى ذلك الشريط المأهول بحذاء النهر ممتدًا من الجنوب إلى الشمال . وفى منطقة الدلتا لعب فرع دمياط وفرع رشيد ، والترع والقنوات الخارجة من نهر النيل ، الدور الرئيسى فى الربط بين أنحاء البلاد من ناحية ، ونقل الناس والبضائع من مكان لمكان آخر من ناحية أخرى . وعلى صفحة النهر سارت السفن النيلية والمراكب تحمل الغلال والماشية وكل أنواع البضائع الأخرى^(٢٨) ومن الواضح أن حركة الملاحة النهرية فوق مياه نهر النيل كانت كثيفة فى عصر سلاطين المماليك بحيث استرعت انتباه أحد المؤرخين المعاصرين فقال " ... ليس فى الدنيا نهر تجرى فيه السفن أكثر من نيل مصر .. " (٢٨).

وكتب "ابن بطوطة" فى سياق كلامه عن مصر التى أنبهر بها " .. بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألف مركب للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ، ومنحدرة إلى الأسكندرية ودمياط ، بأنواع الخيرات والمرافق .. " (٢٩) . وكانت السفن تبدو كالجبال ، وهى راسية بشاطئ النيل نظرًا لضخامتها ، وكانت حمولة بعض السفن تصل إلى ما يحمله خمسمائة بعير وأكثر^(٣٠) . وعلى جانبى الدلتا ، وفى مجرى النهر الرئيسى ، كانت المراكب تجرى بالآلاف محملة بالبضائع إلى القاهرة والفسطاط التى كانت السوق الرئيسية للاستهلاك ، فقد كانت السفن تحمل الغلال من الصعيد ولا سيما من منفلوط التى اشتهرت بجودة قمحها^(٣١) . وفى الصعيد ، كان الكتان ينتج بكميات كبيرة ، ويخرج فى بالات ضخمة ويتم شحنه بطريق نهر النيل إلى القاهرة ، ومنها يواصل رحلته إلى الأسكندرية حيث كان يصدر إلى بلاد المغرب وشمال أفريقيا وبلاد الشام^(٣٢) . وقد ذكر "بيلوتى الكرىتى" أن المراكب التى تحمل البضائع الآتية من الأسكندرية ورشيد ،

مبيعاتهم من الخمر في ذلك المولد لدفع الأموال المقررة عليهم في الخراج^(٣٦) . وقد أبطل السلطان "محمد بن قلاوون" هذا المولد في سنة ٧٠٢ هجرية ، ولكن السلطان نفسه أعاد الاحتفال به في سنة ٧٢٨ هجرية ، تلبية لرغبة أحد أمرائه ، ثم ألغى الاحتفال "بعيد الشهيد" نهائياً سنة ٧٥٥ هجرية وهدمت الكنيسة التي كان بها ذلك التابوت الذي يوضع به الأصبع ، وأحرق التابوت الذي كان به الإصبع^(٣٧) .

في هذين المثالين رأينا كيف كانت الموالد التي يقيمها المسلمون أو المسيحيون ، تستغل لإقامة الأسواق المؤقتة ، وكيفية رواج عمليات البيع والشراء في تلك الأسواق المؤقتة ، وهو أمر كان يتكرر بالضرورة في كل الموالد التي عرفتها القرى والمدن المصرية في الريف آنذاك . ومن المهم أن نضع في الحسبان أنه لو لم تكن تلك الأسواق الموجودة في الموالد تلبى حاجة الريفين المادية ، إلى جانب ما تؤدبه الموالد نفسها من تلبية الحاجات الروحية لهم ، لما قامت تلك الأسواق على الإطلاق . وهو ما يدعم ما ذهبنا إليه من أن الأسواق لم تكن قائمة على الشكل التقليدي المعروف في المدن أو القرى .

ومن المهم أن نشير إلى أن ظاهرة الموالد الريفية ، أو الموالد التي تقام في المدن ، ومنها القاهرة والأسكندرية ؛ سواء كانت تقام احتفالاً للأولياء المسلمين أو للقديسين المسيحيين ، كانت تنتشر في كل أنحاء البلاد المصرية ، بحيث كان لكل قرية من القرى ، الولي أو القديس الذي يحميها ويجلب لها البركة والخير حسب اعتقاد أهلها . وربما كانت تلك التقاليد استمراراً لظاهرة الآلهة المحلية في مصر القديمة . ومن ثم كانت كل قرية سواء كان سكانها من المسلمين ، أو من المسيحيين ، تحرص على إقامة المولد الذي تحتفل به . ولم يكن الأمر قاصراً بطبيعة الحال على القرى وساكنيها ، فقد كانت المدن الكبرى لها أولياؤها أو قديسوها ؛ مثل طنطا السيد البدوي ، أو إبراهيم الدسوقي في دسوق أو غيرهم من الأولياء ، كما اشتهر في القاهرة مولد السيدة زينب ومولد الحسين . كذلك كانت هناك موالد خاصة بالقديسين المسيحيين مثل مار جرجس وغيره . وفي تلك الموالد كان الناس يشاركون بغض النظر عن دينهم ، وتروج عمليات التجارة والبيع والشراء التي كانت من أهم مظاهر النشاط الاقتصادي في الريف المصري في ذلك الوقت .

بيد أن مظهراً آخر مهماً من مظاهر النشاط الاقتصادي في الريف ، كان يتمثل في بيع

منتجات الريف فى المدن الأخرى خاصة القاهرة والفسطاط ؛ إذ كانت منتجات الريف من الخضروات، والفواكه ، والبقول ومنتجات الألبان ، والطيور الداجنة ، واللحوم تباع فى أسواق العاصمة . وكانت هذه البضائع تنقل من أماكن الإنتاج لأسواق البيع وأماكن الاستهلاك بواسطة المراكب التى كانت وسيلة النقل الرئيسية للتجارة الداخلية فى مصر ؛ فقد كان النهر العظيم الطريق الرئيسى لنقل الناس والبضائع بين أنحاء البلاد المختلفة ؛ إذ كان النهر وسيلة مواصلات طبيعية لا نظير لها . وقد زاد من أهمية النقل النهري أن وادى النيل فى شطره المصرى عبارة عن شريط ضيق من الأرض الزراعية باستثناء الدلتا ؛ وهو ما يعنى أنه لم تكن هناك مشكلة فى الانتقال بين الشرق والغرب ، لأنها كانت مناطق صحراوية (الصحراء الشرقية والصحراء الغربية) غير مأهولة؛ ومن ثم لم تكن هناك حركة سفر كبيرة للناس والبضائع سوى فى ذلك الشريط المأهول بهذا . النهر ممتدًا من الجنوب إلى الشمال . وفى منطقة الدلتا لعب فرع دمياط وفرع رشيد ، والترع والقنوات الخارجة من نهر النيل ، الدور الرئيسى فى الربط بين أنحاء البلاد من ناحية ، ونقل الناس والبضائع من مكان لمكان آخر من ناحية أخرى . وعلى صفحة النهر سارت السفن النيلية والمراكب تحمل الغلال والماشية وكل أنواع البضائع الأخرى^(٣٨) ومن الواضح أن حركة الملاحة النهرية فوق مياه نهر النيل كانت كثيفة فى عصر سلاطين المماليك بحيث استرعت انتباه أحد المؤرخين المعاصرين فقال " ... ليس فى الدنيا نهر تجرى فيه السفن أكثر من نيل مصر .. " (٣٨) .

وكتب "ابن بطوطة" فى سياق كلامه عن مصر التى انبهر بها " .. بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألف مركب للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ، ومنحدرة إلى الأسكندرية ودمياط ، بأنواع الخيرات والمرافق .. " (٣٩) . وكانت السفن تبدو كالجبال ، وهى راسية بشاطئ النيل نظرًا لضخامتها ، وكانت حمولة بعض السفن تصل إلى ما يحمله خمسمائة بعبير وأكثر^(٤٠) . وعلى جانبي الدلتا ، وفى مجرى النهر الرئيسى ، كانت المراكب تجرى بالآلاف محملةً بالبضائع إلى القاهرة والفسطاط التى كانت السوق الرئيسية للاستهلاك ، فقد كانت السفن تحمل الغلال من الصعيد ولا سيما من منفلوط التى اشتهرت بجودة قمحها^(٤١) . وفى الصعيد ، كان الكتان ينتج بكميات كبيرة ، ويخرج فى بالات ضخمة ويتم شحنه بطريق نهر النيل إلى القاهرة ، ومنها يواصل رحلته إلى الأسكندرية حيث كان يصدر إلى بلاد المغرب وشمال أفريقيا وبلاد الشام^(٤٢) . وقد ذكر "بيلوتى الكريتى" أن المراكب التى تحمل البضائع الآتية من الأسكندرية ورشيد ،

ودمياط، كانت تجتمع عند بلدة "شطانوف" التي كانت تبعد عن القاهرة سبعة أميال فقط ، كما ذكر أن المراكب المحملة بالبضائع كانت تسير فى حركة دائبة طوال العام تحمل البضائع المنقولة من وإلى جميع أنحاء البلاد^(١٢) . كذلك تحدث بعض الرحالة الذين زاروا مدينة رشيد عن أن المراكبية كانوا يجذفون أو يسحبون القارب ذا القاع المسطح بالحبال عندما يكون القارب قد وصل لمنطقة يكون النهر ضحلًا فيها ، كما ذكر رحالة بندقى مجهول ، زار الصعيد فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى ، أن السفن كانت تتجمع عند مراسى عشوائية متناثرة على الشاطئ ، فى بعض المناطق على امتداد النيل فى الصعيد مرتين أو ثلاث مرات سنويا لتحميل الفرة الناضجة ، أو السكر ، أو الخضروات ، أو الكتان أو غيرها من المنتجات^(١٣) .

ولم تكن الفلال ، والخضروات ، ومنتجات الألبان ، والعسل ، والبقول تمثل كل مواد التجارة الداخلية التى تحملها المراكب فوق مياه النيل ، وإنما كانت هناك سلع أخرى مهمة للغاية تتمثل فى البقر والأغنام والجاموس التى كان الفلاحون يجلبونها إلى العاصمة وغيرها من المدن المصرية، نظرًا للطلب الذى لم يكن ينقطع على اللحوم بكل أصنافها ، ولأن سوق اللحوم كانت تزدهر بشكل خاص فى أيام عيد الأضحى وأيام المواسم^(١٤) . ومن ناحية أخرى ، كانت المراكب تنقل الطيور مثل الدجاج ، والبط ، والأوز والحمام ، والبيض ، ومنتجات الألبان من الزبد والجبن ، وغيرها من منتجات الريف للبيع فى أسواق العاصمة والمدن الأخرى . كما كان الفلاحون يجيئون إلى القاهرة لبيعوا التمر والحلوى المصنوعة من قصب السكر ومن العسل الأسود ، والزيت ، وجميع أنواع الخضروات^(١٥) .

كانت تلك الممارسات الاقتصادية التى يقوم بها القرويون أهم مظاهر النشاط الاقتصادى فى الريف المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، وغنى عن القول إننا نعرض فقط لأهم هذه الملامح من حيث علاقتها بالحياة اليومية فى الريف من دون أن ندخل فى تفاصيل الحياة الاقتصادية ، لأن ذلك موضوع بحث آخر . ومن ناحية أخرى ، أسهم الاقتصاد الريفى إسهامًا كبيرًا فى النشاط التجارى الداخلى للبلاد ، ولعب فيه النقل النهري الدور الأكبر والأهم ؛ نظرًا لأنه لم تكن هناك وسيلة نقل أخرى تستطيع منافسة النقل النهري ، سواء من حيث سهولته ، أو من حيث درجة الأمان التى كان يوفرها للناس وللبنائى المنقولة على متن المراكب . صحيح أن الجمال كانت

تستخدم فى نقل حمولات من بعض المنتجات الريفية ، وصحيح أيضا أن الجمال كانت تستخدم فى النقل البرى ، خاصة فى المناطق الواقعة على أطراف الصحراء فى الشرق أو الغرب ، ولكن الصحيح أيضا أن النقل النهري كان الوسيلة الأكثر شيوعا وأمانا فى الانتقال داخل الوادى وفى جميع أنحاء البلاد آنذاك .

ومن الطبيعى أنه كان هناك عدد من أبناء الريف قد امتنهنوا مهنة "المراكبية" ، وصارت مثل غيرها من المهن ، يتوارثها الأبناء عن الآباء بحكم طبيعة تلك العصور من ناحية ، وبحكم حاجة المجتمع الريفى لهذه المهنة وأربابها من ناحية أخرى . وكانت الدولة تنظم هذه المهنة : إذ كانت هناك ضريبة تفرض فى معظم الأحيان على المراكب تسمى "حماية المراكب " (وهى عبارة عن مبلغ يدفعه صاحب المركب سواء كان فقيرا أو غنيا) وقد ألغاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون ؛ ولكنها فرضت من جديد فى سنة ٨٩٦ هجرية . كذلك كان من المهم وجود رقابة على المراكب والسفن التى تبحر فوق مياه نهر النيل ، وكان لابد من مراعاة عدم تحميل المراكب أكثر من طاقتها حتى لا تتعرض للغرق بركابها أو البضائع التى تحملها . كما لم يكن مسموحا للسفن والمراكب بالسفر أثناء هبوب الريح حتى لا يتعرض الركاب أو ما تحمله المراكب من بضائع للخطر^(١٧) .

هكذا ، كانت أهم مظاهر النشاط الاقتصادى لأبناء الريف المصرى ، والمهن التى اشتغلوا بها إلى جانب الزراعة والفلاحة . ولكن ، كيف كانت تمشى الحياة الاجتماعية فى القرية فى ذلك الزمان ؟ وماذا كانت طبيعة العلاقات والتفاعلات بين الشرائح الاجتماعية المختلفة المكونة للبناء السكانى فى القرى ؟ وماذا كان شكل العلاقة بين ممثلى السلطة والفلاحين ؟ ثم ما العوامل التى كانت تؤدى إلى اختلال المنظومة الاجتماعية فى القرى آنذاك ؟

هذه الأسئلة وما قد يتفرع عنها بالضرورة من أسئلة فرعية ، ستكون موضوع السطور والصفحات التالية . بيد أننا يجب أن نضع فى حسابنا أن الحياة الاجتماعية فى الوجه البحرى كانت مختلفة بالضرورة عن الحياة الاجتماعية فى الوجه القبلى ؛ سواء فى عصر سلاطين المماليك أو فى غيره من العصور حتى الآن كما كانت التركيبة السكانية فى الصعيد تختلف حتما عن التركيبة السكانية فى قرى الدلتا والوجه البحرى بصفة عامة من ناحية أخرى . فضلا عن أن

صعوبة الحياة أو سهولتها كانت تختلف من قرية لأخرى حسب الأحوال السائدة فى هذه القرية أو تلك .

كان الفلاحون ، فى جميع العصور التاريخية التى مرّت على مصر ، هم الذين يشكلون عماد الكتلة السكانية فى الريف ، ولم يكن الأمر ليختلف فى عصر سلاطين المماليك بطبيعة الحال . وكان الفلاحون قسَمين : قسم يسمى "الفلاحون القرارية" ؛ أى الذين ولدوا فى القرية وعاشوا بها جيلاً بعد جيل (وهناك تفسير للمصطلح ساقه المؤرخ تقي الدين المقرئ فى الخطوط المقرئية بوضوح أن " الفلاحين القرارية" ، قبل عصر سلاطين المماليك كانوا هم الفلاحين الذين كانوا يعاملون معاملة الأتقان فيستقرون فى القرية ولايسمح لهم بالانتقال منها تحت أى ظرف من الظروف . ويبدو أن مدلول المصطلح كان قد تغير مع مرور الزمن ، ومع انتهاء القنية ، فبات يطلق على الفلاحين المستقرين فى القرية على مدى الأجيال ، وكانت الفئة الثانية هم "الفلاحون الطوارئ" ، الذين نزحوا من أماكن أخرى فى الريف لسبب أو لآخر وجاءوا إلى القرية ، ومع مرور الوقت واستقرارهم فى القرية يصبحون مثل القرويين "القرارية" ويعاملون معاملتهم القانونية نفسها ، ويدفعون ما يتقرر عليهم من الخراج^(٤٨) . وقد ميّز النابلسى فى كتابه عن إقليم الفيوم ، وهو يقوم بعملية إحصاء لسكان قرى إقليم الفيوم ، بين السكان الأصليين فى القرى هناك وبين من أسماهم "النازحين" الذين رحلوا عن القرية لأى سبب من الأسباب ، ومن أسماهم "المنتجعين" أى الذين وفدوا إلى القرية أو الطوارئ^(٤٩) .

على أية حال ، كان الفلاحون يشكلون السواد الأعظم من سكان القرية المصرية فى ذلك العصر . وكان هؤلاء هم الذين يحددون شكل الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الريف أيًا كانت ملامحها فى الوجه القبلى وفى الوجه البحرى .

وكانت هناك طائفة أخرى من السكان الريفيين ، هم "العربان المستفلحون" ؛ أى العربان الذين استقروا فى الريف ونبذوا حياة البداوة ، واتخذوا الزراعة معاشاً لهم ، كما اتخذوا الريف وقراًه سكناً ومقاماً . وكان أكثر تركز هؤلاء البدو المستفلحون فى قرى الفيوم والبحيرة وبعض مناطق الصعيد^(٥٠) . وقد كان للسلطان "الناصر محمد بن قلاوون" الفضل فى توطين عدد كبير من البدو والعربان لاستزراع الأراضي المستصلحة حول الخليج الناصرى الذى أنشاه سنة ٧٢٠ هجرية ،

وعمر المناطق على ضفتيه ^(٥١) . كما أن الأمير "يشبك الدوادار" وطُن بعض قبائل العريان الذين نقلهم من الصعيد إلى الضواحي خارج القاهرة ^(٥٢) . بيد أننا لا يجب أن ننسى أن أولئك العريان المستفلحون قد عاشوا على هامش الحياة الفلاحية ، وظلوا مرتبطين بأنسابهم البدوية ، وحافظوا على عاداتهم وتقاليدهم البدوية ، وفنونهم وأنماط ملابسهم ونوعية طعامهم ، ومن ناحية أخرى كانوا يتعالون على الفلاحين ولا يسمحون بزواج بناتهم من أبناء الفلاحين ، مهما علت أقدارهم الاجتماعية (وما تزال بعض أصداء هذا الموقف موجودة إلى الآن في بعض المناطق المصرية) . وقد عاش العريان المستفلحون على هامش الحياة الريفية في الغالب الأعم ، ولم يكن هناك من مظاهر حياتهم الاجتماعية سوى إقامتهم في القرى كما ذكر النابلسي . ومن اللافت للنظر أنهم كانوا ينضمون إلى بنى جلدتهم من العريان في حالات العصيان وإثارة المشكلات للسلطات الملكية التي أشارت إليها كثيرا مصادر ذلك العصر التاريخية .

أما طعام الفلاحين ، فقد كانوا يستمدونه من البيئة الريفية التي عاشوا بها ، كما حافظوا على نوعية الطعام البسيطة وطريقة إعداده التي لم تتغير على مرّ السنين . فقد كان طعام عامة الفلاحين بسيطا وما تنتجه الأرض في القرية : مثل البيسار (ما نسميه الآن البصارة) التي كانت تصنع من الفول المدشوش ، والملوخية الجافة ، والعدس أبو جبة ، والفول المدمس ، والخبيزة ، والويكة المصنوعة من البامية المجففة ، وكان فلاحو الوجه البحري يقبلون على أكل القلقاس في الشتاء بصفة خاصة ^(٥٣) . كما كانت هناك أنواع من الطعام الأكثر كلفة في بيوت أثرياء الريف مثل : "البليلة" التي لم تكن مثل البليلة التي نعرفها الآن ، وكانت تختلف في مكوناتها وطريقة عملها عنها ؛ فقد كان يضاف إليها الحمص والزيت . كذلك كانت تصنع "المفروكة" التي كانت عبارة عن الفطير الساخن الذي يوضع في الماء ويغمر بالحليب حتى يصير مثل الشريد ، ويصبح سهل الأكل لذيق الطعم ^(٥٤) . ومن البديهي أن موائد الأغنياء في الريف لم تكن تخلو من لحوم الحيوان مثل الجاموس والبقر ، أو الخراف والماعز ، أو الطيور الداجنة بكل أنواعها . وكانت فيها أنواع الطعام الأغنى في مكوناتها ، والأكثر حذقا في صناعتها .

كان الفلاحون العاديون يأكلون ما هو أبسط من ذلك كثيرا ؛ وكانوا يأكلون كل أنواع الخضروات والبقول التي تنتجها الحقول حولهم وإن لم يكن اللحم يدخل في طهيها سوى في القليل النادر ، وفي الأعياد والمناسبات السعيدة ، وكانوا يتناولون الخضروات الطازجة مثل الطماطم

والخيار والخس والرجلة ، كما كانوا يأكلون فى طعامهم المطبوخ مثل القرع والبامية . وكانوا يقبلون على أكل الفواكه الخفيفة مثل البطيخ والشمام بأنواعه الكثيرة^(٥٥) . وبطبيعة الحال كانت الأسماك النيلية على وجه الخصوص تدخل فى قائمة الطعام الريفية ، ولكنهم لم يتفننوا كثيرا فى إعداد الأسماك مثل سكان السواحل . وكانوا يحصلون على حاجتهم من الأسماك من نهر النيل والترع والخلجان والبحيرات الموجودة فى مناطق الوجه البحرى بوفرة ، كما كانوا يحصلون على الأسماك التى كانت توجد فى مياه الفيضان التى كانت تغمر الحقول طوال ما يقرب من شهر أربعة تكون فيها مياه الفيضان فوق الأرض قبل إعدادها للزراعة . كذلك كان هناك من أهل الريف من تخصصوا فى صيد الأسماك وبيعه لسكان القرى المختلفة . ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الفلاحين كانوا يأكلون السمك الطازج أو السمك المملح^(٥٦) (مثل الفسيخ والملوحة الذى كانوا يقبلون عليه كثيرا) وكان "سمك البورى" يملح وتعمل منه البطارخ مثل عادتهم التى ساروا عليها منذ عدة قرون فى مناطق شمال الدلتا لا سيما دمياط والمناطق المجاورة لها^(٥٧) كما كان السمك المملح يعمل أيضا فى مناطق الصعيد تحت مسميات مختلفة .

كان ذلك طعام الفلاحين عادة ، ولم يكن فيه قدر كثير من التنوع كما نلاحظ ، وغلب على إعدادة أبسط الطرق على نار الكانون التى كانت توقد من الأغصان الجافة أو روث البهائم الذى كان يجفف ويتم الاحتفاظ به لهذا الغرض أو الفرن المبنى من الطين والذى كان من الضرورات فى بيوت الفلاحين ويعدون فيه أنواع الخبز التى اختلفت من بلد لبلد آخر . ولم تكن اللحوم تدخل بيوت فقراء الفلاحين سوى فى الأعياد أو بعض الموالد والمناسبات عندما يوزع عليهم بعض الأغنيا ، تلك اللحوم .

ومن ناحية أخرى ، كانت بيوت الفلاحين بسيطة فى بنائها ومحتواها ، وفقيرة فى شكلها الخارجى ولا تكاد تحتوى على أى أثاث أو فرش فى الداخل . فقد كانت تبنى غالبا من الطوب اللبن ، وتسقف بالبوص أو أغصان الأشجار وجذوع النخيل المشقوق ، وقليل ما كانت الأسقف تعمل من عروق الحشب وتطلى بدخان جبىرى ، وغالبا ما كانت تبنى من دور واحد بدون طوابق أو سلالم . وكانت الدار تضم فرناً لخبز الخبز وطهو الطعام ، وفوق أسطح هذه البيوت كان يتم تخزين الأخشاب اللازمة للوقود من مخلفات الزراعة أو المصنوعة من روث الحيوانات المجفف . وكانت بيوت الأثرياء تتميز عن بيوت الفلاحين الفقراء من حيث أنها كانت تحتوى على أكثر من

غرفة، وكانت زريبة الماشية تبعد عن البيت قليلا ، ويوجد بها أثاث قد تختلف نوعيته حسب درجة ثراء صاحب البيت .

كانت حياة الفلاح اليومية تبدأ مع بزوغ الشمس بعد صلاة الفجر بالعمل فى الحقول حتى المساء أو الغروب ، وهو ما يتكرر يوميا . ولم يكن هناك ما يتيح للفلاح أن يتغيب لأى سبب بعيداً عن عمله اليومي وكانت فرصته فى التسلية فى الأمسيات . وربما أتاحت له فرصة الفرجة والتسلية فى حفلات زواج أقاربه أو جيرانه ، أو فى المولد الذى يقام فى قريته أو فى قرية مجاورة. ولكن أهم المناسبات التى كان الفلاح يجد فيها متعته وتسليته كانت فى شهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى ، أو المواسم ذات الطابع الدينى فى مناسبات ترتبط بالدين الإسلامى ؛ فقد كان الاحتفال بشهر رمضان يبدأ باستطلاع هلال شهر رمضان ، وقد ذكرنا فى الفصل السابق ما ذكره "ابن بطوطة" عن الاحتفال برؤية الهلال فى أبيار قرب المحلة الكبرى كما شاهده . وفى تصورى أن هذا الاحتفال كان يتكرر فى جميع القرى المصرية مع اختلافات بسيطة بين القرى والمدن هنا وهناك . أما الاستعداد للاحتفال بعيد الفطر ، فكان يبدأ أثناء شهر الصوم ، عندما تقوم النساء بتجهيز كعك العيد . وكانت النساء تحرصن على عمل الكعك بأنفسهن فى البيوت^(٤٨) ولم يكن الاحتفال بالعيدين يختلف فى الريف عنه فى القاهرة والمدن الأخرى ؛ إذ كان يبدأ بصلاة العيد ، وتبادل التهانى ، ثم زيارة المقابر . وكانت الأسر الريفية والعائلات تتبادل الزيارات ، وربما تبادلوا الدعوة إلى الطعام فى عيد الأضحى مصحوبة بالغناء واللعب بالنبوت^(٤٩) .

أما مواسم المسلمين ، فكان الاحتفال "بיום عاشوراء" الذى يحلّ فى اليوم العاشر من شهر المحرم ، وكان الاحتفال به منزلياً ؛ فتقوم النسوة بعمل حلوى مطبوخة من حبوب القمح فى اللبن الذى يضاف إليه السكر ، (وقد عرفت باسم "عاشوراء" وما يزال الناس يستخدمون الاسم حتى اليوم لنفس الحلوى التى تعمل فى هذا اليوم) . وكان الناس يتهادون بها فى الريف وفى المدن أيضاً^(٥٠) . ثم يأتى الاحتفال بالمولد النبوى فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وكان الاحتفال به أحيانا بقراءة القرآن الكريم ، أو حلقات الذكر التى كان الصوفية يشاركون فيها . وربما جاء بعض المادحين والمنشدين الذين ينشدون المدائح النبوية والأغاني ذات الطابع الدينى . ومن الطبيعى أن الفلاحين كانوا يشاركون فى حلقات الذكر ويستمعون إلى القراء الذين يقرأون القرآن، وإلى الأناشيد والأغاني الدينية الطابع التى يجدون فيها متنفساً وتسلية كبيرة ، وكان الريفيون

فى ذلك يقلدون الناس فى المدن الأخرى وفى القاهرة^(١١) . كذلك كان الاحتفال بشهر رجب احتفالاً دينياً ، بالإضافة إلى أن الناس كانوا يشترون لأولادهم فى هذا الموسم التماثيل السكرية التى كانت تعمل على هيئة بعض الحيوانات الأليفة التى يحبها الأطفال^(١٢) . أما الاحتفال ببليلة الإسراء والمعراج ، الذى كان من الاحتفالات والمواسم المهمة عند المسلمين ، ولا يزال ، فكان احتفالاً دينياً مقارناً للاحتفالات الدينية الأخرى . وإن لم يكن فيه هدايا من التماثيل السكرية أو غيرها ؛ ولكن قراءة القرآن ، أو حلقات الذكر كانت من ضرورات ذلك الاحتفال . وبجانب هذه الاحتفالات الدينية ، كان الفلاحون يجدون التسلية والترفيه فى المناسبات الاجتماعية المختلفة ، أو فى الموالد التى تقام فى القرية أو فى إحدى القرى القريبة . وكانت المتعة تأتيتهم من الاستماع إلى الشاعر الذى يحكى بصحبة الرابة ، أو غيرها من الآلات الموسيقية الشعبية ، قصة أبو زيد الهلالي ، أو سيرة عنترة بن شداد ، أو غيرها من السير الشعبية^(١٣) .

كانت أهم الأعياد الدينية عند المسيحيين المصريين عيد الميلاد ، وقال المقرئى : . يزعمون أنه اليوم الذى ولد فيه المسيح ، وهو يوم الاثنين فيجعلونه ليلة الأحد عشية الميلاد . وأدركنا الميلاد بالقاهرة ومصر وسائر إقليم مصر موسمًا جليلاً يباع فيه من الشموع الزهرة بالأصباغ المليحة والتماثيل البديعة بأموال لا تنحصر ، فلا يبقى أحد من الناس أعلاهم وأدناهم حتى يشتري من ذلك لأولاده وأهله ، وكانوا يسمونها الفوانيس (واحد فانوس) ويعلقون منها فى الأسواق بالخوانيت شيئاً يخرج عن الحد فى الكثرة والملاحة ويتنافس الناس فى المغالة فى أثمانها ...

وأعرف السؤل فى الطرقات أيام هذه المواسم ، وهم يسألون الله أن يتصدق عليهم بفانوس ، فيشتري لهم من صغار الفوانيس ما يبلغ ثمنه الدرهم وما حوله ، ثم لما اختلت أمور مصر ، كان من جملة ما أبطل من عوائد الترف عمل الفوانيس فى الميلاد ..^(١٤) .

فى هذا النص يكشف المقرئى عن أن الاحتفال بالميلاد ، على الرغم منه أنه عيد للمسيحيين ، كان يعم جميع أنحاء "سائر إقليم مصر.." ومنها الريف بطبيعة الحال ، كما وصف لنا مظاهر البهجة والفرح التى كانت تصاحب احتفالات الميلاد أيام كات الأحوال ميسرة فى الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك .

كانت هذه أهم ملامح الحياة الاجتماعية فى الريف فى ذلك العصر . وكانت هناك مجموعة من المسئولين والموظفين الذين كانوا يديرون شئون الريف فى ذلك الوقت ، وكانت مهمتهم تتراوح بين الحفاظ على الأمن فى أنحاء الريف ومتابعة جباية الخراج وغيره من الأموال التى كانت تفرض على الفلاحين مثل "مقرر الجراريف" الذى كان يفرض لتمويل أعمال صيانة الجسور السلطانية وترميمها ، أو غير ذلك من "المغارم" و"المظالم" و"الكلف" من ألوان الجبايات الطارئة التى كان المصريون يتعرضون لها فى أخريات ذلك العصر ومنهم الفلاحون بطبيعة الحال .

كان المسئول الأول فى الريف المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، هو "الكاشف" الذى يمثل السلطان فى الناحية كلها ، وكان يعاونه عدد من المساعدين يتوزعون على الأقسام التى تضمها الناحية ومدنه وقراها . ومنذ عهد السلطان برقوق ، تم استبدال الكاشف بموظف أعلى مكانة ، صار نائباً للسلطان فى الوجه البحرى ومثله نائب آخر فى الوجه القبلى ، وبذلك صار هناك نائبان للسلطان أحدهما فى الوجه البحرى والآخر فى الوجه القبلى ، غير نائب السلطنة الذى كان أعلى مقاما منهما^(١٥١) . وكان المفروض ، من الناحية النظرية ، أن يقوم كل من هذين النائبين بضبط الأمن ، ومتابعة أعمال مساعديه من الولاة ومن هم أدنى رتبة ، ؛ فضلا عن الاهتمام بوسائل ضبط النهر ومنشآت الري مثل : إقامة الجسور وصيانتها ، وتطهير الترع والخلجان ، ومتابعة أعمال الزراعة ، ومتابعة شئون الفلاحين فى الريف . ولكن من الناحية العملية ، كان ذلك الموظف الذى يعين من بين كبار الأمراء ذا سلطة مطلقة فى الناحية المسئول عنها . وتحديثا المصادر عن نماذج مستبدة غاشمة من أولئك الموظفين ؛ فقد كان كاشف الشرقية ، مثلا ، أحد الأمثلة القبيحة من تلك النوعية . فقد كان متجرداً من الإنسانية وطالما ذاق الفلاحون مرارة الظلم وانتهاك آدميتهم على يديه . فقد ذكر "ابن تغرى بردى" أن "عبد الله كاشف الشرقية" ، فى أيام السلطان جقمق ، كان يأخذ أموال الناس ويسفك الدماء ظلماً وعدواناً ، حتى قال عنه هذا المؤرخ إنه "كان شديد الوطأة على أهل بلبيس ، وفلاحى الشرقية .. وشكاه الناس كثيرا ، ولكن السلطان لم يسمع فيه كلاماً .. كان من أوحاش الظلمة .. ألا لعنة الله على القوم الظالمين.." ^(١٥٢) . وقال ابن تغرى بردى عن "عبد الله الكاشف" نفسه فى مكان آخر " .. يفعل ما لا يفعله إلا من ليس له حظ فى الإسلام .. من أخذ الأموال وسفك الدماء .. " ^(١٥٣) . وكان مثل ذلك الكاشف القاسى الظالم ، شديد الوطأة على الفلاحين ، كثر . فقد باتت وظائف الدولة لا يتولاها سوى من يدفع الرشوى

ويبذل الهدايا ؛ أى "البذل والبرطلة" فى مصطلح عصر المماليك الجراكسة . وقد باتت الوظائف والولايات وقفاً على من يتولون الوظائف عن ذلك الطريق . وتضافر الفساد مع الجهل والطمع ليتجسدا فى أمثال عبدالله الكاشف . وكان من الطبيعى أن من يدفع الرشوة لكى يلى وظيفة ما ، يحاول بعد أن يتولى الوظيفة ، أن يسترد ما دفعه أضعافا على حساب الناس ، وبأسرع ما يمكن بغض النظر عن الوسيلة المتبعة أو عن ضحاياه ومعاناتهم . وكان الفلاح هو الغارم الأساسى فى مثل هذه الحالة ، كما أن الريف بأسره كان يعانى مزيدا من الفساد المقرون بالظلم والجهل والمزى إلى التدهور الذى أودى فى النهاية بالدولة التى كانت فى طريق النهاية بالفعل .

كان من معاونى كاشف الإقليم ، والذى صار النائب بعد عهد السلطان برقوق ، "الوالى" ، وهو الممثل الحقيقى للسلطان ، ثم "كاشف الجسور" الذى كانت وظيفته ، كما يتضح من لقبه، الإشراف على الجسور السلطانية من حيث صيانتها وترميم ما تشعث منها ، وبعده كان ناظر الولاية المسئول عن كافة الشئون المالية فى الناحية^(١٨) . ولا يتسع المجال لتتبع كافة الوظائف فى الريف ؛ كما أننا لسنا بصدد البحث فى الشئون الإدارية أو المالية فى الريف المصرى فى ذلك الزمان ، وإنما نهتم بمدى تأثير مثل أولئك الموظفين على حياة الفلاحين ، وحياة الناس عموما فى الريف . ومن هذا المنطلق سوف نقصر حديثنا على ما قد يؤثر بشكل مباشر فى شكل الحياة فى القرى المصرية آنذاك .

ومن هذه النوعية التى كانت تؤثر بشكل مباشر فى حياة الفلاح فى عصر سلاطين المماليك ، كان "قاضى القرية" . وكانت وظيفة قاضى القرية من أهم الوظائف حينئذ . فقد كانت مهمة قاضى القرية الرئيسية الفصل فى المنازعات الى قد تنشأ بين الفلاحين لسبب أو لآخر . وكانت العناية بالمنازعات التى تنشأ بسبب الزراعة وأعمالها ، أو بسبب العمل فى الزراعة ، تحتل مكاناً مهماً من بين اهتمامات قاضى القرية ومهام وظيفته^(١٩) . وكانت لقاضى القرية مكانة محترمة وموقرة عند الفلاحين فى القرية لارتباط وظيفته بالدين والشرع ؛ ولذلك كانت للقاضى كلمة مسموعة وكانت الرابطة بين قضاة القرى والفلاحين فى هذه القرى قوية ووطيدة . فلم يقتصر دور القاضى على الفصل فى المنازعات فحسب ، وإنما كان القاضى يقوم بعقد الزيجات ويقوم بدور مأذون القرية الذى يوثق عقود الزواج وعقود الطلاق أيضا . وكان القاضى بحكم مكانته يقوم بتوزيع البنات اليتيمات ، وبوزع الصدقات ، أو يقوم بالإشراف على توزيعها على الأقل ويتولى القاضى

أيضا إثبات عقود البيع و الإيجار فى القرية . ومن النواحي الدينية الخالصة ، كان القاضى هو الذى يثبت رؤية الهلال لشهر رمضان ، وبيان موعد عيد الفطر وعيد الأضحى . وفى هذا الصدد يأتى المثال الذى ذكره الرحالة المسلم "ابن بطوطة" عن مشاهدته الاحتفال برؤية هلال رمضان فى أبيار بالقرب من مدينة المحلة الكبرى فى الغربية ، ومنه نستدل على أن هذه المهمة كانت من مهام القاضى التى تزيد من مكانته واحترامه بين سكان القرى ، فقد ذكر "ابن بطوطة" أنه كان .. من عاداتهم .. أن يجتمع فقهاء المدينة وجوهرها عند العصر من اليوم التاسع والعشرين من شعبان بدار القاضى ... " (٧٠) . صحيح أن رحالتنا تحدث عن مدينة أبيار ، ولكن الصورة كانت بالقطع تتكرر على نطاق أصغر فى القرى . وكانت من مهام القاضى أيضا فى الريف المصرى العمل على التصدى لكل من يسيىء للدين الإسلامى (٧١) . وكان قضاة الريف ، شأنهم شأن القضاة فى كل مكان بمصر فى ذلك الوقت ، مرتبطين بالسلطة ومصالحهم الخاصة التى كانت بيد الحكام فيعملون على تنفيذ أوامر السلطان ، لاسيما فى أواخر ذلك العصر عندما تفشى الجهل والفساد بين القضاة . وكانت من مهام القاضى فى القرية كذلك النظر فى الأوقاف ، والإشراف على توزيع أموال الصدقة ، وأعمال الخير... وما إلى ذلك من المهام (٧٢) .

هكذا كانت وظيفة قاضى القرية من أهم الوظائف فى الريف المصرى.. صحيح أن وظيفة القاضى كانت من وظائف "أهل العمامة" ، و"أرباب الأقلام" - على حد المصطلح المستخدم آنذاك - ولكن القاضى فى القرية المصرية على وجه خاص ارتبط بالناس ارتباطا كبيرا فى حياتهم اليومية وارتبطوا به ، فقد كانت كل ممارساتهم الشرعية والقانونية تتم عن طريق القاضى أو تحت إشرافه ، من زواج أو طلاق أو ميراث أو بيع أو شراء أو إيجار أو رهن ؛ فضلا عن الجوانب الدينية فى حياة الناس مثل الصلاة والصوم والزكاة .. وما شابه ذلك . كل هذا جعل من وظيفة قاضى القرية وظيفة مهمة للغاية فى حياة الريف المصرى ومن فيه من الفلاحين من ناحية ، كما تركت بصماتها على تصرف الريفيين فى سائر شئون حياتهم ؛ بل ويعد موتهم من ناحية أخرى .

أما الوظائف الأخرى الإدارية والمالية فى الريف المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، فكانت بالضرورة توكل إلى "أرباب السيوف" من أمراء المماليك . فقد كان منهم نائب السلطان فى الوجه القبلى ونائبه فى الوجه البحرى ، يليهم عدد من الموظفين ذوى الدرجة الأقل والمكانة الأقل أيضا .

فقد كانت هناك بعض الوظائف الوسطى والصغرى فى الريف للمساعدة فى الإدارة والشئون المالية ، والعمل على استقرار الأمن ، وعدم تسرب الفلاحين للانضمام إلى أعداد المتسولين المتزايدة فى العاصمة ، أو العمل فى المهن المتدنية هناك بعد أن ضاقت بهم سبل العيش فى الريف ، أو اللجوء إلى الانضمام لعصابات اللصوصية وقطع الطريق ، التى باتت ظاهرة مزعجة ومخيفة فى أواخر ذلك العصر كما أوضحنا فى الفصل الثانى . ومن المهم أن نلاحظ أن الموظفين كانوا يشكلون عبئاً ثقيلاً على الفلاح ، زادت وطأته بصفة مطردة على الريف فى العقود الأخيرة من ذلك العصر ، بصفة خاصة بعد أن تدهورت الأعمال والأحوال فى مصر بصفة عامة .

ولعل أخطر ما كان يؤثر على الحياة فى الريف بشكل مباشر آنذاك ، إهمال مرافق الري وأعمال صيانة نهر النيل ؛ وهو الأمر الذى تكرر كثيراً فى الشطر الأخير من عصر المماليك الجراكسة ، قبيل سقوط الدولة نهائياً فى سنة ٩٢٢ هجرية / ١٥١٧ م . فقد كثرت حوادث انقطاع الجسور وانهارها بحيث باتت من الأخبار المتكررة فى كتابات المؤرخ ابن إياس ومن سبقوه ، وكذلك مرافق الري الأخرى من الترع والقنوات والخلجان التى كانت معطلة بسبب إهمالها وانسدادها بالرمال والطين ومخلفات الحيوانات النافقة ، مثلما حدث فى خليج المنهى وبحر يوسف بإقليم الفيوم . وقد لخص "أحمد بن محمد المنوفى" ، صاحب كتاب "الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد" ، الذى عاش حتى العقد الثالث من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، وكان شاهد عيان لما جرى فى ذلك الحين من مظاهر الفساد والإهمال الحكومى ، فقال وهو يتألم لما وصلت إليه الحال "... تهدم فى زماننا الجسور وقطعت ، وتحكم الفساد ، وخربت البلاد ، ووسد الأمر إلى غير أهله ، ووضع الشئ فى غير محله ، ولا جرم أن خل بالناس ما حل ، وانفرط عقد المملكة وانحل ... " (٧٢) .

هذه الملاحظة الثاقبة التى أبداها المنوفى ، تلخص ما كانت الأحوال قد وصلت إليه فى مصر عموماً من فساد وانحيار فى القرن العاشر الهجرى؛ فقد قال : "... فقد وسد الأمر إلى غير أهله..." ، أى أسندت الأمور إلى من هم ليسوا أهلاً لتحمل المسؤولية ممن كانوا يتولون الوظائف عن طريق "البذل والبرطلة" ، وتخلت الكفاءة والقدرة والصلاحية الأخلاقية عن مكانها للفساد والفوضى والعمل من أجل المصالح الذاتية والمغانم الشخصية . وكان ذلك من الآثار السلبية طويلة

المدى للروك الناصرى الذى سبقت الإشارة إليه من قبل من ناحية ، فضلا عن النتائج الوخيمة لانتهيار نظام تربية الممالك وتدريبهم منذ عصر الجراكسة الذى بدأ بالسلطان برقوق من ناحية ثانية^(٧٤).

فقد أدى الروك الناصرى إلى تفرق الإقطاعات وتجزئ الإقطاع الواحد فى عدة مناطق أو جهات من البلاد " .. فصار بعض الجبى فى الصعيد ، وبعضه فى الشرقية ، وبعضه فى الغربية .. " ^(٧٤) . وقد أثبت الروك الناصرى أنه كان كارثة على الاقتصاد المصرى بشكل عام ، وعلى الاقتصاد الريفى بشكل خاص على المدى الطويل . وكان من الأهم أسباب سقوط الدولة فى رأى . ذلك أن صاحب الإقطاع بات يعرف أنه لن يستقر فى إقطاعه بعدما تغيرت الأسس التى قام عليها النظام الإقطاعى بعد عهد "الناصر محمد بن قلاون" ، ومن ثم لم يكن يهتم كثيرا أو قليلا بالأرض الزراعية ووسائل الرى وعمليات ضبط النهر ، واتضح النتائج السلبية لهذه السياسة ، التى اتبعها السلطان لضمان السيطرة على الأمراء والتحكم فيهم ، فى ناحية أخرى ربما لم تكن تخطر على باله : فقد كثرت حوادث انقطاع الجسور وغرق الأراضى الزراعية ، أو عطشها بسبب انسداد الترعى والخلجان . وتحديث المصادر التاريخية عن أن المسؤولين عن أعمال ضبط النهر وصيانة منشآت الرى ، كانوا يسرقون الأموال المخصصة للجرايف والأبقار اللازمة لمثل هذه الأعمال . وكانت النتيجة النهائية تدهور إنتاجية الأرض الزراعية التى كانت بدورها تترك آثارها الوييلة على الريف والفلاحين بالضرورة^ك ، ولا ضير فى أن نكرر القول إن النظام السياسى الذى قامت عليه الدولة المملوكية كان النظام الإقطاعى الذى استند بدوره على الأرض الزراعية وما تنتجه من غلات توفر التمويل لجيش السلطان وجيوش أمرائه من الممالك : فطالما بقيت الأرض الزراعية قوية منتجة بشكل طيب ، بقى النظام السياسى راسخا ، والعكس صحيح تماما ، وهو ما ثبت الدراسة المقارنة بين الدولة الأولى والدولة الثانية التى سقطت بسبب ذلك أكثر من غيره من الأسباب .

أما العامل الثانى ، المتمثل فى انهيار نظام تربية الممالك وتدريبهم والذى قامت عليه أسس الدولة المملوكية الأولى ، فقد عصف به السلطان برقوق الذى بدأت به الدولة المملوكية الثانية ، أى عصر الممالك الجراكسة . وقد تفاقم الأمر بعد كثرة قدوم الممالك "الجلبان" أو "الأجلاّب" الذين كان يتم جلبهم كبارا من أسواق النخاسة فى هذه الفترة . وبهذا لم يكن لهم التزام بالروابط

التقليدية التى كانت تربط المالكين الذين كانت تتم تربيتهم وتدريبهم صفارا على يد سيدهم "أستاذهم" الذى ربطتهم به رابطة الأستاذية التى كانت سبب الولاء التى دانت به فرق المالكين فى الدولة المملوكية الأولى لسادتهم مثل : المالكين الظاهرية ، نسبة إلى الظاهر بيبرس ، أو المالكين المنصورة ، نسبة إلى المنصور قلاوون ، أو المالكين الأشرفية نسبة إلى الأشرف خليل بن قلاوون... وهكذا . كذلك ضعفت رابطة "الحشداشية" أى الزمالة التى كانت تربط بين المالكين من فرقة واحدة برباط متين يجمعهم سويا ويوفر لهم الحماية . وكانت النتيجة فى التحليل الأخير ضعف سيطرة السلطان والأمراء على ممالكهم من ناحية ، وزيادة حوادث الشغب التى أثارها أولئك الجلبان ضد السلطان ، أو ضد بعض المسئولين أو ضد بعضهم البعض ، وتزايدت حوادث الشغب وقتال الشوارع الذى كان يشهده المالكين الجلبان كثيرا فى الفترة الأخيرة من ذلك العصر . وكلها من العوامل الحاسمة التى أدت فى النهاية لسقوط الدولة ^(٧٦) .

هذان العاملان الرئيسيان أديا إلى الانهيار النهائى الذى أصاب الأسس التى قامت عليها دولة سلاطين المالكين التى عاشت نحو ثلاثة قرون من الزمان . وكان الريف وساكنوه أول ضحايا هذا الانهيار وأكثرهم وضوحاً ؛ لأن الدولة كانت قائمة فى الأساس على النظام الإقطاعى الذى قام بدوره على الأرض الزراعية التى كانت المصدر الأساسى والوحيد تقريبا للثروة فى مصر فى ذلك العصر وفى كل العصور التى مرت على مصر فى تاريخها الطويل . ومن هنا تم تقسيم الأرض الزراعية فى مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا (أى قسما) : استأثر السلطان لنفسه منها بأربعة قرايط ، وتم تخصيص عشرة قرايط لإقطاعيات الأمراء ، ووزعت القرايط العشرة الباقية على الأجناد ^(٧٧) . أما الفلاح الذى كان يقوم فى الأرض بكل العمل اللازم لزراعتها ، ورعاية ما تغله من غلات أو تنتجه من محاصيل ، فلم يكن له من نصيب فى هذه الأرض وكان ينال من خيراتها ما يقيم أوده بالكاد . ومن ناحية أخرى كان التدهور الذى حاق بالبلاد بشكل عام ، أشد وأنى فى تأثيره على الفلاح وعلى الريف كله مما كان فى أى مكان بالبلاد .

لقد أدى التدهور العام ، وفساد الحكام والمسئولين عن الإدارة فى الريف ، إلى نتائج سلبية ومحنة عديدة كان من أهمها زيادة الهجرة من الريف إلى القاهرة وغيرها . فقد أخذت أعداد متزايدة من أبناء الريف يهجرون قراهم للنزوح إلى العاصمة بحثا عن فرصة عمل فى الأعمال المتدنية فى القاهرة ، أو لكى ينضموا للشحاذين والمسئولين فى العاصمة الذين تزايدت أعدادهم

بشكل لافت للنظر فى ذلك الحين ، بل إن البعض منهم كانوا يفضلون الانضمام لعصابات قطع الطرق فى البر أو القرصنة النهرية فوق صفحة نهر النيل . وكان هؤلاء ، وأولئك يمارسون عملياتهم فى جراحة واضحة كما تشهد بذلك الأمثلة التى أوردناها فى الفصل الثانى من هذه الدراسة .

وكان من أسباب الأزمات الاقتصادية والاجتماعية فى الريف آنذاك ، قصور النيل ؛ أى أن يقل منسوب الفيضان عن الحد المطلوب للزراعة ، فإذا وصل الفيضان حد الوفاء .. خرجت تلك السنة على خير .." حسب المصطلح الشائع فى مصادر ذلك العصر التاريخية . أما إذا قصر النيل عن حد الوفاء ، أى جاءت مياه الفيضان أقل مما هو مطلوب للزراعة ، تشرق البلاد ، ويفوت أوان الزراعة ، وتحدث الكارثة التى كان الجميع ، حكاماً ومحكومين ، يتوقعون حدوثها ولذلك كانوا يرقبون الزيادة بشكل يومية ويعلنها المنادون يومياً على جماهير الناس^(٧٨) . وقدنا المصادر التاريخية بأوصاف تفصيلية مؤلمة للنتائج الكارثية التى كانت تنتج عن قصور النيل عن حد الوفاء . فقد كانت المجاعة النتيجة المباشرة لثل هذه الكارثة وكان الفلاحون الذين لا يجدون ما يأكلونه ، يأكلون الفول الأخضر فى حقولهم ، ويأكلون ورق اللفت وغيره من المزروعات ، وربما أكلوا من الحشائش التى تنبت فى الأرض . وتبدأ أعداد كبيرة منهم محاولة الهروب للعاصمة التى كانت هى الأخرى نهبا للمجاعة . وربما يتساقط الجوعى موتى فى الحقول أو على الطريق دون أن يجدوا من يوارىهم التراب . وكانت النتيجة الحتمية أن تتحول المجاعة إلى وباء يضرب البلاد وتزداد محاولات الهروب من الريف ، ليهرب الفلاحون لأماكن أخرى تخلصاً من ظلم الإنسان والطبيعة عندما يجتمعان على الفلاح^(٧٩) . فقد كانت الأقوات تنعدم ، ولا يجد الإنسان فى الريف ، أو فى المدينة ، ما يمكن أن يسد رمقه ، وقد يتفاقم الأمر بحيث يتطور إلى مجاعة قاتلة تنتشر ملامحها المخيفة فى جميع أنحاء البلاد من ريف وحضر . وقد أدرك المؤرخ الكبير تقي الدين المقرئى حقيقة مهمة للغاية فى هذا الصدد ، فكتب فى كتابه البديع ، الذى كتبه بمناسبة المجاعة الكبيرة والوباء الذى صاحبها وعاصرها على مدى خمسة عشر عاماً ، "إغاثة الأمة بكشف الغمة" ؛ إذ يقول : " .. إذا تأخر جرى النيل بمصر ، يمتد الغلاء سنين .."^(٨٠) . ذلك أن الناس كانوا يضطرون لكل المخزون من الغلال القديمة التى يحتفظون بها لكى يتخذوا منها التقاوى التى تستخدم فى زراعة المحاصيل الجديدة فى حالة وفاء النيل ، وبأتى عام آخر ليجد أن التقاوى قد استهلكت فلا يمكن الزراعة ... وهكذا . لقد كان تأخر الفيضان سنة واحدة كفيلاً بحدوث سلسلة من سنوات القحط والمجاعة .

وقد شهد المقرئى المجاعة والوباء الذى أعقبها وصاحبها ، واستمرت من سنة ٧٩٦ هجرية حتى سنة ٨٠٨ هجرية ، والتي يشير إليها المقرئى دائما على أنها سبب خراب البلاد والمحن التى أصابت العباد . فقد مات فيها أكثر من نصف سكان مصر ، وأرجع مؤرخنا سبب هذه الحال إلى الرهيبة إلى " .. سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد .. " (٨١) . وقد وضعت ثبُتًا بالمجاعات والأوبئة التى جرت على مصر فى عصر سلاطين المماليك ، وبيّنت آثارها ونتائجها على البلاد وسكانها فى كتابى الموسوم "النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك" (٨٢) .

ومن البديهي أن الريف والفلاحين كانوا أول الضحايا ، وأضعفهم ، فى مثل تلك الحالات الكارثية التى كانت تضرب البلاد بمعدلات متسارعة فى الشطر الأخير من ذلك العصر ، ففى الريف كانت الصورة تزداد قتامة وكآبة لأن الفلاحين بصفة عامة لم يكونوا يملكون شيئا يستطيعون به دفع غائلة المجاعة أو خطر الوباء عنهم . إذ لم يكن لديهم مخزون من الطعام ، أو المال الذى يمكنهم به شراء الطعام فى حالة المجاعة . ومن ثم كانوا يستسلمون لقدرهم . فقد كان الفلاحون يلجأون إلى أكل أوراق النباتات الموجودة فى الحقول مثل الكرنب واللفت والبقول الأخضر ، أو الحشائش التى تنبت وحدها فى الحقول أو على حواف الترع والقنوات . وبعد ذلك يبدأ الجوع فى الاستسلام فيتساقطون مثل أوراق الخريف الذابلة فى كل مكان فى المدن وفى الريف ، وبتزايد عددهم بشكل رهيب رسحت صورته المصادر التاريخية المعاصرة ، لاسيما فى أحداث "الموتان الكبير" الذى حدث سنتى ٧٤٩-٧٥٠ هجرية ، فى سلطنة "الناصر حسن بن محمد بن قلاوون" ، والذي كان وباء عالميا شمل المنطقة كلها كما ضرب أوروبا فى الفترة نفسها وسماه الأوربيون "الوباء الأسود" ونزل بالسكان فى مصر آنذاك إلى أقل من ثلث عددهم من الفلاحين ومن غيرهم بطبيعة الحال . وكان من الطبيعى أن يزيد عدد المعدمين فى حالات المجاعة ؛ فقد كان البعض يبيعون ممتلكاتهم القليلة لشراء ما يقتاتون به هم وأولادهم ؛ وبالتالي يدخلون فى عداد المساكين الذين لا يملكون شيئا (٨٣) .

وقد صور لنا المقرئى بقلمه صورة معبرة عما كان يمكن أن تؤدى إليه الأزمات الاقتصادية، والمجاعات والأوبئة من نتائج سلبية مخيفة على المستوى الاجتماعى والأخلاقي فى البلاد ؛ فقد ذكر فى معرض حديثه عن الصعيد ، ما نصه " .. بلغ من عمارة الصعيد فى الأيام الناصرية

محمد بن قلاون ، وما بعدها ، أن المسافر كان يمر من القاهرة إلى أسوان ، فلا يحتاج إلى نفقة ، بل يجد في كل بلد وناحية عدة دور ضيافة فلا يحتاج إلى نفقة ... إذا دخل داراً منها أحضر لدابته علفها وجىء له بما يليق من الأكل ونحوه ...

ثم بدأ يتدهور من أيام "الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون" سنة ٧٧٦ هجرية ، وتزايد في أيام برقوق لجور الولاة ، ثم جاءت سنة ٨٠٦ هجرية ... فدهى أهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف ... مات من مدينة قوص سبعة عشر ألفاً ، وأسيوط أحد عشر ألفاً ومدينة هُو خمسة عشر ألفاً ، سوى الطرعى على الطرقات ، ومن لا يعرف من الغرباء ... " (٨٤) .

وكانت القاهرة تزدهم بالهاربين من القرى أحياناً عندما كان السلطان أو الأمراء يوزعون الطعام مجاناً لدفع أثر المجاعة ، فكان أولئك القرويون يجيئون للقاهرة أملاً في الحصول على مثل تلك المعونات (٨٥) . وقد ذكر المؤرخ ابن الصيرفى والمؤرخ ابن إياس أن الفلاحين كانوا يهربون من قراهم ، في عصر الجراكسة الأخير بشكل عام ، دون أن ترتبط هجرتهم من الريف بالمجاعة أو الوباء ، وإنما كانوا يسعون للحصول على أى عمل من الأعمال التى لا تحتاج إلى مهارات أو خبرة ، مثل الحمالين أو من هم على شاكلتهم فى المدن (٨٦) . وكثيراً ما كان السلطان يصدر أوامره بالنداء فى القاهرة بخروج الغرباء والعودة لقراهم التى جاءوا منها ، ولكن المؤرخين كثيراً ما كانوا يعلقون على تلك الأخبار بأن أحداً لم يستجب لنداء الخروج لأنهم قد هربوا من الريف فى الأصل بسبب سوء الأحوال المعيشية فيه ؛ فكيف يعودون ؟ (٨٧) . وفى بعض الأحيان كان عددًا من الفلاحين الأبقين ينضمون إلى العصابات الكثيرة التى انتشرت فى ربوع البلاد كم أشرنا من قبل . وفى بعض الأحيان كان الظلم المتفاقم يدفع الفلاحين للثورة ومهاجمة من يديرون الأمور فى الريف ويقتلون من الكشاف ، وغيرهم من المسئولين ممن يتمكنون من قتلهم ، فضلاً عن إشاعة الفوضى والعصيان فى بعض الأحوال (٨٨) .

ولم تكن المجاعات والأوبئة وكل ما ينتج عنها من مصائب تمثل كل ما كان الفلاح يعانيه فى حياته فى أواخر ذلك العصر ؛ فقد كانت هناك عوامل طبيعية أخرى كثيرة تقض مضاجع الفلاحين وتؤرقهم وتنقص عليهم حياتهم : مثل فساد المزروعات وما يجلبه من خسائر ، وهجوم الفئران فى نوبات تشبه الوباء ، على المحاصيل فى الحقول وفى الأجران ، أو سقوط البرد والأمطار الشديدة

التي تدمر المزروعات فى الحقول والبساتين . دحك من الفلضانات العالفة اللى كانت تفرك الحقل وتدمر بىوت الفلاحن المصنوعة من الطين وأغصان الشجار كما أشرنا فى الصفحات السابقة . ومن الأمثلة على ذلك ما حدث فى سنة ٧٤٥ هجرية ، عندما تواتر سقوط البرد بأرض مصر " ... وزاد البرد والريح وقلّت أسماك بحيرة نستراوة ودمياط والخلجان لموتها من البرد .. " (١٩١) .

رثمة مظهر آخر من مظاهر غضب الطبيعة ؛ فقد حدث سنة ٧٢٤ هجرية أن هبّت الريح ، أثناء صلاة الجمعة ، وكانت من العنف بحيث " .. ظن الناس أن الساعة قد قامت .. واستمرت بقية النهار وطول الليل ، وامتلات الأرض يتراب أسود " وتهدمت دور كثيرة ، وخرجت ربح شديدة ببلاذ قوص إلى أسوان ، واقتلعت فى ليلة واحدة أكثر من عشرة آلاف نخلة ، وخزيت الديار .. " (١٩١) . هذه الأحوال الجوية السبئة تكررت كثيرا ، وحدث أكثر من مرة أن الريح العنيفة اقتلعت النخيل وغيرة من الأشجار مما ترك آثاره الويل على الريف وساكنيه فى الوجه القبلى وفى الوجه البحرى على السواء . وقد أوردت المصادر التاريخية الكثير من الأمثلة على ذلك طوال ذلك العصر . بيد أن الأحوال كانت فى عصر الماليك البحرية أفضل كثيرا منها فى عصر الماليك الجراكسة بسبب قوة السلاطين بشكل عام من ناحية ، وقوة البلاذ الاقتصادية من ناحية أخرى ؛ بحيث كان من الممكن استيعاب الخسائر وتعويضها بخلاف عصر الجراكسة الذى تكاثفت فيه قوى الطبيعة الغاضبة مع فساد وظلم الزعماء والحكام لتزداد وتيرة التدهور مع مرور السنين .

وفى بعض الأحيان كانت تحلّ بالريف كوارث أخرى من صنع الطبيعة أيضا ؛ فقد كان من الممكن أن تفسد المزروعات بسبب الدود الذى يلتهم الزرع ، مثلما حدث فى سنة ٧٢٨ هجرية / ١٣٢٨م عندما انتشر الدود وقت زراعة المحاصيل ؛ وتسبب فى خسائر جمة فى بعض المناطق . وقال المقرئى إن الخسائر فى المحصول وصلت إلى النصف فى بعض البلاد (١٩٢) . وقد حدث فى سنة ٨٢٢ هجرية / ١٤١٩م ، أن هاجم الدود الأراضى المزروعة فى ناحية كفر طهرمس بالجيزة ، ونتج عن ذلك أن الدود أتلّف من المزروعات مساحة قدرها ألف وستمئة فدان من زراعات البرسيم وزراعات القمح فى هذه النواحي من الجيزة وحدها (١٩٣) . وتكررت فى المصادر المعلومات الواردة عن فساد المزروعات بسبب الدود ، وليس فى وسعنا ، وليست هناك رغبة ، فى عمل إحصاء لحالات فساد الزراعات بسبب الدود فى ذلك العصر ، ولذا يكون من المناسب أن نكتفى ببعض الأمثلة الدالة على مدى ما كانت هجمات الدود تسببه من خسائر للفلاح فى زراعاته ومنها قد

نستدل على جانب آخر من جوانب المعاناة التى أمسكت بخناق الفلاح فى تلك الفترة الصعبة من تاريخ البلاد .

ومن ناحية ثانية ، كانت هجمات أسراب الجراد مصدراً وسيئاً من أسباب القلق الذى كان يداهم الفلاحين ومزروعاتهم ؛ فقد كانت أسراب الجراد تتسبب فى إتلاف مساحات شاسعة من الأراضى المزروعة عندما تأتى من الصحراوات المحيطة بالبلاد ، وتشن هجماتها الضارية على كل ما هو أخضر فتدمر المحاصيل مثل القمح وغيره من المزروعات ، وكانت أسراب الجراد تلتهم بسرعة رهبة زراعات الخيار والمقاتى مثل القثاء والبطيخ والقرع ، واصناف أخرى من المزروعات^(٩٣) . والجدير بالذكر أن تلك العصور لم تكن تعرف الوسائل الحديثة لمقاومة الجراد التى نعرفها اليوم ، وطرق مراقبته ، قبل قدوم أسرابه كما يحدث اليوم ، وكان الناس يقفون مكتوفى الأيدي أمام أى هجوم من هذا النوع ولا يقاومونه سوى بالوسائل البدوية التى كانت معروفة لهم . فكانت أسراب الجراد لا تترك الأرض سوى بعد أن تلتهم ما فيها من مزروعات فتصير جرداء ، كأنها الصحراء ، ومن الطبيعى أن الفلاح فى مثل هذه الأحوال لم يكن يملك سوى النظر إلى خسارته بعين الحسرة .

كما أن هجمات الفئران على الحقول المزروعة ، وعلى الأجران التى كان يتم فيها تخزين الحبوب ، فكانت من المصائب شديدة الوطأة على الناس فى الريف . إذ كانت الفئران تلتهم المزروعات فى الحقول المزروعة ، أو الغلال المخزونة فى الأجران فتلتهم الموجود بشكل رهيب ، وكانت هجمات الفئران من الموضوعات المثيرة فى المصادر التاريخية لما كانت تسببه من أضرار وأذى ، وويلات ، تزيد من معاناة الفلاحين ؛ بل إن المصادر تكلمت فى بعض السنوات عن ما يشبه الحرب والقتال بين فريقين من الفئران اقتتلوا فى الحقول فمات منهم أعداد هائلة . فقد حدث سنة ٦٩٦ هجرية/ ١٢٩٧م عندما التهمت الفئران الجزء الأكبر من محصول الغلال فى تلك السنة^(٩٤) وعلى الرغم من أن الفلاحين كانوا يقتلون أعدادا هائلة من الفئران بوسائلهم البدوية البسيطة ، فإن هذه القوارض الخطيرة كانت تهاجم الزراعات وأجران القمح والشعير من آن لآخر ، وكانت مصدر قلق وخوف دائم للفلاحين فى ذلك العصر^(٩٥) . ولدينا الكثير من الأمثلة فى المصادر التاريخية عن هجمات الفئران التى كانت تقضى على المحاصيل ، ولا سيما القمح والشعير^(٩٦) . وقد وصف لنا المؤرخ ابن إياس ما وصلت إليه الحال فى البلاد بسبب خطر الفئران فى الفترة الأخيرة من

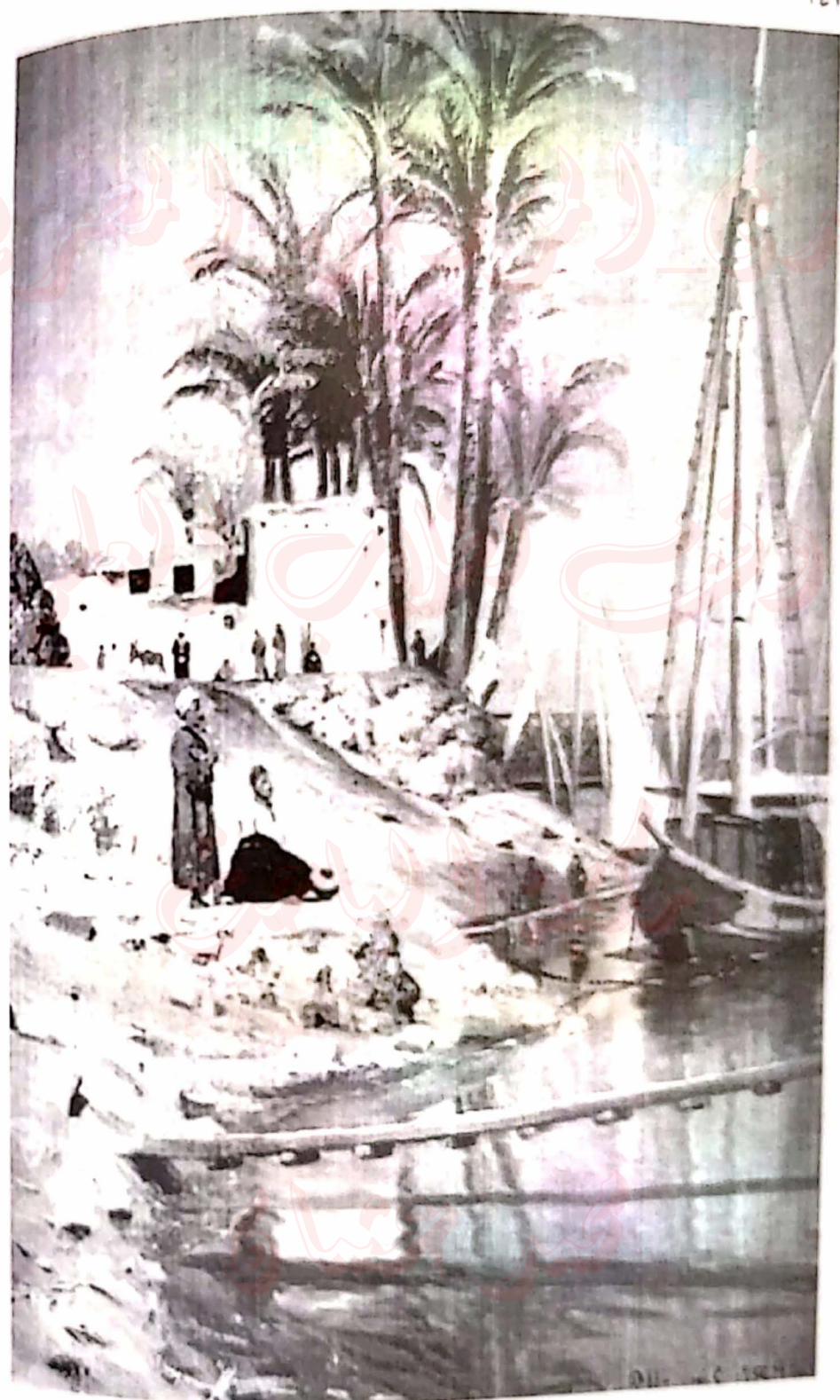
عصر سلاطين المماليك ، وكانت هجمات الفئران بعضاً من مظاهر التدهور الحاد ؛ فقد قال فى عبارة كاشفة : "... ثم حدث أن الفأر تسلط على الجرون ، وصار يقرض القمح والشعير وهو فى سنبله ، وهذا أمر من الله تعالى ، لا يقدر أحد على رده ، ولا يطاق لكثرتة ... " (١٧) . فى هذه الكلمات البائسة البائسة عبر ابن إياس عن تفاقم خطر الفئران على نحو فاق القدرة على التصدى لها على الرغم مما تسببه من خسائر وأضرار ومتاعب ، لدرجة أنه قال إنها قضاء من الله ؛ وهو ما يجعلنا نستدل على مدى خطورة هذا الوباء على أهل الريف وعجزهم عن التصدى له بما كان كان لديهم من أدوات بدوية استخدموها فى قتل الفئران ، ولكن ذلك العصر لم يعرف المبيدات لمقاومة هذه الآفة الخطيرة .

ومن جهة أخرى ، كانت الظروف الجوية السيئة تلحق الضرر البالغ بالزروع ؛ سواء كانت تلك الظروف ناتجة عن الشتاء القارص والصقيع الذى يهلك الزراعات ، أو كانت متمثلة فى البرد الذى ينزل بكثرة على الحقول المزروعة فيدمرها ، أو اتخذت الظروف المناخية الرديئة شكل رياح الخماسين التى عرفها المصريون فى كل عصورهم التاريخية ، وحتى الآن . وتحمل رياح الخماسين التربة الناعمة المنقولة مع الرياح الساخنة من الصحراء الغربية ومن ليبيا المجاورة فى فصل الربيع من كل سنة . وتسبب رياح الخماسين فى إثارة الأتربة وسخونة الهواء ؛ مما ينتج عنه الضيق والمتاعب ، ولكن أخطارها على الزروع على اختلاف أنواعها كانت كبيرة ؛ فقد كانت تتسبب فى جفاف الزراعات وحرقتها فى مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية . أما البرد الذى كان يتساقط أحيانا على الحقول المزروعة فكان يقضى على الزراعات الموجودة فى هذه الحقول ، بل إن البرد كان يتساقط فى بعض الأحيان على أشجار الفاكهة فيفسد ماتحملة من فاكهة مختلفة أنواعها (١٨) . وفى بعض الأحيان كان البرد التساقط كبير الحجم ، ثقيل الوزن ، مثلما حدث فى سنة ٧٤٥ هجرية ، فأهلك الزروع (١٩) وثمة مثال آخر لما حدث سنة ٨٧٠ هجرية / ١٤٦٥ م ، عندما تساقط البرد على الحقول المزروعة فى تلك السنة فأهلك محصول الفول كله (٢٠) .

فى هذه الأمثلة التى قدمناها فى السطور والصفحات السابقة ، رأينا ما كان يحيق بالفلاحين فى أواخر عصر سلاطين المماليك من شقاء وبؤس من جزاء الكوارث والمصائب التى كان يقع فريسة لها بسبب العوامل الطبيعية ؛ سواء مثلت فى المجاعات والأوبئة ، أو جاءت على شكل العوامل المفسدة للزراعات مثل هجوم الدود ، أو الفئران أو الجراد ؛ أو معاكسة الظروف المناخية السيئة

من رياح محملة بالرمال السخنة أو الصقيع والجو البارد الذى يجلب الصقيع أو سقوط الأمطار الغزيرة والبرد الذى يقضى على المزروعات . ولنا أن نتصور أن هذه العوامل الطبيعية المعاكسة ، التى ذكرناها ، كانت تأتى مع ظلم النواب والولاة ومن سار على دربهم من موظفى الدولة المسئولين عن الشؤون المالية والإدارية ، أو المسئولين عن الأمن فى الريف ، مما جعل الفلاحين يهجرون الأرض، ويتركون الزراعة التى لم يعرفوا سواها، ويهربون من قراهم كما أوضحنا فى الصفحات السابقة . ولهذا لم يكن من الأمور الغريبة ، أو المستغربة ، أن يتدهور الوضع فى الريف بصورة متسارعة باطراد فى العقود الأخيرة من عصر سلاطين المماليك . وقد تناقصت أعداد القرى المصرية فى بدايات هذا العصر من ألفين وثلاثمائة وخمسة وتسعين قرية حتى وصلت إلى أقل من نصف هذا العدد فى أواخر ذلك العصر . ومن البديهي أن العوامل الطبيعية السلبية التى تضافرت مع الفساد والظلم وعدم كفاءة ولاة الأمور التى أشار لها كل من كتب عن هذه الجوانب، قد أدت فى النهاية إلى نهاية الدولة التى كانت ذات يوم ملء السمع والبصر ، تمد سلطتها ونفوذها فى المنطقة كلها باعتبارها أكبر قوة إقليمية فى المنطقة ؛ فسقطت دولة سلاطين المماليك فى معركتين فقط : واحدة فى بلاد الشام معركة مرج دابق التى سقط فيها سلطانها التيمورى تحت سنابك الخيل وضاعت جثته مع المهابة التى كانت الدولة المنهارة تتمتع بها فى الأيام الخوالى ، وكانت المعركة الثانية فى الريدانية من ضواحي القاهرة وضاعت الدولة نهائيا مع جثة السلطان الأخير وهو معلق فى مشنقته على باب زويلة من أبواب القاهرة .

مصر عشتا



قرية مصرية

هوامش الفصل الثالث

- (١) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .
- (٢) الفلقسندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٩٢ : المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٥٨ .
- (٣) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٥٨ .
- (٤) الفلقسندى ، ج ٣ ، ص ٣٠٠ : ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٥٠ .
- (٥) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ : الفلقسندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٤ .
- (٦) المقرئى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥٨ - ١٥٩ : النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .
- (٧) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٦٠ : النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .
- (8) Dopp , L. Egypte au commencement du quazieme siècle , p.28 .
- (٩) مجدى عبد الرشيد ، القرية المصرية فى عصر سلاطين المالك (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ م) ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .
- (١٠) قاسم عبده قاسم ، عصر سلاطين المالك ، ص ١٦٨ .
- (١١) مجدى عبد الرشيد ، المرجع السابق ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .
- (١٢) الفلقسندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٨ - ٤٥٤ : خليل بن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف المالك وبيان الطرق والمالك ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .
- (١٣) الفلقسندى ، العيى ، عقد الجمان ، ج ٢ ، ص ٦٦٠ : المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٩٩ - ٢٠١ .
- (١٤) مجدى عبد الرشيد ، القرية المصرية ، ص ٣٣ - ٦٨ . حيث يورد كل وطائف المسئولين عن الإدارة فى الزيف المصرى .
- (١٥) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٧ .
- (١٦) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٨٨ - ١٩٠ .

(١٧) الأذفرى ، الطالع السعيد ، ص ٢٦ : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٢ ، ٣٩٧ : ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٤٣ ، ص ٤٤ : المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦٩ .

(١٨) انظر الفصل السابق .

(١٩) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٦٣ .

(٢٠) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٢١) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٥٦٦-٦٤٣ : ابن الأخرى ، معالم القرية ، ص ١٣٦ : الشيزرى ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ٧١ . حيث يذكر أن شروط من يعملون فى صناعة الأقمشة والثياب والأقمشة .

(٢٢) الأذفرى ، الطالع السعيد ، ص ٥٢٢-٦٣١ .

(٢٣) نفسه ، ص ٤٣ : السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٥٢ : قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٤١ .

(٢٤) مجدى عبد الرشيد ، القرية المصرية ، ص ١٨٩-١٩٠ .

(٢٥) نفسه ، ص ١٨٦-١٨٧ .

(٢٦) آن وولف ، كم تبعد القاهرة ؟ ، ص ١٥٧ .

(٢٧) نفسه .

(٢٨) جاستون فييت ، القاهرة ، ص ٧٢ .

(٢٩) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ : ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ٣١٣ .

(٣٠) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٤١-٤٢ .

(٣١) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٥٥٩ .

(٣٢) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٥١ .

(٣٣) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٥٦٠ : ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١١٢ : ابن تغرى بردى ،

حوادث الدهور ، ج ٢ ، ص ٤٩٩-٥٠٠ .

(٣٤) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٣٥٠-٣٥١ ؛ ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ١٦٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٥٦ .

(٣٥) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٤١ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٠٢ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

(٣٦) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٤١ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٥٦٥-٥٦٦ .

(٣٧) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٩٢٦ .

(٣٨) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٣٦ .

(٣٩) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ٥٣ .

(٤٠) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٣٦ .

(٤١) رحلة ابن جبیر ، ص ٣١ ؛ رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٦٦ .

(٤٢) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٥٩-٦٠ .

(43) Dopp, L'egypte au commencement du quanzieme siècle, p. 23

(٤٤) آن وولف ، كم تبعد القاهرة ، ص ١٥٥ ، ص ٣٣٧ .

(٤٥) المقرئ ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٠٩-٧١٠ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، صفحات ٢٩٥ ، ٣٥٥ ، ٤٢٩ .

(٤٦) مجدى عبد الرشيد ، القرية المصرية ، ص ١٩٣ .

(٤٧) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٥٢ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٤٧ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ ؛ ابن الأخوة ، معالم القرية ، ص ٢٢٢ .

(٤٨) النويري ، نهاية الأرب ، ج ، ص ٢٤٩ .

(٤٩) النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ١٢ .

(٥٠) نفسه ، ص ١٢ ؛ ابن الجيعان ، التحفة السنية ، ص ١٥٠-١٥٨ .

(٥١) المقرئى الخطط ، ج ٣ ، ص ٤٨١-٤٨٢ ..

(٥٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١٢٩ ، ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور ، ص ١٣٢.

(٥٣) مجلى عبد الرشيد ، القرية المصرية ، ٢٣٤ ص ٢٣٥ .

(٥٤) نفسه .

(٥٥) الشريشى ، هز القعوف فى شرح قصيد أبى شادوف ، ص ١٥٠ .

(٥٦) مجلى عبد الرشيد ، المرجع السابق ، ص ٢٣٥ - ص ٢٣٦ .

(٥٧) آن رولف ، كم تبعد القاهرة؟ ، ص ١٥٩ .

(٥٨) الأذنوى ، الطالع السعيد ، ص ٦٤٩ .

(٥٩) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

(٦٠) الأذنوى ، الطالع السعيد ، ص ٥٦ : قاسم ، دراسات ، ص ١١٧ .

(٦١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٥٧٦ .

(٦٢) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

(٦٣) مجلى عبد الرشيد ، القرية المصرية ، ص ٢٤٩-٢٥١ .

(٦٤) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٧٧٤٧-٧٤٨ .

(٦٥) خليل بن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف المالك ، ص ٣٢ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج ٤ ، ص ١٩٠ .

: انقلشتنى ، بيع الأعشى ، ج ٤ ، ص ٦٥ .

(٦٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ١٦ .

(٦٧) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج ٢ ، ص ٤٢١ .

(٦٨) عن هؤلاء المؤلفين وغيرهم ، انظر : مجلى عبد الرشيد ، القرية المصرية ، ص ٢٣-٥٤ .

(٦٩) نفسه .

(٧٠) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٧١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٨٦ .

(٧٢) ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ ؛ مجدى عبد الرشيد ، القرية المصرية ،

ص ٨٠ .

(٧٣) المنوفى ، الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد ، ورقة ٤٠ .

(٧٤) قاسم ، عصر سلاطين الماليك ، ص ١٥٦ - ص ١٧٠ .

(٧٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٠٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٤٢ ؛ النويرى ، نهاية

الأرب ، ج ٣ ، ص ٣٢٠ .

(٧٦) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ - ص ٢٨٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ٩٦ -

ص ٩٧ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٩٦ ، ص ٣٨٨ ، ج ٥ ، ص ٤٦٥ .

(٧٧) المقرئى ، المخطط ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

(٧٨) قاسم ، دراسات ، ص ١٦٠ .

(٧٩) انظر على سبيل المثال المقرئى ، إغاثة الأمة ، ص ٤١ - ص ٤٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،

ج ٧ ، ص ٢١٨ - ص ٢١٩ ؛ المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٨١١ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٨٢ ؛ العبنى ،

عقد الجمان ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ .

(٨٠) المقرئى ، إغاثة الأمة ، ص ٤١ - ص ٤٣ .

(٨١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٢٨ .

(٨٢) قاسم ، النيل والمجتمع المصري ، ص ٥٨ - ص ٨١ .

(٨٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢١٨ - ص ٢١٩ .

(٨٤) المقرئى ، المخطط ، ج ١ ، ص ٥١٦ - ص ٥١٧ ،

(٨٥) المقرئى ، إغاثة الأمة ، ص ٣٣ - ص ٣٤ .

(٨٦) ابن الصبرفى ، إنباء الهصر ، ص ٤٨٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٠٧ ،

(٨٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٧٢ .

(٨٨) المقرئى ، إغائة الأمة ، ص٤٢- ص٤٥ ؛ مجدى عبد الرشيد ، القرية المضرة ، ص١٦٠ .

(٨٩) المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ص٦٧٣ .

(٩٠) نفسه ، ج٢ ، ص٢٥٤ .

(٩١) نفسه ، ج٢ ، ص٣٠ .

(٩٢) المقرئى ، السلوك ، ج٤ ، ص٥١٠- ص٥١١ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج٢ ، ص٤٥٣ .

(٩٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، ص١٨٦ .

(٩٤) العبنى عقد الجمان ، ج٣ ، ص٣٦٧ .

(٩٥) المقرئى ، السلوك ، ج١ ، ص١٥٧ .

(٩٦) انظر مثلاً : المقرئى ، السلوك ، ج١ ، ص٤٥٤ - ص٤٥٥ ؛ ج٤ ، ص٣٣٠ ، ص٨٧٨ ، ص٨٥٩
وصفحات ١١٣ ، ١٤٠ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

(٩٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٢١٧ .

(٩٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص١٩٨ - ص١٩٩ .

(٩٩) المقرئى ، السلوك ، ج٤ ، ص١٢٢٠ .

(١٠٠) ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور ، ج٣ ، ص٥١٢ .

مكتبة الباحث

الفصل الرابع

تأثير السلطة على الحياة اليومية

مدخل - مواكب استقبال السلاطين - صلاة الاستسقاء - الاحتفال
بوفاء النيل - احتفال دوران المحمل - الاحتفالات الخاصة - المشاركة
فى الأعمال العامة - نظام طرح البضائع - نظام التسعير - التدخل
فى أذواق الناس - إلغاء الضرائب والمكوس - التصرفات الغريبة من
المستولين - ردود أفعال الناس - المكتبات وسوق الكتب.

حاولنا فى الفصول الثلاثة السابقة من هذه الدراسة أن نرسم صورة الحياة اليومية فى مصر من خلال الحياة فى المدن والقرى ، ورصد المؤسسات الموجودة فيها ، والنشاط الاجتماعى والاقتصادى للناس فى هذه المدن والقرى ، ومتابعة إيقاع الحياة ، من حيث سيرها فى إطارها العادى أو اضطراريه ، أو الظروف الطارئة التى مرت بها ، فى الحضر وفى الريف على السواء . وفى الفصل الحالى ، نحاول رسم الخطوط العريضة لتأثير السلطة على الحياة اليومية ؛ من حيث نوع هذا التأثير وشكله من ناحية ، أو الجوانب السلبية والجوانب الإيجابية لتأثير السلطة على الحياة اليومية ، من ناحية أخرى . فقد كان لسلوك السلطان الحاكم ورجاله ، ممن يتولون المسئولية ويساعدونه فى أمور الحكم والإدارة ، تأثير قوى بلا ريب على حياة الناس وحياتهم اليومية وإيقاع الحياة فى مدن مصر وقراها فى ذلك الزمان . وفى الصفحات السابقة ، عرضنا بالفعل لبعض جوانب هذا التأثير فى سياق حديثنا عن المدن والقرى . ولكن الفصول السابقة كانت موجهة لدراسة النشاط الاجتماعى والسياسى والثقافى والاقتصادى للناس فى مدن مصر وقراها فى عصر سلاطين المماليك ، من حيث انعكاس ذلك على الحياة اليومية ؛ ومن ثم ، فإن محور الاهتمام فى هذا الفصل سوف ينصب على تصرفات السلطة ، ورجال السلطة من أمراء المماليك ومن سار على دربهم ، ومدى تأثير ذلك على الحياة اليومية فى مصر آنذاك .

وكان من الأمور التي اعتادها الناس في مصر في عصر سلاطين المماليك ، كان خروجهم في مواكب حافلة لكي يستقبلوا السلطان الحاكم عند عودته إلى البلاد بعد حملة ظافرة ضد الأعداء ، في الخارج أو في الداخل ، أو رجوعه من السفر لسبب ما ، أو شفائه من مرض ألم به ... وما إلى ذلك من أسباب . ولدينا أمثلة عديدة في مصادر تلك الفترة للتدليل على ما بدأنا به هذا الفصل . من هذه الأمثلة ما حدث في سلطنة السلطان "الناصر محمد بن قلاوون" الثانية ، سنة ٧٠٢ هـ . فقد صدر المرسوم السلطاني بمناسبة هزيمة التتار ، بالخروج لاستقبال السلطان وزينة القاهرة قبل وصول السلطان في الثامن من شهر رمضان . وبالفعل تفتن الناس في تزئين القاهرة من باب النصر حتى باب السلسلة من القلعة ... وتنافس الناس ، وتفاخروا في زينة القاهرة . واقتسمت الاستاذارية (ومفردها الاستادار ، وهو المسئول عن كل ما يتعلق بالقصر السلطاني ، وما يحتاج إليه من فراش أو متاع) ، المناطق في شارع القاهرة ووزعوا العمل فيما بينهم ، ورتبوا لكل واحد منهم ما يخصه ، وعملوا قلاعاً خشبية لكل أمير في موقعه من المدينة ؛ ويبدو أن السلطات قد تفرغت هي والناس لهذه الزينة تماماً بحيث تودى .. من استعمل صانعاً في غير عمل القلاع كان عليه جناية السلطان .. وزادت أسعار الخشب ، والقصب ، وآلات التجارة .. وتفاخروا في تزئين القلاع (الخشبية) . وأقبل أهل الريف إلى القاهرة للفرجة على موكب السلطان ، وعلى الزينة ، فإن الناس أخرجوا الحلى ، والجواهر ، واللاقيء ، وأنواع الحرير ، فزبنوا بذلك .. ولم ينته شهر رمضان حتى تم عمل القلاع الخشبية المطلوبة ، وعمل الوالى قلعة بباب النصر فيها سائر أنواع الجذ والهزل ، ونصب عدة أحواض مملؤها بالسكر والليمون ، وأوقف لوالى مائتيه حتى يسقوا العسكر . وجاء السلطان في السابع والعشرين من شهر شوال .. وفي تلك المناسبة وصلت أجرة البيت الذي يقع في الطريق الذي يمر به موكب السلطان إلى ما بين خمسين ومائة درهم . لكي يقف الناس فيه لمشاهدة السلطان والفرجة على الزينة » (١) .

كان ذلك الاحتفال الذي أسهبت المصادر التاريخية في وصفه ، وحرصنا على تسجيله بأكبر قدر ممكن من التفصيل ، بمناسبة ما أعلن عن هزيمة التتار وانتصار الناصر محمد (انتصار مشكوك في حدوثه على أية حال) . فقد كان الناصر محمد مازال شاباً في مقتبل شبابه في سلطته الثانية (٦٩٨-٧٠٨ هـ) وكان يفتقر للخبرة الكافية سياسياً وعسكرياً ، وكان كبار أمراء المماليك يستبدون بالسلطة من دون السلطان لدرجة أنه اضطر إلى الهرب إلى الكرك زاعماً

أنه يريد الذهاب فى رحلة حج ، ومن هنا ربما كان الزعم بأنه هزم التتار من تدبير أولئك الأمراء . وبعد هروب السلطان الناصر محمد ، ارتقى عرش السلطنة بيبرس الجاشنكير ، لبقى فى دست السلطنة على مدى عشرة أشهر فقط وستة وعشرين يوما ^(١) . المهم أننا نعتقد أن كبار الأمراء ، ربما كانوا هم الذين دبروا هذا الاحتفال المبالغ فيه من ناحية ، وأن الناس اشتركوا فى الاحتفال بعودة سلطانهم ، كما أن هذا الاحتفال ترك آثاره الإيجابية وتسبب فى انتعاش بعض الفئات اقتصاديا من ناحية أخرى . كما اتضح من النص الذى أورده المقرئى والعينى . ومن ناحية أخرى ، أشاع الاحتفال البهجة والفرحة فى قطاعات كبيرة من المصريين وجاءت من الريف جماعات كثيرة تشارك فى ذلك الاحتفال ، وللفرجة على مركب السلطان وعلى الزينة المنصوبة .

هذا المثال يوضح كيف كانت التجمعات السياسية والتظاهرات المؤيدة للسلطان من السمات العامة للحياة المصرية فى عصر سلاطين المماليك (وكانت هناك أحيانا تظاهرات غاضبة ضد السلطان أو ممثل السلطة) . فقد كانت الأوامر تصدر من والى ، أو المحتسب ، أو غيرهما بدعوة الناس إلى المشاركة فى مثل هذه التظاهرات السياسية والاحتفالات ، من ذلك ما حدث سنة ٦٥٨ هجرية / ١٢٦٠ م ، عندما أراد السلطان الظاهر بيبرس أن يعلن إعادة قيام اخلافة العباسية بعد سقوطها فى بغداد ، وما أعقبها من تدمير وخراب . فقد خرجت كافة طوائف المصريين لكى يستقبلوا الخليفة العباسى (أبو القاسم أحمد) الذى جاء إلى القاهرة ، وكان من بينهم اليهود والمسيحيون يحملون كتبهم المقدسة للمشاركة فى تلك المناسبة الرائعة ^(٢) . وحدثت تظاهرة أخرى من هذا النوع عندما نجح السلطان برقوق فى الرجوع ليلى عرش السلطنة مرة أخرى بعد أن كان قد خلع عن العرش ، ولكنه عاد إلى العرش مرة أخرى فى سنة ١٢٩٠ م . وحدثت تظاهرة استقبال أخرى سنة ٨٨٠ هجرية لاستقبال السلطان الأشرف قايتباى بمناسبة عودته من رحلة صيد كان قد خرج إليها بصحبة أمرائه ^(٣) .

ولدينا الكثير من الأمثلة التى تكررت بين صفحات المصادر التاريخية لعصر سلاطين المماليك تدل على استمرار خروج الناس فيما يشبه مظاهرات التأييد لاستقبال السلاطين المختلفين ، لأسباب تنوعت واختلفت . ولكن ما يجب أن ننتبه إليه فى هذا المقام ، أن الناس لم يكونوا يستطيعون رؤية حكامهم فى ذلك الزمان سوى فى القليل النادر ، وربما كان بعض الحكام يمضون فترة حكمهم ذون أن يخرجوا للناس (فى مصر وفى غيرها من بلاد العالم فى ذلك الوقت ، وهو

ما يجعل حرص الناس على رؤية حكامهم أمراً طبيعياً (١). وعلى أية حال ، كانت مثل تلك المناسبات من المواقف التي كان الحكام يتركون فيها تأثيرهم على حياة الناس اليومية ، ولكنها لم تكن الحالات الوحيدة كما سنرى فى السطور والصفحات القادمة .

وقد كان من الحالات التي تشهد تأثير السلطة على الناس فى ذلك العصر ، ما كانت تدعو إليه السلطات طوائف الناس لأداء صلاة الاستسقاء عندما يقصر نهر النيل عن الوفاء فى وقت الفيضان . فقد كان قصور النيل ، أي عدم بلوغه المنسوب الكافى لري الأراضى وزراعتها ، كارثة يتحسب الجميع من وقوعها ، ويلجأون لكل السبل للخروج منها إذا حدثت . ولم يكن الناس والحكام فى ذلك الوقت يعرفون الإجراءات والتدابير الوقائية المسبقة ، ولم يكن أمامهم سوى اللجوء لمثل هذه التصرفات الدينية عسى أن يكشف الله الغمة عنهم . فقد كانت الأمور تسير بقدرية وإرتجالية ، وغالباً ما كانت تفسر على أنها غضب من الله بسبب فساد الأخلاق وانتشار مظاهر الفسق والفجور ، حسب تعبير أهل العمامة آنذاك ، وخروج النساء إلى الأسواق وخروجهم لأماكن النزهة والفرجة ، وما اعتبره هؤلاء من أسباب مثل هذه الكوارث والأزمات . وكانت الدعوة إلى أداء صلاة الاستسقاء من أهم الوسائل التي تلجأ السلطات إليها فى مثل تلك الأحوال .

فقد كان المحتسب ومعاونوه يخرجون ، بناء على أوامر السلطان الحاكم ، لإعلام الناس أنه تقرر إقامة صلاة الاستسقاء فى اليوم المحدد وفى المكان المعين . وفى اليوم المنشود يخرج الناس فى مواكب حاشدة مع القضاة ، والأمراء ، والعلماء ، والفقهاء ، ومشايخ الخوانق والزوايا ، والطرق الصوفية ... وربما يدعوهم المحتسب للصوم عدة أيام تقريباً وزلفى لله تعالى حتى يأذن بزيادة نهر النيل . وفى صلاة الاستسقاء كان اليهود والمسيحيون المصريون يشتركون فى تلك المواكب ، لأنهم مصريون ، يشتركون مع المسلمين فيما تسفر عنه حالات قصور النيل عن حد الوفاء ، وبهمهم أن ترتفع الغمة عن الجميع . وكان اليهود والمسيحيون يخرجون إلى مكان صلاة الاستسقاء ، ومعهم كتبهم المقدسة . وربما كان السلطان نفسه يخرج مع الناس فى مثل تلك المناسبات ... وفى الصحراء تبدأ صلاة الاستسقاء ، وترتفع الأصوات بالدعاء ، والاستغاثة والتضرع إلى الله... ويستمر المشهد طوال عدة ساعات من النهار (٢) .

وربما كان يخرج الناس لصلاة الاستسقاء عدة مرات ، بدلا من مرة واحدة ؛ أملا فى زيادة مياه نهر النيل ، مثلما حدث فى سنة ٨٥٤ هجرية (٣) . وقد شارك المؤرخ تقي الدين المقرئ فى إحدى

هذه المناسبات ، ووصف لنا ما حدث فيها فى سنة ٧٥٥ هجرية ؛ فقال : " . . خرج الناس بعد ذلك إلى قبة النصر : مشاة بشياح مهنتهم ، ومعهم أطفالهم ، وكنت بمن خرج يومئذ ، وقد نصب هناك منبر ، ونزل الأمير أقتمر عبد الغنى النائب فى عدة من الأمراء ؛ فخطب ابن العسقلانى خطيب جامع عمرو بن العاص خطبة الاستسقاء ، وكشف رأسه عند الدعاء ، وحول رداءه ، فكشف الناس رؤوسهم ، وضجوا بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى ، وارتفعت أصواتهم بالاستغاثات ، وهملت أعينهم بالبكاء ، فكان مشهداً عظيماً ، فلم يسقوا وعادوا خائبين ... " (٧) . هذا الوصف المفصل لما كان يحدث فى صلاة الاستسقاء يكشف عن حال الهلع والذعر التى كانت تنتاب الناس عندما يقصر النيل عن الوفاء زمن الفيضان ، كما يوضح أن كبار رجال الدولة ، والفقهاء ، والقضاة كانوا يشاركون الناس خوفهم وتحسبهم مما قد ينتج عن هذا من العواقب الوخيمة .

على أية حال ، لم يكن الناس يخرجون إلى الصحراء فى كل الأحيان لصلاة الاستسقاء مثلما أوضحت الأمثلة السابقة ؛ وإنما كانوا فى أحيان كثيرة يجتمعون فى أحد الجوامع الكبيرة ، مثل جامع عمرو بن العاص ، أو الجامع الأزهر ، يتوسلون إلى الله ويتهللون ، ويستمررون فى قراءة القرآن الكريم وتلاوة الأدعية ، وربما كان الحال يستمر عدة أيام ، بأمل أن يستجيب الله لدعائهم وتوسلاتهم (٨) .

أما الاحتفال بوفاء النيل ، عندما النهر يصل حد الوفاء ، فكان أمراً بهيجاً ومصدر فرح وسرور لكل الناس ؛ فقد كان الاحتفال يقام بمناسبة وفاء النيل وكسر الخليج عندما تصل مياه الفيضان إلى مستوى ست عشرة ذراعاً (وقد عرضنا لهذا الاحتفال بشكل موجز فى الفصل الثانى من هذا الكتاب) . فقد كان وصول الماء إلى هذا المنسوب إيذاناً ببداية المهرجان البديع احتفالاً بهذه المناسبة الجميلة ، التى كان الجميع يشتركون فى إحياؤها ، ابتداءً بالسلطان الحاكم ووصولاً لسائر الناس من العامة . وكانت تحبب باحتفالات وفاء النيل وكسر الخليج من مظاهر الفخامة والأبهة ما كان يبهر الأوربيين من زوار البلاد فى ذلك العصر ، وما كان يضى على الناس ثوب الفرح والسرور فى كل مكان . ففى ذلك اليوم عندما يصل الماء إلى علامة الوفاء ، كان يتم تعليق ستر أصفر سمي فى ذلك الوقت «الستر الخليفى» ، إعلاناً بوصول الفيضان إلى منسوب الوفاء . وكانت تلك الليلة من الليالى العظيمة فى القاهرة ؛ فكان يوقد بها الأهالى الشموع والقناديل بأعداد كثيرة للغاية ، ويتحول ليل القاهرة إلى نهار بسبب الأضواء الكثيرة . بعد ذلك يحضر الاستادار (وهو المسئول عن كل ما يلزم القصور السلطانية من الفرش والمتاع

وما إلى ذلك ، ومعه الخلع التى كان من المعتاد توزيعها على كبار المسؤولين بالدولة فى هذه المناسبة . بعدها يحضر قرآء القرآن الكريم ، ويببتون بدار المقياس يتناوبون القراءة طوال الليل . وفى هذه المناسبة كان يحضر أيضا المنشدون والمغنون الذين يقدمون فنونهم للناس الموجودين بدار المقياس أثناء تلك الليلة البهيجة البديعة ^(١١) .

فى صباح اليوم التالى كانت قد مائدة (سماط) حافلة مليئة بالشواء ، والحلوى والفاكهة . وقد يحضر السلطان هذه المائدة ، أو يقوم مقامه أحد كبار الأمراء ، وبعد أن يتناول كبار المدعوين طعامهم يتخاطف العامة السماط .. ولا يمنع أحد من ذلك .. . بعد الانتهاء من السماط يبدأ الاحتفال على مرحلتين فى اليوم نفسه ^(١٢) : تخليق المقياس ، وكسر سد الخليج . وتبدأ المرحلة الأولى من الاحتفال بنزول السلطان من القلعة ، بصحبة قادة الجيش ، وكبار رجال دولته ، والأعيان ، والقضاة والفقهاء ، ويركبون المراكب التى تزينها الأعلام وسائر أنواع الزينات ، وفيها المزار والطبول ، حتى يصل الموكب النهري إلى دار المقياس . وبعد نهاية السماط ، الذى ذكرناه من قبل ، يتم إذابة الزعفران فى إناء من الفضة ، ويعطى السلطان الإذن للمسئول عن المقياس (ابن أبى الرداد الذى كانت عائلته تتوارث مهمة الحفاظ على المقياس منذ مئات السنين) ، فيلقى بنفسه بملابسه كاملة فى نسقية المقياس ، ومعه الإناء المذاب فيه الزعفران بماء الورد ، ويتم تعطير عمود المقياس بهذا العطر فيما يسمى "تخليق المقياس" أى دهان عمود المقياس بذلك العطر . ثم يتم توزيع الخلع التى يوزعها السلطان على كبار رجال دولته ، وبعدها تجبىء المركب المسماة "الذهبية" وهى مركب السلطان ؛ فيبحر بها وحوله مراكب الأمراء (الحراريق) وتختفى صفحة النهر تحت عشرات الحراريق والقوارب التى تحمل عامة الناس من المتفرجين . ويستمر الموكب الصاحب حتى موقع سد الخليج . وهنا تكون المرحلة الثانية من الاحتفال . ويتوجه السلطان بحصانه من "قم الخليج" إلى السد الترابى ، ويمسك بمعول من الذهب الخالص ، ويضرب السد ثلاث ضربات ، ويأتى جمع كبير من الناس فيحفرون سد الخليج حتى ينساب الماء جاريًا فى الخليج . وبذلك ينتهى الاحتفال ويعود السلطان إلى القلعة ^(١٣) .

وفى سنة ٩٠٥ هجرية ، توجه الأمير طومانباي (الذى صار سلطانًا فيما بعد) وكسر الخليج ، ووزع على الجماهير المحتشدة للاحتفال الفاكهة والحلوى ، ونثر الفضة على العامة المتجمعين عند السد الترابى لمشاهدة عملية كسر السد "... وكان يومًا مشهودًا .." ، على حد تعبير المؤرخ ابن إياس ^(١٤) .



الاحتفال بدوران المحمل



موكب زفاف

هكذا ، كانت الاحتفالات العامة ، مثل احتفال وفاء النيل وكسر سد الخليج ، من المناسبات البهيجة التي يترك المسئولون فيها تأثيرهم على الناس في حياتهم اليومية ؛ فقد كانت من أيام الفرح والسرور لكل من يشاهد الاحتفال الذي يشمل جميع أهل القاهرة ، ومن يقدم من الريف لمشاهدة تلك الاحتفالات . وقد كان الناس يتأثرون بوجود السلطان أو كبار رجال الدولة ، مما يترك بصمات إيجابية على الحياة اليومية . وقد وصف جاستون فيبيت ، في كتابه عن القاهرة ، ذلك الاحتفال بوفاء النيل وكسر السد أنه من أجمل وأبهج الأعياد عند المصريين . وقد ذكر الرجال الأوروبيون الذين زاروا مصر آنذاك أنها من أجمل أعياد السنة ، وتبدو على الناس مظاهر الفرح العظيم وهم يشاهدون الماء يتدفق إلى الخليج . وقد كتب " الحسن الوزان " المعروف باسم ليو الأفرنجي أنه يقام في القاهرة في الأيام الأولى للفيضان احتفال كبير ، وتسمع فيه ضجة كبيرة حتى يغلب على الظن أن المدينة قد انقلبت رأساً على عقب ، فتتخذ كل أسرة لنفسها قارباً تزينه بأرق الأقمشة وأجمل السجاجيد ، وتتزود بكمية من الطعام والحلوى ، وتضع فيه المشاعل التي تضاء بالشموع . وينتقل جميع السكان إلى القارب ، ووثعون أنفسهم بقدر ما يستطيعون ، ويشارك السلطان نفسه والأعيان ، ورجال الدولة في هذا الاحتفال ^(١٣) . وقد تحدثت آن وولف في كتابها " كم تبعد القاهرة ؟ " عن هذا الاحتفال بنغمات إعجاب مشابهة .

كانت هذه النوعية من الاحتفالات مهمة من حيث تأثير المسئولين في الحياة اليومية ، ولكنها كانت أيضاً من عوامل التواصل بين الناس وبين رجال الدولة . كما أنها كانت تترك آثارها الإيجابية على الناس في كل أنحاء مصر ، وكانت تدفعهم للتوافق مع الدولة لاسيما في الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك .

وكان هناك احتفال عام آخر يحتفل به الجميع في مصر وهو ما عرف بمصطلح " دوران المحمل " . في ذلك العصر ، فقد اتخذ الحج مظهراً اجتماعياً ودينياً ، مثلما كان الحال في كل العصور التاريخية التي مرت على مصر ، وكان مناسبة مهمة للغاية بالنسبة لجميع المصريين . وقد كان موسم الحج محط اهتمام الجميع : سواء كانوا على كراسي الحكم أو من عامة الناس (وقد أشرنا لهذا الاحتفال بصورة سريعة في الفصل الثاني من هذه الدراسة) . ففي موسم الحج ، كانت الحركة والنشاط تسرى في أوصال المجتمع المصري ، وتنعكس مظاهر ذلك الموسم على كافة أنحاء المجتمع

المصري آنذاك ، وتزدهر الأسواق المخصصة لبيع لوازم الحج ، ويستعد رجال الدولة والمعاليك الذين سببوا قروناً مع قافلة الحج المصرية . ومن ناحية أخرى ، كان الناس في مصر ينتظرون هذا الاحتفال بشغف وشوق . وكان سلاطين المعاليك يهتمون باحتفال "دوران المحمل" منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى الذى كان أول من أدار المحمل في مصر سنة ٦٥٧ هجرية ، بعد أن أكد حرصه على القيام بدور حامى الحرمين الشريفين . ولذلك اهتم أولئك السلاطين بكسوة الكعبة^(١) في إطار حرصهم على الواجهة الدينية التى كانت مهمة جداً لإضفاء الشرعية على حكمهم ، الذى انتزعوه من الأيوبيين في خضم أحداث الحملة الصليبية السابعة .

وكان الاحتفال "بدوران المحمل" يتم مرتين سنوياً . وقد حرص جميع من في مصر على الاحتفال بموسم الحج من خلال "دوران المحمل" الذى كان من أبرز مظاهر تأثير السلطة على الحياة اليومية في مصر . كانت المرة الأولى في شهر رجب ، وكانت المرة الثانية في شهر شوال . وفي المرة الأولى ، التى كانت تسمى الرجبية ، كان السلطان يبعث المندوبين ليجوبوا شوارع القاهرة والفسطاط ينادون ليعلموا الناس أن "دوران المحمل" سوف يكون في يوم كذا . ويكون النداء قبل ثلاثة أيام من اليوم المحدد . وفي أثناء هذه الأيام الثلاثة يتكرر النداء في الأسواق وأماكن التجمعات في القاهرة والفسطاط بموعده الاحتفال . واستعداداً للاحتفال ، يقوم أصحاب الدكاكين الموجودة في الطريق الذى سوف يمر به موكب المحمل بتزيين دكاكينهم بشرائط ملونة من الأقمشة الملونة ، وغير ذلك من ألوان الزينة الفاخرة ، وكذلك كان أصحاب البيوت في طريق دوران المحمل ، يزينون بيوتهم التى يؤجرونها في يوم الاحتفال للناس الذين يريدون الفرجة . وكانت النساء والأطفال يبيتون في تلك البيوت منذ الليلة السابقة على دوران المحمل حتى يضمنوا لأنفسهم المكان الذى يشهدون منه الاحتفال في اليوم التالى .

كانت العادة أن يكون "دوران المحمل" يوم الاثنين أو الخميس . وفي يوم الدوران كانت تحتشد أعداد غفيرة من الناس على امتداد الطريق لمشاهدة الموكب الجميل ، الذى كان يبدأ من باب النصر من أبواب القاهرة ، يسير جمل المحمل متجهادياً حتى يصل إلى ميدان الرميطة أمام القلعة ، وقد غطاء الحرير الملون ، وفوقه المحمل الذى يحمل كسوة الكعبة . ويغطي المحمل بالحرير الملون الفاخر وفوقه قبة من الفضة . وأسما جمل المحمل كانت تركيب كوكبة من الفرسان السالكين ، وهم

بملاص الميدان الزاهية ، ومعهم معداتهم وأسلحتهم التى تخطف الأبصار ببريقها ، أمام المشاهدين الذين تستولى عليهم البهجة المزوجة بالإثارة والدهشة بفعل المشهد المثير . وستعرض الفرسان مهاراتهم فى القتال بالرماح . وقد عرف أولئك الفرسان باسم "الرمّاحة". كذلك كان الموكب البديع يضم مجموعة من صغار المالكين الشباب الذين يقومون ببعض الألعاب البهلوانية وهم وقوف على ظهور خيولهم . وتتعالى أصوات الجماهير الصاخبة لتختلط بدقات الطبول وأصوات الموسيقى النحاسية العالية . ويمضى الموكب وسط تهليل الناس المبهورين المعجبين بكل ما يجرى أمامهم ، حتى يصل إلى ميدان الرميّة المواجه للقلعة . وهناك تشتدّ جلبة وصخب الاحتفال عندما يطلّ السلطان على الموكب من القلعة وستعرض الجميع مهاراتهم أمام السلطان . ثم يتجه الموكب ليدور فى الفسقاط ويعدها يعود لميدان الرميّة .

وكان ذلك الاحتفال الجميل يتكرر مرة ثانية فى شهر شوال ، ولكنه فى هذه المرة الثانية لم يكن يتوجه إلى الفسقاط ؛ وإنما كان يخرج مباشرة بعد نهاية الاستعراض فى ميدان الرميّة إلى "الريديانية" فى شرق القاهرة ، ومنها يسافر فى الطريق إلى الحجاز^(١٠٠) . ومن المهم أن نشير هنا إلى أن كسوة الكعبة كانت تصنع من الحرير الأسود الفاخر ، المرقوم بالحرير الأبيض ، ثم صارت الكتابة على الحرير الأسود باللون الأصفر المشعّر بالذهب . وكان من موظفى الدولة فى عصر سلاطين المالكين موظف مسئول عن الكسوة وتجهيزها هو "ناظر الكسوة" يشرف على تجهيزها من الأموال التى كانت موقوفة لهذا الغرض^(١٠١) .

وكما رأينا فى السطور السابقة ، كان الاحتفالان الرئيسيان فى ذلك العصر احتفال وفاء النيل ودوران المحمل ، وكأنا يؤثران تأثيراً إيجابياً كبيراً فى الحياة اليومية آنذاك . فقد كان يشارك فيهما السلطان وكبار رجال الدولة ومعهما كافة شرائح المصريين . فقد كان النيل ، ولا يزال ، قوام الحياة المصرية ، كما أن الحج أحد أركان الإسلام ، ومعظم أهل مصر من المسلمين ؛ فلا غرو أن حظي الاحتفالان بكل مظاهر التبجيل والاحترام والفرح والبهجة . وكان لهذين الاحتفالين تأثيرهما على الحياة المصرية بطبيعة الحال . صحيح أن بهجة الاحتفالات ربما تعرضت لبعض المعوقات ، خاصة فى عصر الجراكسة بسبب التدهور الذى ألمّ بالدولة ، مثل الاضطرابات التى كانت تحول دون القيام بالاحتفال بوفاء النيل وكسر سد الخليج ، أو ضعف هيبة الدولة وعدم القدرة على ضمان سلامة قافلة الحج ، مما كان يمنع خروجها أحياناً بسبب هجمات العربان فى الحجاز على

القافلة وقتل من فيها أو نهبهم ، ولكن هذا لا ينفى أن تلك الحالات الطارئة كانت قليلة على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون عاشتها دولة سلاطين المماليك من ناحية ، وأن هذين الاحتفالين كانا من أبرز مظاهر تأثير السلطة على الناس فى حياتهم اليومية حينذاك من ناحية ثانية .

بيد أنه كانت هناك مشاركات للناس فى نوع آخر مختلف من الاحتفالات . وكانت تلك الاحتفالات من الاحتفالات الخاصة ، ولكن السلطة ممثلة فى السلطان أو ذويه ، أو غيره من رجال الدولة ، هم الذين كانوا يقيمون تلك الاحتفالات الخاصة ، ويطلبون مشاركة الناس فى تلك الاحتفالات لسبب أو آخر ؛ إما طوعاً أو كرهاً .

ففى سنة ٧٥٩ هجرية شفيت "خوند زينب" زوجة السلطان أينال من مرض كان قد أصابها . ومناسبة شفائها كانت التهانى التى جاءتها كثيرة ، وقدمت فرق الموسيقيين والمغنين والملاهى بالطبول والزمور .. وغير ذلك . " .. وزاد تردد الناس إلى بابها ، لاسيما لما عمل لها من مرامى النفط ومن المزهرات والصواريخ .. " وقد سمع الناس بهذه الاحتفالات الصاخبة ؛ فجازوا بقصد الفرجة فى شوارع بولاق وساحل النيل هناك .. ويبدو أن أعداد الذين ذهبوا إلى مكان الاحتفال كانت كبيرة ؛ فقد كان الزحام شديدا بحيث " .. صار كأيام دوران المحمل ، أو بعض ليالى وفاء النيل .. وأما النسوة فأضعاف الرجال ... ووقع فى تلك الليلة من القبانج والمفاسد ، والأمور الشنيعة ما لا مزيد عليه .. " (١٧) . وفى هذا النص يكشف المؤرخ "جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى" عن مدى تأثير أصحاب السلطة من خلال الاحتفالات الخاصة بهم . فقد كان شفاء زوجة السلطان من مرضها مناسبة خاصة ، فتحولت إلى مناسبة عامة واحتفال عام ؛ لأن من كان يهمهم رضاها ورضى السلطان ، سارعوا إلى مظاهر النفاق المعتادة فى مثل تلك المناسبات ، فأقبلوا تصحبهم فرق الموسيقى ، والشموع المزهرة ، والألعاب النارية والصواريخ . وكان لابد أن تجتذب كل هذه المظاهر عامة الناس فازدحموا وكأن المناسبة كانت من أيام الاحتفال بدوران المحمل ، أو بعض ليالى وفاء النيل ، على حد تعبير ابن تغرى بردى ، على الرغم من وقوع بعض المفاسد والأمور الشنيعة

ومن الأمور التى كانت ذات التأثير الإيجابي على الحياة اليومية فى مصر فى ذلك العصر ، ما كان السلطان الظاهر بيبرس يفعله عندما كان يخرج الصدقات الجارية فى كل يوم من أيام شهر

رمضان فى مطابخ مصر والقاهرة لإطعام الفقراء والمساكين ، ويقول المقرئى إنه كان فى كل ليلة من ليلى شهر رمضان سنة ٦٦٢ هجرية يصرف جملة كبيرة من الخبز واللحم المطبوخ^(١١٨)

وهناك مناسبة أخرى كانت تتكرر كثيرا فى ذلك العصر ؛ عندما كان يتم ختان ابن السلطان فيتم ختان عدد من أولاد الأمراء وربما ختن أيضا عدد من أولاد عامة الناس . وفى سنة ٦٧٢ هجرية ، فى عهد السلطان الظاهر بيبيس البندقدارى ، فى عيد الفطر ، كان ختان الأمير "نجم الدين خضر" ابن السلطان بيبرس ، وعدد من أولاد الأمراء ... ولم يبق من لم يشملهم إحسان السلطان بهذه المناسبة .. إلا المغانى وأرباب الملاهى ؛ فإنه لم تنفق لهم فى طول أيامه سلعة ، ولا نالهم منه خير البتة ..^(١١٩) . وفى هذا الخبر نعرف أن تأثير تلك المناسبة على الحياة اليومية كان إيجابيا على جميع الطوائف باستثناء الغنئين ومن على شاكرتهم من الفنانين الذين يبدو أن السلطان العظيم لم يكن يميل إليهم أو يحبهم .

وفى سنة ٦٧٧ هجرية قام المسئولون بعمل احتفال بمناسبة الذكرى السنوية لوفاة السلطان بيبرس ، ومدت الأسبطة ، وقرئت الأطعمة على أهل الزوايا . وقال المقرئى إن ذلك اليوم كان من الأيام العظيمة لكثرة ما اجتمع فيه من الناس على اختلاف طبقاتهم ، وعمل مجمع آخر بجامع أحمد بن طولون، وفى الجامع الظاهرى ، والمدرسة الظاهرية ، والمدرسة الصالحية ، ودار الحديث الكاملية ، والخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، والجامع الحاكى . وعمل التكاثر (أهل التكرور) والفقراء (الصوفية) خوان حضره كثير من أهل الخير ..^(١٢٠) . كانت تلك مناسبة مهمة جمعت بين رجال الدولة والناس العادية على اختلاف طبقاتهم ، وكانت تلك المناسبة أيضا من مظاهر تأثير السلطة على الحياة اليومية ؛ بيد أننا يجب أن نأخذ فى اعتبارنا أن الظاهر بيبرس البندقدارى كان محبوبا من الناس لأسباب كثيرة، وكان طبيعيا أن يشارك الناس فى مناسبة ترتبط به عن طيب خاطر إحياء لذكراه السنوية بعد سنة من وفاته .

ومن ناحية أخرى ، لم يكن تأثير السلطة على الحياة اليومية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك كله إيجابيا مثلما يتضح من الأمثلة السابقة فى الصفحات السابقة ؛ فقد كان من هذه التأثيرات ما يحمل المشقة والتعب والضيق للناس فى حياتهم ، ولكن الناس كانوا يدعون للمشاركة فى عمل من أعمال المنفعة العامة التى تدفع ضررا عن البلاد أو تجلب منفعة معينة

وكانوا يشاركون فى مثل تلك الأعمال التى كانت المشاركة فيها فى بداية عصر سلاطين المماليك لقاء أجر معلوم .

ففى سنة ٧٢٣ هجرية ، فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة ، زادت مياه فيضان نهر النيل أكثر من ثمانى عشرة ذراعا وستة أصابع ، وفاض الماء من ناحية بستان الخشاب ، ودخلت المياه بولاق وأغرقتها بما فيها من البساتين و" .. قطعت الطريق وصار ما بين بولاق ومصر بحرا واحداً ... وكثر الخوف من غرق القاهرة . وطلب العمال من الفقراء للعمل والتصدى لهذه المشكلة؛ فبلغت أجرة الرجل فى كل يوم ما بين درهم إلى ثلاثة دراهم ... فثبت الماء ثلاثة وأربعين يوما ، ثم نزل قليلا قليلا .. " واستدعى السلطان المهندسين لمراجعة خطر المياه التى تسبب فيها الفيضان العالى جدا ، وبعد المناقشات تقرر عمل جسر من بولاق إلى منية الشيرج (عند شبرا) فى عشرين يوما ^(٢١) وكانت هذه حالة طارئة تستدعى تكاتف الجميع من الأهالى والسلطات الحاكمة ، لكن أهم ما يلاحظ فى هذا المقام أن السلطات قررت صرف أجر لكل من يشارك فى العمل بهذا المشروع المؤقت . وهو ما يعنى أن تأثير السلطة كان إيجابيا لبعض الناس .

وقد تكرر هذا الموقف ، ولكن لأسباب مناقضة ، فى سنة ٧٤٩ هجرية ؛ إذ كان نهر النيل قد قلّ ماؤه وجفّت المنطقة من شاطئ مصر القديمة والقاهرة " .. فقرر المسئولون عمل جسر ، ونودى فى الناس ، من أراد العمل فله درهم ونصف وثلاثة أرغفة خبز .. " واستمر العمل أربعة أشهر ^(٢٢) . وهنا نلاحظ أن العمل كان لقاء أجر يومية كان عينيّا وتقديما فى آن معا وهنا مرة أخرى كانت تصرفات المسئولين تترك أثرا طيبا على الحياة اليومية .

ولكن أخطر ما كان يؤثر سلبا على الحياة اليومية فى مصر آنذاك ، ويؤثر على حركة الأسواق، ويترك بصمته السلبية على الحياة الاقتصادية عموما ، كانت تلك الممارسة التى عرفها عصر سلاطين المماليك بمصطلح "طرح البضائع" . ويمكن أن نستدل من المصادر التاريخية المتاحة ، على مدى ما كان هذا النظام ، أو تلك الممارسة ، تسببه من نتائج سلبية بعيدة المدى فى حياة الناس على المستوى الاجتماعى ، والاقتصادى ، والنفسى . ويقوم نظام "طرح البضائع" على فكرة أن السلطان يفرض ما قد يكون متوافرا لدى الدولة من سلع أو بضائع ، لسبب أو لآخر ، على التجار فى الأسواق الداخلية بالسعر الذى يريده هو ، وبالكميات التى يقررها هو . وكانت تلك البضائع

تتنوع أصنافها تنوعاً كبيراً . بغض النظر عن قدرة السوق على استيعاب تلك البضائع أم لا ومن ناحية أخرى ، لم يكن من حق التجار أن يرفضوا تلك البضائع الإجبارية ، أو المساومة على أسعارها . ومن المعلوم أيضاً أن السلطان برسباى لعب دور التاجر البشع على عدة مستويات ؛ فقد احتكر التجارة الخارجية فى التوابل وغيرها ، كما أنه فى مجال التجارة الداخلية ، قام فى سنة ٨٢٦ هجرية بختم جميع معاصر السكر وفرض احتكار السكر لنفسه ؛ فلم يكن أحد يستطيع التعامل فى السكر بيعاً أو شراءً سوى من خلاله .

ولم يكن نظام "طرح البضائع" من ابتكار هذا السلطان ، ولكنه كان واحداً ممن استغلوه استغلالاً كبيراً ، ولم يكن معروفاً فى زمن السلاطين الكبار الأوائل أيضاً . وكانت تلك البضائع تتنوع تنوعاً كبيراً ما بين الأبقار ، والماشية ، والثياب ، والفرايج ، والزيت ، والعسل ، والزبيب... وما إلى ذلك . أما المصادر التى كانت تأتى منها تلك البضائع ، فكانت تختلف وتتنوع ما بين الهدايا الواردة صحة السفارات الأجنبية التى يرسلها الحكام المعاصرون إلى سلاطين المماليك ، أو الأسلاب والغنائم التى استولت عليها الجيوش والأساطيل المصرية فى حروبها ضد أعداء الدولة المملوكية ، أو ما كانت تستولى عليه الحملات التأديبية ، التى كثيراً ما قامت بها الدولة ضد العربان ، الذين كانوا يسببون الضيق والغضب للدولة من جراء عصيانهم وتمردهم الذى تحدثت عنه المصادر التاريخية كثيراً (انظر على سبيل المثال ما جاء فى الفصل الثالث من هذا الكتاب عن تمرد العربان) ، أو من المصادر الأخرى .

وكان نظام "طرح البضائع" يقوم أيضاً على احتكار بضاعة معينة فى وقت ما ؛ مثلما حدث سنة ٧١٠ هجرية ، عندما أبطل السلطان الناصر محمد بن قلاوون عدداً من الضرائب والمكوس التى كان الناس يعانون من وطأتها ، فقد ألغى فى تلك السنة ما كان مقرراً على بيع الفرايج من ضرائب باسم "طرح الفرايج" ؛ أى أن من يبيع الفرايج ، كان عليه أن يدفع ضريبة بنسبة محددة عن كل ما يباع من الفرايج . ويبدو من النص الذى أورده كل من المؤرخ تقي الدين المقدسى ، والمؤرخ أبوالمحسن بن تغرى بردى ، أنه كان يوجد فى كل إقليم من أقاليم مصر "ضامن" أى مسئول عن هذه الفرايج وبيعها ، والضرائب التى تفرض عليها ، مهمته "طرح الفرايج" على التجار ضمن إطار «طرح البضائع» بصفة عامة ".... ولا يقدر أحد أن يشتري فروجا إلا من الضامن .." (١٢٣) .

ويبدو أن بعض السلاطين كانوا يلجأون لنظام "طرح البضائع" فى بعض الأحيان رغبة منهم فى مواجهة متاعبهم المالية بهذه الطريقة السهلة على حساب التجار والتجارة الداخلية نفسها بشكل عام . وفى تلك الأحوال كان المسئولون يجبرون التجار على أن يسدّدوا ثمن البضائع التى طرحت عليهم بشكل فوري ، مما كان يسبب للتجار الكثير من المشكلات والتاعب ، التى كانوا لا يستطيعون تحملها أحياناً . وكان ممثلو السلطان يتبعون أساليب غاية فى القسوة والشدة فى معاملة التجار عند طرح البضائع ، أو عند تحصيل أثمانها ، بحيث تخبرنا المصادر التاريخية أن بعض التجار كانوا يتمنون الموت لأنفسهم هرباً من تلك المظالم^(٢٤) . وهناك أمثلة كثيرة مشابهة عن مدى التأثير السيئ ، والضرر الناتج عن تلك الممارسات التى يقوم بها بعض الحكام من هذا النمط على الحياة اليومية متواترة فى مصادر تلك الفترة ؛ ذلك أن الأمر لم يكن ضرره يقتصر على التجار وحدهم ؛ وإنما كانت أضراره تطول الناس جميعاً لأن التجارة الداخلية شأن يهم كل الناس لأنها تمس طعامهم ، وملابسهم وحاجاتهم اليومية ، التى كانت توجد فى الأسواق الداخلية بطبيعة الحال وبحكم الضرورة . فقد كان نظام "طرح البضائع" يؤدى إلى رفع الأسعار ، وكساد الأسواق ، أو على الأقل كانت تنشب ، بسبب رفع الأسعار ، الكثير من المشاحنات والمشاجرات التى كانت تنتشر فى الأسواق بين الباعة والزبائن . ولم يكن المسئولون الذين يشرفون على طرح البضائع يهتمهم من هذا كله سوى ما يتوفر للديوان من مكاسب ، وللسلطان من أرباح .

ففى بعض الأحيان كانت الأسواق تتعطل عن البيع والشراء ، وتتوقف أحوال الناس ومصالحهم ، لأن التجار يكونون مشغولين بشراء ما تطرحه الدولة من البضائع قسراً . ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ٨٢٧ هجرية ، عندما عاد الأسطول بغنائم غنمها رجال الأسطول من جزيرة قبرص أثناء إغاراتهم عليها انتقاماً من حكامها آل لوزنيان الذين كانوا يسببون كثيراً من الأذى للموانىء المصرية ، والسفن المصرية فى البحر المتوسط ، وكان ملكهم "بطرس لوزنيان" قد شنّ غارة مخزّنة على الأسكندرية فى سلطنة الأشرف شعبان عندما هاجمها فجأة .. ودخلها لصاً وخرج منها لصاً .." (على حد تعبير المؤرخ النويرى السكندرى الذى ترك لنا فى كتابه الموسوم "الأمر المقضية فى واقعة الأسكندرية" وصفا شاملاً لتلك الغارة الرعناء على مدينة الأسكندرية) . على أية حال، توقفت الأسواق فى تلك الأيام ، وتعطل التجار والناس عن البيع والشراء بسبب طرح البضائع التى غنمها الأسطول . وتكرر الأمر بعدها بسنتين عندما نجحت الحملة البحرية التى

أرسلها السلطان "برسباى" فى الاستيلاء على قبرص نفسها وضمها للممتلكات المصرية ، وتم أسر الملك القبرصي "جانوس" فى سنة ٨٢٩ هجرية . وخرج الناس قاطبة للفرجة ومشاهدة الملك الأسير وموكب الأسرى فى شوارع القاهرة يسبرون فى ذل وأعلامهم منكسة أمامهم "... واجتمع لرؤيتهم من الرجال والنساء خلائق لا يحصى عددها إلا الله الذى خلقها ... " (٢١) .

وعلى الرغم من فرحة الناس بما شاهدوه فى موكب الملك الأسير وكبار دولته الأسرى ، فإن التجار عانوا من سلوك السلطان "برسباى" الذى أصدر أوامره بجمع التجار لشراء البضائع وفق نظام "طرح البضائع" ؛ فتعطلت أسواق القماش عدة أيام (٢٢) . وكان نصيب السلطان من الجوخ الذى استولى عليه الأسطول مائة وثلاث قطع من الجوخ ، طرحت على التجار بالسعر الذى حدده . وهذا مثال واضح على أن الحروب كانت أحد مصادر البضائع التى تطرح على التجار فى أسواق البلاد . وهناك أمثلة أخرى كثيرة على المصادر الأخرى للبضائع ؛ ولكننا هنا نورد بعض الأمثلة فقط للدلالة على ما كان يحدث فى نظام "طرح البضائع" ولا يتسع المقام هنا لرصد جميع الحالات ، فضلا عن أنه ليست هناك ضرورة علمية لهذا ، لاسيما وأن المصادر التاريخية حافلة بالأمثلة المتواترة .

ومن ناحية أخرى ، كان التجار يهرون فى بعض الأحيان عندما يعجزون عن شراء ما يطرح عليهم من البضائع بالثمن الذى تفرضه السلطات ؛ كما حدث سنة ٩١٧ هجرية عندما طرح السلطان قنصوه الغورى على التجار فى الأسواق بالقاهرة " .. زيتا ، وعسلأ ، وزيبيا ، وأصناف بضائع يخسرون فيها الثلث " . وهى من المواد الاستهلاكية اليومية التى يرتفع سعرها حتما بشكل كبير ويصبح عبئا على الناس العاديين ، ويخسر التجار فيها الثلث حسبما قال ابن إياس ، وهو ما جعل التجار يهرون من دكاكينهم ، وأغلقت الأسواق عدة أيام خوفا وعجزا عن مواجهة ذلك الإجراء (٢٣) .

هكذا ، كان نظام "طرح البضائع" من الممارسات السلبية الضارة التى تؤثر فى حياة الناس سواء من التجار أو غيرهم . وكان من الملامح الكئيبة فى شكل الحياة اليومية آنذاك . ومن الأمثلة السابقة ، وهى أمثلة قليلة من كثير ، يتضح أن هذه الممارسة كانت من عوامل تكدير الحياة اليومية لا سيما فى عصر الجراكسة ، عندما كثرت حالات تكرار هذه الممارسة . ولدبنا مثال على تراجع السلطان فى بعض الأحيان عندما يشكو الناس له من طرح البضائع ؛ فقد حدث

فى سنة ٨٧٥ هجرية أن تسبب "طرح البضائع" فى أزمة شديدة فى المجتمع القاهرى ، حسب ما ذكره ابن الصيرفى "... أصبح أهل مصر فى ألم شديد من عدة وجوه : الأساكفة رمى عليهم من ديوان الدولة جلود .. وقد رميت بضائع كثيرة أيضا على الخبّاطين ، والجوخيين ، وأرباب الصنائع ، والتجار الذين بالحوانيت . وقد اشتكوا جميعا للسلطان قايتباى فردّ عليهم السلطان ما رمى من البضائع ^(١٢٨) . أى أن السلطان "قايتباى" تراجع عن رمى البضائع عليهم واسترد البضائع . ومن هذا النص الذى أورده ابن الصيرفى يتضح أن الحرفيين جميعا تقريبا ، وأهل السوق من أصحاب الدكاكين ، كان قد نالهم الضرر من طرح البضائع عليهم ، وهو أمر كان نادر الحدوث فى تلك الأيام الأخيرة من ذلك العصر .

هكذا ، كان نظام "طرح البضائع" إجراءً تعسفياً من جانب الدولة ، سبب الكثير من المتاعب للتجار كما كان من عوامل انكماش حركة الأسواق الداخلية ؛ فقد كان من الأمور الطبيعية أن يحاول التجار وأرباب الأسواق تعويض خسارتهم بسبب نظام "طرح البضائع" فيرفعون الأسعار ويقل حجم التعاملات فى الأسواق الداخلية .

ومن الجدير بالذكر أن نظام "طرح البضائع" قد خلق ممارسات جانبية ؛ فانتهز البعض الفرصة للإفادة من عيوب ذلك النظام ؛ إذ وجد بعض كبار الأمراء المالكين الفرصة أمامهم سانحة لكى يحققوا لأنفسهم المكاسب الشخصية فى ظل ذلك النظام . فقد كان كبار أمراء المالكين يريدون الإفادة من هذا النظام بطريقة أخرى ؛ وكان الواحد منهم يفرض حمايته على حوانيت بعض التجار مقابل امتياز معين يحصل عليه مادياً بطبيعة الحال ؛ فيضع رنكه (أى شارته الدالة عليه) ، فلا يقوم أحد بطرح أية بضائع على الحانوت . ومن المؤكد أنه كانت تكلفة التاجر مقابل الحماية أقل من خسارته فى نظام "طرح البضائع" . ولكن يبدو أن السلطان برسباى قد تملّكه الطمع بحيث لم يكن يريد أن يشاركه أحد فى مكاسبه من الاحتكار ، ومن نظام طرح البضائع ؛ فقد ألغى تلك الحماية فى سنة ٨٢٩ هجرية ، وأصدر أوامره بمنع الأمراء والأعيان من فرض تلك الحماية التى كانوا يستفيدون منها ، كما كان التجار يستفيدون منها بصفة جزئية . ومحيت رنوك الأمراء من على الحوانيت ، والطواحين ، والمعاصر "...حتى يتمكن مباشرة السلطان من رمى البضائع ما بين سكر ، وأرز ، وغير ذلك ... فشمل الضرر كثيراً من الناس لما فى ذلك من الحسارة فى أثمانها ^(١٢٩) .

ويمكن أن نخرج من الأمثلة التي قدمناها في السطور السابقة بنتيجة مؤداها أن نظام "طرح البضائع" كان من الأسباب الرئيسية في تدهور الحياة اليومية في ذلك العصر الملىء بالتناقضات، وكان من العوامل الفعالة التي أدت إلى تكدير الناس ؛ لأن ضرره لم يكن قاصراً على فئة بعينها من الناس من التجار وأصحاب الحرف والصناعات المختلفة ، وإنما كان الضرر والأذى يمتد لقطاعات المجتمع كله .

وربما يمكن أن نضيف إلى التصرفات السلبية من جانب السلطات ، ما كان يحدث أحيانا في وقت الأزمات الاقتصادية ، عندما تحاول السلطات تسعير المبيعات في الأسواق . صحيح أن القصد من وراء مثل تلك الإجراءات لم يكن تحقيق الربح الشخصي ، مثلما كان الحال في نظام "طرح البضائع" ، ولكن النتيجة ، على أية حال ، كانت سلبية وتضر الناس في حياتهم اليومية. وبغض النظر عما كان ينشأ من اختلافات بين الفقهاء في ذلك الوقت حول شرعية التسعير ، أو عدم شرعته ، فالمصادر التاريخية المتاحة تتحدث عن أن السلطة كانت تلجأ للتسعير أحيانا . ومن المهم أن نضع في اعتبارنا أن النصوص الفقهية أو القانونية لا تصنع التاريخ ، وإنما تصنعه تصرفات الإنسان في الواقع الذي يحياه سلباً أو إيجاباً . المهم أن التسعير كان يحدث في بعض المناسبات في عصر سلاطين المماليك^(٣٠) . ولم تكن حالات التسعير آنذاك تسير وفق سياسة مرسومة ، ولكن الأمور في هذا الشأن كانت تتسم بالارتجالية والعشوائية مثل غيره . وربما كانت سياسة التسعير في عصر الدولة المملوكية الأولى (المماليك البحرية) تهدف إلى التقليل من وقع الأزمات الاقتصادية أو شدتها ، كما تشير المصادر التاريخية لتلك الفترة ، ولكن الأمر كان يختلف فيما يتعلق بالتسعير في الدولة المملوكية الثانية (المماليك الجراكسة) ؛ إذ كان الخوف من قرد المماليك الجلبان ، وعصيانهم المتكرر ، وتسببهم في إثارة الشعب والاضطرابات ، بل وانضمامهم في بعض الأحيان للعمامة والزعر والخرابيش في هباتهم واعتداءاتهم على رجال الدولة مثل المحتسب وغيره كما أشرنا في الصفحات السابقة ، كان من أسباب التسعير في ذلك العصر^(٣١) .

ولم يكن التسعير يأتي بما هو مرجو منه دائما ؛ بل كان في بعض الأحيان يأتي بنتائج عكسية . ولدينا الكثير من الأمثلة في مصادر تاريخ ذلك العصر تؤكد هذا . وعلى أية حال ، فسواء كان نظام "طرح البضائع" ، أو التسعير في وقت الأزمات الاقتصادية ، من بين الإجراءات

التي تتخذها السلطة فى إدارة شئون المجتمع ، فقد كانت تلك الممارسات من تجليات عدم الكفاءة والارتجالية (التي كانت من سمات ذلك العصر فى مصر وغيرها من الدول المعاصرة فى الشرق والغرب على حد سواء ، ولم يكن هناك تخطيط سوى فى الشئون العسكرية) ، فضلا عن ميل معظم السلاطين ورجال دولتهم إلى التعامل مع الناس على أنهم رعايا عليهم الامتثال لرغبات حكامهم ، باستثناء بعض السلاطين العظماء مثل الظاهر بيبرس ، والنصور قلاوون ، والناصر محمد بن قلاوون . وعلى الرغم من أننا لم نقدم سوى بعض الأمثلة الدالة فقط ، فإن الواقع التاريخى فى عصر المماليك الجراكسة يقول إن الدولة كانت تمضى بخطى متسارعة نحو التدهور والسقوط ، بسبب مثل تلك التصرفات السلبية من جانب أصحاب السلطة من السلاطين أو من جانب رجال الدولة الآخرين ، والتي أثرت على حياة الناس اليومية وأضررتها كثيرا فى ذلك الزمان^(٣٣) .

وإذا انتقلنا لجانب آخر من جوانب تأثير السلطة على حياة الناس اليومية فى ذلك الزمان ؛ وجدنا بعض الأمثلة الدالة على التدخل فى شئون الناس الشخصية وأذواقهم . وربما كان ذلك يتم بذريعة الحفاظ على الآداب والأخلاق العامة ، وربما كان يتم خوفا من الطاعون ، أو أملا فى رفع غمة المجاعة عن البلاد ، أو الاثنين معا . وقد يتعدى الأمر حدود المعقول حتى بمقاييس تلك العصور التى كانت تتطلب الخضوع الكامل للحاكم ؛ فقد كانت الدولة تتدخل ممثلة فى بعض رجالها ، فيما يرتديه الناس من ملابس وفق صيحة مستحدثة (موضة) ، أو ما شابه ذلك من أمور . فقد حدث سنة ٨٤١ هجرية أن توقف نهر النيل عن الزيادة ، ولاح خطر المجاعة ، ولاح الطاعون بشبحه المخيف . وعقد مجلس حضره بعض الفقهاء وقالوا إن الله سَلَطَ غضبه على الناس بسبب خروج النساء للأسواق وما نسبوه لهن من التبرج ومخالطة الرجال ، وما ينشأ عن ذلك من ممارسات غير أخلاقية . فكان أن أمر السلطان "برسباى" الذى خاف على نفسه من أن يصببه الطاعون (وقد أصيب فعلا فى هذا الوباء وحدثت له اضطرابات عقلية قال المؤرخون إنه أصيب بالمالوخوليا) ، فأمر بمنع النساء من الخروج منعاً مطلقاً : "... فعند ذلك نودى بالقاهرة ومصر وظواهرهما بمنع جميع النساء من الخروج من بيوتهن ؛ فعند ذلك نزل بالأرامل أرباب الصنائع ، ومن يقوم عليها أحد لقضاء حاجتها ، من الضر والحاجة بأس شديد ... وترتبت على هذا الأمر السلطاني أمور اجتماعية أخرى أشد وطأة . فقد كانت هناك نساء تعمل أسرهن وتعملن

بصناعة معينة كما يقول النص "... قلت : كل ذلك لعدم أهلية الحكام ؛ وإلا فالحرة معروفة ولو كانت فى الخمار ، والفاجرة معروفة ولو كانت فى البيت الحرام ... " (٢٣) .

وكان تدخل الدولة يحدث أحيانا بدون أن توجد أسباب لخوف السلطان ، أو قصور نهر النيل ، كما كان الحال فى المثال السابق ، وإنما كانت الدولة تتدخل بسبب انسياق الناس وراء صيحة معينة فى الملابس ؛ مثلما حدث فى أيام السلطان المنصور قلاوون الذى أبطل ما أحدثته النساء فى ملابسهن من صيحة جديدة ، لأن "... الخواتين نساء السلطان وجواريهن أحدثن قمصاناً واسعة تخبّ أذبالها على الأرض بأكمام واسعة ، واسعة الكم منها ثلاثة أذرع فإذا أرخته الواحدة منهن غطى رجلها " وعرف هذا القميص باسم "البهظلة" "... ومبلغ مصروفه ألف درهم فما فوقها ... وتشبهت نساء القاهرة بهن " . ولم يعجب الأمر الوزير منجك ، فعزم على منع تلك الصيحة فى ملابس النساء ، وأمر الوالى يقطع أكمام النساء وأخذ ما عليهن من ثياب . ثم تحدث الوزير منجك مع قضاة القضاة فى ملابس النساء وتكلفتها الغالية فأفتوه جميعاً بأن هذه الأمور من المحرمة التى يجب منعها ، "... فتقرّوا بفتواهم ..." وبعث إلى بيوت أرباب الملهى ، حيث كان كثير من النساء ، فهجموا عليهن ، وأخذوا ما عندهن من هذه الملابس ، وكبسوا مناشر الغسّالين ، ودكاكين البابية وأخذوا ما بها من قمصان الملابس من قمصان النساء التى كانت مخيطة وفق صيحة الملابس الجديدة "... فامتنع خروج النساء إلى الأسواق ، وركوبهن حمير المكارية ..." (٢٤) .

فى هذا المثال الذى قدمه المقرئى فى كتابه "السلوك لمعرفة دول الملوك" ، نشهد تدخل الدولة بشكل سافر فى حياة الناس الشخصية وذوقهم فى اختيار ملابسهم تحت غطاء من الفتاوى الدينية التى كان معظم الفقهاء جاهزين ومستعدين لتقديمها إرضاء لأصحاب السلطة من كبار الأمراء ، أو السلطان نفسه. فقد كانت النساء تقلدن الصيحة (الموضة) التى أبتكرتها سيدات القصر وجواريهن ، ولم تكن تلك النساء هن اللاتى ابتدعن تلك الصيحة ، ولكن الوزير كان حانقاً لسبب غير واضح لا سيما أنه لم يشر لخروج تلك الملابس عن أصول الحشمة مثلاً ، أو لأنها تكشف عن مفاتن الجسد ، وساعده الفقهاء المترمتون المستعدون دائماً لتنفيذ رغبات أصحاب السلطة . وقامت حملة ضارية لمنع قمصان "البهظلة" فى ملابس النساء ، وامتدت أضرار تلك الحملة الضارية إلى فئات أخرى من الناس الذين لم يكن لهم أى ذنب سوى أنهم كانوا يقومون بعملهم المعتاد فى حرفهم التى يتعيشون منها : كالخياطين ، وأصحاب مناشر الغسيل من

الفسالين الذين يغسلون ملابس الناس لقاء أجر معلوم ، وأصحاب دكاكين البابية الذين يقومون بكي الملابس وصقلها ؛ بل طال الأمر المكارية الذين يؤجرون حميرهم للركوب ، مما أضرت تلك الفئات من الناس الذين لم يرتكبوا ذنباً . ومن المثير حقاً أن مؤرخنا الكبير لم يشر من قريب أو بعيد إلى أن السلطان المنصور قلاوون منع نساءه ، أو جواربهن ، من ارتداء تلك القمصان التي كانت سبباً في تلك الزويعه .

ولا بأس من أن نكرر ما سبق أن ذكرناه من أنه لم تكن هناك سياسة ثابتة يجرى تطبيقها في هذه الأمور . فقد حدث في أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن استحدثت النساء صيحة في ملابسهن وأحذيتهن ، كانت تتكلف مبالغ طائلة ، فقد ابتكرت النساء "المقنعة والطرحة" التي كانت تتكلف حوالى عشرة آلاف درهم حسبما يقول المقرئى ، كما ارتدين الفرجيات الفاخرة ، واستجذت أيضاً النساء في أيام هذا السلطان الخلاخيل الذهب ، والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة ، والبقاقيب المرصعة بالجواهر ، والأحذية المرصعة بالجواهر والذهب^(٣٤) . ولم يحدث في ذلك الوقت أن تدخلت الدولة ، أو الفقهاء ، لمنع هذا على الرغم من الكلفة الكبيرة التي أشار إليها المقرئى ؛ مما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الأمر كان يتوقف على رأى بعض رجال الدولة ، ومواقفهم وانفعالاتهم لسبب أو لآخر .

وربما كانت تتدخل الدولة في هذا الصدد لأسباب غريبة مثلما حدث في سنة ٦٦٢ هجرية ، أيام السلطان الظاهر بيبرس ، عندما نودى في القاهرة ومصر أن امرأة لا تتعمم بعمامة ، ولا تنزى بزى الرجال ، ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة أيام سلبت ما عليها من كسوة^(٣٥) . ولسنا نعرف السبب في هذا الإجراء على وجه اليقين ؛ ربما لم يكن السلطان يريد للنساء أن يتشبهن بالرجال ، ولكنه في التحليل الأخير كان شكلاً من أشكال التدخل في حياة الناس الخاصة بحكم ما ساد في ذلك العصر من مفاهيم اختلفت بالضرورة عن المفاهيم التي تحكم عصرنا الحالى .

وربما جاءت بعض تدخلات الدولة في بعض الأحيان في صالح الناس مثلما حدث في سنة ٧١٢ هجرية ، عندما ألغى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، في سلطنته الثالثة والأخيرة ، عدداً كبيراً من المكوس والضرائب التي كانت عبئاً ثقيلاً على جميع فئات الناس في مصر في ذلك الوقت ؛ فقد ألغى عدة ضرائب مثل ما كان يؤخذ على ساحل الغلال .. وكان الناس منها في أنواع من الشدة لكثرة المغارم والتعب ، والمظالم ، فإن أمرها (أى الضريبة المفروضة على

ساحل الغلال) كان بدور ما بين ظلم النواتية فى المراكب ، والكيالين ، والمشددين ، والكتاب . وكان المقرر على كل أردب درهمان للسلطان ، ويلحقه نصف درهم آخر ، سوى ما ينهب ، وكان له ديوان خارج القس .. وكانت الغلال الواردة من الأقاليم لا تباع إلا فيه .. " (٣٧) . ونستدل من كلام المقرئى ، أن هذه الضريبة التى أبطلها الناصر محمد ، كانت تؤخذ على ما يرد إلى ساحل الغلال (وهو الاسم الذى ما يزال يطلق على الشارع الذى يقع خلف فندق هيلتون رمسيس ويفصل بين الفندق والملحق التجارى الذى يقع خلفه على بعد خطوات من مبنى الإذاعة والتليفزيون) ؛ فقد كانت الغلال الواردة من كل الأقاليم تباع فى هذا المكان . وكانت الضريبة عن كل أردب يباع درهمان بضاف إليهما نصف درهم (أى ٢٥٪) بخلاف ما كان ينهب ممن كان يبيع غلاله . وقد أوضح مؤرخنا أن الظلم كان موزعا بين رؤساء المراكب التى كانت تشحن الغلال فيها والكيالين الذين يكبلون القمح ومغالطاتهم ، والمشددين (أى الموظفين المشرفين على الضريبة) والكتاب (أى الموظفين الذين يسجلون عمليات البيع ، والضرائب المتحصلة من ذلك) وكان لهذه الضريبة ديوان مستقل عن سائر القس (الجمارك) . ومن هنا نرى أن هذه الضريبة وحدها كانت تسبب للناس المشقة والتعب . ولابد أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما ألغاهها قد ترك أثرا حميدا على الناس فى ذلك الوقت .

كانت هذه ضريبة واحدة من الضرائب التى ألغاهها السلطان الناصر محمد بن قلاوون بما كانت تسببه من متاعب ومظالم للناس ، فما بالنا بالضرائب الأخرى التى ألغاهها ؟ فقد ألغى أيضا ما كان يسمى "تصف السمسة" ؛ وهى ضريبة كانت تؤخذ من كل من كان يبيع شينا أيا كان . ولم يكن البيع يتم سوى من خلال سمسار "دلال" يأخذ سمسته على ما يباع بقيمة درهمين على كل مائة درهم (٢٪) ؛ يؤخذ منها درهم للسلطان ويأخذ الدلال الدرهم الثانى "... فصار الدلال يحسب حسابه ويخلص درهمه .." أى يأخذ حسابه قبل الضريبة المستحقة للسلطان . وكانت هناك ضرائب كثيرة أخرى أبطلها السلطان محمد فى تلك السنة منها : رسوم الولايات ، والمقدمين ، والنواب ، والشرطة ... فتجيبى من عرفاء الأسواق ، وبيوت الفواحش ؛ وكان فيها من الظلم والعسف وهتك الحرم ما لا يوصف . ومن تلك الضرائب الملغاة أيضا "مقرر السجون" ، وهى ضريبة كانت تؤخذ من كل من يسجن ، ولو لحظة واحدة ، " .. سوى ما يغرمه .." وكانت تلك الضريبة تجبى من كل السجون فى جميع أنحاء البلاد .. وقد ألغى الناصر محمد ضرائب أخرى كثيرة (٣٨) .

يتضح لنا من هذا النص مقدار ما كان الناس يتحملونه من مظالم ومغارم قبل أن يقوم الناصر محمد بن قلاوون بالغائها . فبعد أن استقر هذا السلطان فى الحكم ، وتخلص من الأمراء الذين اغتصبوا الحكم منه مرتين ، حرص على أن يفعل شيئا طيبا أحدث تأثيرا جيدا على الحياة اليومية. وقد حرصنا على تقديم التفاصيل الخاصة بواحدة فقط من تلك الضرائب لكى نبين مدى التأثير الحسن لتصرفات السلطان محمد فى هذا الصدد . ومن ناحية ثانية كان الناصر محمد قد أبطل أيضا فى سنة ٧١٠ هجرية "مكس الملح" وهى ضريبة كانت تؤخذ على الملح فى القاهرة وأعمالها فرخست أسعار الملح كثيرا بعد إلغاء تلك الضريبة .

وكان الناصر محمد قد شفى من مرض كان قد أصابه ، ولما شفى من مرضه جلس يوم عيد الأضحى فى سنة ٧١٢ هجرية ، وتعبيرا عن الفرحه بالشفاء أفرج عن "أهل السجون" ، كما نودى بالقاهرة ومصر بالزينة ابتهاجا بالمناسبة ^(٣٩) .

لكن مثل تلك التصرفات الطيبة من جانب سلاطين المماليك كانت قليلة لاسيما فى عصر المماليك الجراكسة الذين كانوا يتفننون فى نهب الناس ، وتحولت العلاقة بين الجراكسة والناس الذين يحكمونهم فى أواخر ذلك العصر إلى علاقة نهية بكل ما تحمله الكلمة من معانى ؛ وفى سنة ٨٣١ هجرية ، بدأ هدم مساكن بعض الناس فى مكان يسمى "خان الحجر" بالقاهرة ، لأن السلطان برسباى أخذ الخان المذكور لنفسه ، وألزم سكانه بالانتقال منه .. وكانوا عددا كبيرا قد مرت بهم وبآبائهم عدة سنين وهم يسكنون هذا الخان ... فنزل بهم مكاره عديدة ... لعدم وجود مساكن يسكنون بها . ولم يكن ذلك السلطان الجشع ليعبأ بهؤلاء الناس أو بغيرهم . وقد عبر تقي الدين المقرئى عن ألمه وعن حزنه لما جرى على هؤلاء الناس من ظلم السلطان ^(٤٠) .

وقد وصلت تصرفات ذلك السلطان غير المعقولة ، أو المقبولة ، إلى درجة من السخف والغرابة بحيث أن المؤرخين لم يستطيعوا كتمان مشاعرهم الغاضبة ، والتى تفيض بمشاعر الاستياء والاستنكار من تصرفات السلطان الشاذة ؛ وفى سنة ٨٣٠ هجرية ، " ..اتفق فيه حادث شنيع .." على حد تعبير مؤرخنا الكبير تقي المقرئى ؛ فقد اجتمع عدد من الأمراء الجراكسة السلطانية بحضرة السلطان لسبب ما " .. وانكشف رأس أحد أمراء المماليك الجراكسة فسخر منه الأمراء الموجودون عند السلطان .." فما كان من ذلك الرجل إلا أن طلب من السلطان أن " .. يجعله

كبيراً للقرعان ، وبولييه عليهم .." ومن الغريب أن السلطان برسباى وافق على طلبه .." وكتب بذلك مرسوم سلطاني . فنزل ذلك الأمير الأقرع فى اليوم السابع والعشرين من شهر رجب ، وشق القاهرة، وصار يأمر كل أحد بأن يكشف رأسه لكى يرى ما إذا كان أقرع أم لا وفرض مبلغا من المال يأخذه جباية على كل من هو أقرع ... وقد فرضت تلك الجباية الغربية على كل المصريين ... ثم زاد الأمر عن الحد ؛ فقد كان يطلب النقود ممن هو أصلع ، أو حتى أجلع (الذى ينحسر شعره على جانبيه رأسه) وكأنه أقرع .. فكان هذا من شنائع القبايح ، وقبايح الشنائع .." ويبدو أن الأمر قد زاد فحشه ، وضع الناس بالشكوى ، وسعى كبار الأمراء عند "برسباى" لوقف تلك المهزلة الشنيعة القبيحة المستمرة ، فنودى بالقاهرة .." معشر القرعان لكم الأمان .." (١).

هذا المثال الصارخ يكشف عن أن "برسباى" قد وصل به الاستهتار بالناس وحياتهم اليومية إلى هذه الدرجة المخيفة ، ويزيد من معاناتهم لا شئ سوى السخرية والضحك بشكل يحمل من الاستهتار والسخف ما كان يشير الاستنكار من جانب المعاصرين الذين لم يتقبلوا تلك التصرفات حتى بمعايير تلك العصور التى كانت تسلم بحق الحاكم فى التصرف المطلق ؛ بدليل الكلمات الحانقة الغاضبة التى وصف بها المقرئ ذلك التصرف (ومن المؤسف أن مثل هذه الأمور تحدث اليوم فى أماننا هذه فى نهاية العقد الثانى من القرن الحادى والعشرين ، ولسنا فى السنوات الأخيرة من عصر سلاطين المماليك) فقد عانى الناس كثيرا بسبب تصرفات "برسباى" الذى لم يكن يهمه سوى رغباته . بيد أن الناس فى أواخر ذلك العصر لم يكونوا يسكتون على ما ألم بالحياة اليومية من تدهور ؛ فقد زاد تصديهم للسلطة ورجالها ، وكثرت حوادث قتل المماليك دون معرفة الفاعل ، وتواترت أخبار مثل تلك الحوادث فى مصادر الفترة الأخيرة من عصر الجراكسة بحيث نخرج من قراءة ابن إياس ، مثلاً ، بانطباع أن الدولة غائبة أو غير موجودة . ويجب أن نقرر أن ذلك السلوك الشاذ لم يحدث سوى من سلطان واحد وحيد هو "برسباى" .

وكما أوضحنا فى الأمثلة التى قدمناها فى الفصل الثانى من هذه الدراسة ، كانت ردود أفعال الناس أحيانا تتسم بالعنف ؛ ففى سنة ٨٥٣ هجرية على سبيل المثال ، تشاءم الناس من المحتسب ، وزاد مقتهم له خصوصا بعد أن احتكر القمح وتسبب فى رفع سعر الخبز ، وتجمهر الناس فى أعداد غفيرة .. من داخل باب زويلة إلى القلعة... وهم يصيحون ويلعنون ويسبون... ثم رجموه بالحجارة ، وانضمت إليهم طائفة من المماليك .. وأحكموا ذله بالمشى ، والعزى ،

والضرب من سائر الأركان ... وانتهى الأمر بعزله " (١٢) . وتتعدد الأمثلة التاريخية عن ثورة الناس من التصرفات السلبية لأصحاب السلطة ، خاصة فى العقود الأخيرة من ذلك العصر ، عندما أخذ يلوح فى الأفق شبح سقوط الدولة واضحا فى كل جوانب الحياة اليومية ورأى الناس فى الدولة الظالمة وحشاً لا يستحق الإنقاذ .

وفى بعض الأحيان كان رجال السلطة يصدرن أوامر لا معنى لها ولا ضرورة تستوجبها ، ولكنها لم تكن أبدا لتصل إلى ما فعله "برسباى" . من ذلك ما حدث سنة ٨٢١ هجرية فى سلطنة المؤيد شيخ ، عندما نودى بالقاهرة أنه يجب على جميع الباعة " ... من الجبائين ، والطباخين ، والخبازين ، واللحامين (بائعو اللحوم) ... ونحوهم ، بحمل كل منهم عشرة مسارح إلى بولاق ، لتعرض على الأمير تاج الدين الشوبكى ... وفى اليوم التالى كان الوعيد ببر منبابة (إمبابة) ، وحولهم جميعا من السخف ما لم نعهد مثله قط .. " (١٣) ومن المؤكد أن مثل تلك التصرفات الحمقاء التى وصفها المقرئى بالسخف الذى لم ير له مثيلا من قبل ، كانت تترك فى نفوس الناس الذين ينتمون لأصحاب الحرف التى ذكرها المقرئى تأثيراً سلبياً ، وتؤثر فى حياتهم اليومية تأثيراً سيئاً مما كان يزيد من حقنهم على الدولة الغارية .

ولدينا مثال صارخ يدل على مدى ما كان الناس يكتونه من مشاعر الحقد والحقد والغيط لبعض المسؤولين فى حياتهم ، وبعد موتهم ، بسبب ما اقترفوه فى حق الناس من إساءة ، وما ارتكبه من قبائح ومظالم . فتملكتهم الرغبة فى الانتقام والتشفى . فقد كان السلطان الناصر محمد بن قلاون قد أجلس على عرش البلاد وهو طفل عمره تسع سنوات فقط فى سنة ٦٩٣ هجرية ، واتفق كبار الأمراء على تقسيم مناصب الدولة فيما بينهم : فيكون "الأمير زين الدين كتبغا المنصورى" نائب السلطنة ، والأمير "علم الدين سنجر الشجاعى" وزير الدولة ومديرها ، ويكون "الأمير ركن الدين بيبرس (الجشنكير) الدوادار ... وسرعان ما دب الخلاف بين المفتصين الثلاثة للفرز بعرش السلطنة . وزادت سطوة سنجر الشجاعى .. وسولت له نفسه أن يستبد بالسلطنة .. " وأخذ يعد العدة للتخلص من كتبغا ، وبدأت الاضطرابات والمؤامرات تطل برؤسها القبيح ... ولكن الصراع فى هذه المرحلة انتهى بمصرع الشجاعى . وفى أثناء الحصار الذى فرضه خصومه عليه فى القلعة ، خرجت أم السلطان الطفل محمد بن قلاون تسأل الأمراء الذين يحاصرون القلعة عما يريدونه ؛ فأجابوها أنهم يريدون التخلص من سنجر الشجاعى وزير الدولة

ومديرها ، وقالوا : "ولو بقى فى بيت أستاذنا (المنصور قلاوون) بنت عمياء ، كنا بمالكها ، لاسبعا وأن ولده الناصر حاضر وفيه كفاية.." . ثم أغلقت أم السلطان الطفل باب القلعة من إحدى الجهات ، وتصاعدت الأحداث بالشكل الذى أدى إلى قتل الشجاعى ، وفصلت رأسه عن جسده ولُفَّت الرأس فى بقعة حملها أحد المماليك . وقال الفارس الذى حمل الرأس عندما سأله المماليك الذين كانوا يحاصرون القلعة: "ما معك ؟" مجيباً على سؤالهم : "خبز ساخن أرسله السلطان إلى الأمراء ليعلموا أن عندنا الشئ بكثرة ." فصدقوه ، وخلص منهم ^(١٤١) .

المهم فى هذه الحكاية كلها ، والتي حرصنا على سرد تفاصيل جزء منها ، أن الشجاعى المقتول كان مكروها من جميع طوائف الناس فى مصر ، ورأوا فى مقتله مناسبة تبعث على الفرح والשמاعة . فقد وضع المشاعلية الرأس على رمح ، و طافوا به أنحاء القاهرة ومصر ، ... ولم يدعوا زقافا حتى طافوا بالرأس فيه ، وجبوا عليه مالا كثيرا .. وفى الناس من كان يضربه بالمداسات ، ومنهم من بصفعه وسببه ، وصاروا يقولون هذا رأس الملعون الشجاعى ، وسر كثير من الناس لموته ؛ فإنه أكثر من المصادرات ، ونزع الظلم والعسف أنواعا ... وقد بلغت اللطمة على وجهه بالمداس نصف درهم ، والبولة عليه درهما . وقد حصل المشاعلية الكثير من المال..." بسبب كراهية الناس لذلك الظالم الذى قتل ^(١٤٢) . كان هذا المشهد الفظيع تعبيراً عن كراهية الناس وحقدهم على واحد من رجال السلطة تسبب فى كثير من وجوه الظلم التى كدرت حياة الناس اليومية فترة من الوقت ، عندما اغتصب العرش عدد من كبار أمراء المماليك من السلطان الطفل، ولم يكن أي من المعتصين أهلاً للحكم ، أو على استعداد لتحمل مسئولياته ، مما أدى إلى المزيد من الارتباك والفوضى ، وكان من الطبيعى أن ينتهى الأمر بمصرع الغاصبين الثلاثة ، بعد أن تولى كل منهم الحكم لفترة قصيرة ^(١٤٣) .

ولم تكن مثل تلك الأمور العنيفة ، والصراع على السلطة ، أو اغتصاب الحكم من الحاكم الشرعى ، الأحداث الوحيدة الجديرة بالاهتمام فى مصر آنذاك ، كما لم تكن النشاطات الوحيدة التى كان الناس يتابعونها فى حياتهم اليومية . فقد كانت المكتبات ، وسوق الكتب "سوق الكتبيين" و"سوق الوراقين " من أهم المنشآت فى المدن المصرية ، وخاصة فى العاصمة . وقد خصص المؤرخ تقي الدين المقرئى حيزاً لابأس به للحديث عن سوق الكتب فى الخطط المقرئية باعتباره من أهم المنشآت ، ومن المعالم المهمة فى القاهرة . وقد تحدث "ابن سعيد المقرئى" ،

الذى زار مصر بصحبة أبيه "موسى بن محمد بن سعيد" سنة ٦٣٩ هجرية ، وبقي بها فترة من الوقت حتى سنة ٦٤٤ هجرية (والجدير بالذكر أن هذا الرجل كان الأخير من سلسلة مؤلفين من عائلته ألفوا الكتاب الموسوم " المغرب فى حلى المغرب " على مدى مائة وخمسة عشرة سنة ، وقد اختار ابن سعيد المغربى للجزء الذى كتبه عنوان "النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة" (٤٧) . وأشار هذا المؤرخ إلى المصانع التى كان يصنع بها الورق المنصوري كانت موجودة فى الفسطاط ، ولم تكن مصانع الورق مصانع بالمعنى المعروف لدينا فى هذا العصر ؛ بل كانت منشآت بسيطة وصغيرة يتم العمل فيها يدويا ، بدليل أن هذا المؤرخ ذكرها تحت عنوان "المطابخ التى يصنع بها الورق المنصوري" ومن المؤسف أن هذا المؤرخ لم يذكر لنا شيئا غير هذه العبارة الخاطفة مقرونة بالحديث عن "مطابخ السكر" فى الفسطاط .

ومن ناحية أخرى ، نجد المؤرخ ابن حجر العسقلانى ، يهتم بمتابعة ما كان يحدث فى مكتبات القاهرة ، عندما يذكر فى حوادث سنة ٧٢٦ هجرية أن خازن الكتب فى المدرسة المحمودية ، ظاهر القاهرة ، قد تعرض للعقاب ؛ وضرب بين يدي السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وكان البعض قد شكوه أنه فرط فى الكتب الموقوفة .. وهى من أنفس الكتب الموجودة الآن بالقاهرة ، لأنها من جمع القاضى برهان الدين بن جماعة .." ووجد أنها نقصت عشر الكمية لأنها كانت أربعة آلاف مجلد ، نقصت أربعمائة فألزم بقيمتها أربعمائة دينار ، فباع فيها موجوده وداره .." (٤٨) .

ومن الأمور المتعلقة بسوق الكتب (سوق الكتبيين) التى كانت منشأة مهمة جدا فى ذلك الزمان ، والتى اهتم بأخبارها كبار المؤرخين فى ذلك العصر مثل تقي الدين المقرئى ، وابن حجر العسقلانى ، وابن الصيرفى وغيرهم بتتبع تطورات مبناها ؛ ففى حوادث سنة ٨٢٧ هجرية ، فى عهد السلطان برسبای ، كتب المقرئى وابن الصيرفى ، عن نقل "سوق الكتبيين" من مكانها الذى كان مقابل "سوق الصاغة" بالقاهرة إلى سوق باب الزهومة ، وكان يحيط بها "سوق الأمشاطيين" و"سوق النقّليين" . وقد وصف المقرئى "سوق باب الزهومة" بأنه كان من أجل أسواق القاهرة وأفخرها ، موصوفاً بحسن المآكل وطيبها . وكانت سوق الكتبيين من قبل موجودة فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية . وقد بنيت بعد سنة سبعمائة هجرية ، حسبما ظن المقرئى ، وكانت سوق الكتب قد نقلت من موضعها الذى كانت به إلى قيسارية أخرى كانت موجودة بين "سوق الدجاجين" المجاور للجامع الأقمر فى وسط القاهرة آنذاك ، وسوق الحصريين (المخصص لبيع

الحصر) . ولكن تلك القيسارية كان يعلوها ربع سكنى يسكنه عدد من الناس . ويبدو أن المساكن كانت تتسبب في تسرب المياه ، فتضررت الكتب بفعل الرطوبة التي كانت تتسرب إليها من أقبية البيوت ، وفسدت بعض الكتب الموجودة في دكاكين سوق الكتبيين ؛ فعادوا إلى المكان الأول الذي كانت فيه سوق الكتب من قبل نقلها لتلك القيسارية التي كان فيها تسرب المياه التي أفسدت بعض الكتب . وأعيدت إلى المكان التي كانت به زمن تقي الدين المقرئى .

وقال ابن الصيرفى إن سوق الكتبيين التي انتقلت إلى مكانها الجديد فى القيسارية الجديدة بخط الزهومة " ... جاءت من أحسن ما بنى بالقاهرة .. " (٩١) . وذكر المقرئى فى خطه أن سوق الكتب " ... ما برح مجمعا لأهل العلم يترددون إليه ... " (٩٢) . مما يدل على أن سوق الكتب لم تكن مجرد مكان لبيع وشراء الكتب ، وإنما كانت المكان الذى يجتمع فيه أهل العلم وأرباب الأدب والمثقفون ومن على شاكلتهم من الناس ، وربما كانت تدور بين من يترددون على "سوق الكتبيين" المناقشات والمناظرات العلمية والأدبية التي كانت من معالم الحياة اليومية للفئة المثقفة فى المدن المصرية .

ومن ناحية أخرى ، قدم لنا المقرئى ملخصا عن تاريخ سوق الكتبيين فى العاصمة المصرية ، فقال إنها كانت موجودة فى الفسطاط (مصر القديمة) قبالة الجانب الشرقى من جامع عمرو بن العاص ، فى أول زقاق القناديل . وقال المقرئى أيضا إن هذه السوق ظلت موجودة حتى سنة ٧٨٠ هجرية ، وأنه قد ذهب هناك عدة مرات " .. وأدركت فيه بقية بعد سنة ثمانين وسبعمائة ، وقد دثر الآن ، فلا يعرف موضعه " . ومن الواضح حسب كلام المقرئى أن سوق الكتب فى الفسطاط كانت غير سوق الكتب فى القاهرة . وقد سجل المؤرخ الكبير عدة أبيات من نظم شاعر امتدح سوق الكتب :

مجالسة السوق مذمومة ومنها مجالس قد تحتسب

فلا تقرن غير سوق الجياد وسوق السلاح وسوق الكتب

فهاتيك آلة أهل الوغى وهاتيك آلة أهل الأدب (٩٣)

وقد تحدث المقرئى عن سوق الوراقين أكثر من مرة ، ومنها مرة عندما كان يتحدث عن قيسارية طاشنمر (التي كان بها عدد من العقادين وصناع الأزارار) فقال إنه مرّ بتلك القيسارية عدة

مرات"... وطالما مررت بها إلى سوق الوراقين ، وداخلنى حياء من كثرة من أمر به هناك "١٢١".
ومن كلام المقرئى نعرف أنه كان يتردد كثيرا على سوق الوراقين ، بحكم ارتباط عمله بتلك
السوق . وما لاشك فيه أن مؤرخنا الكبير لم يكن هو الوحيد الذى كان يتردد على تلك السوق
ولكنه الوحيد الذى أشار إليها ولكنه لم يذكر أى تفاصيل .

ومن المهم أن نشير فى الختام إلى أن تأثير السلطة على الحياة اليومية فى مصر فى عصر
سلاطين المماليك ، كان متنوعاً وفيه قدر من التناقض ، وهو ما يتسق مع منطق ذلك العصر الثرى
المشبع من ناحية ، ومع طول الفترة الزمنية التى شغلها ذلك العصر فى تاريخ مصر الطويل من
ناحية ثانية ، والفوارق الكثيرة بين عصر المماليك البحرية ، وعصر المماليك الجراكسة من ناحية
ثالثة . ومن المهم أن نشير إلى أن تصرفات السلطة كانت فى بعض الأحيان تترك أثراً طيباً على
الناس وحياتهم اليومية . ولم تكن تترك سوى تأثيرات سيئة فى أحيان أخرى . فلم تكن الأمور
كلها مرتبطة بالجوانب السياسية والإدارية والمالية من جوانب متعددة ، وتكون متضاربة فى أحيان
كثيرة ، ولكن جوانب أخرى ، كانت تلقى عناية بعض السلاطين وتترك تأثيرات طيبة حتى فى
السنوات الأخيرة التى شهدت غروب شمس الدولة واقترب النهاية .



من داخل إحدى المكتبات

هوامش الفصل الرابع

- (١) العيني ، عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ؛ المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٣٨ - ص ٩٣٩ .
- (٢) قاسم ، عصر سلاطين المماليك ، ١٢٩٠ - ص ١٣٠ .
- (٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٩ .
- (٤) تاريخ ابن الفرات ، ص ١٩٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٣ .
- (٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، صفحات ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ . (طبعة كاليفورنيا) .
- (٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .
- (٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٢١٩ .
- (٨) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ٢٠٤ ؛ المقرئى ، السلوك ، ج ٦ ، ص ١١١٣ - ١١١٤ .
- (٩) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٦٤ ؛ السيوطى ، كوكب الروضة ، ورقة ٧٤ (مخطوط) .
- (١٠) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٢١ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٥١٢ - ٥١٣ .
- (١١) ابن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، ص ٨٧ ؛ ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج ٤ ، ص ١١٥ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٢٣٣ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٧ - ٤٨ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٠١ .
- (١٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ .
- (١٣) جاستون فييت ، القاهرة ، ص ٩٣ - ٩٤ . وقد وصف بعض الرحالة الأوربيين الاحتفال بكلمات مشابهة ، انظر : آن وولف ، كم تبعد القاهرة ؟ ص ١٩٨ .

(١٤) المقرئى ، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص ١١ ؛ السبكى ، حسن المحاضرة ،

ج ٢ ، ص ٨٨ .

(١٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٥٧-٥٨ ؛ ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٩٩ -

ص ٢٠٠ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١١٩ ؛ ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ٤٢-٤٣ ؛ ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٥ .

(١٦) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٥٨٧ ؛ ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ ؛

السخاوى ، النبر المسبوك ، ص ٢٠١ ؛ المقرئى ، الذهب المسبوك ، ص ٤٣-٤٤ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٨٨ .

(١٧) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ٤٥٠ .

(١٨) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٣ .

(١٩) نفسه ، ج ١ ، ص ٦١٢ .

(٢٠) نفسه ، ج ١ ، ص ٦٤٨ .

(٢١) نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .

(٢٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٦٩ .

(٢٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٤٦-٤٧ ؛ المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٥٠-١٥٣ .

(٢٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٩٥ ، ٧٣٨ .

(٢٥) نفسه ، ج ٤ ، ص ٧٢١-٧٢٥ .

(٢٦) نفسه .

(٢٧) ابن إمام ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٦١ .

(٢٨) ابن الصيرفى ، إنباء الهجر ، ص ٢٦١ .

(٢٩) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٢١ .

(٣٠) السبكى ، معبد النعم ، ص ٩٢ .

(٣١) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، صفحات ، ٤٢ ، ٤٣ ، ١٢٥ ، ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٣٢) العينى ، عقد الجمان ، حوادث ٦٦٢ هجرية : المقرئى ، إغاثة الغمة ، ص ٣٣ : ابن تغرى بردى ،

النجوم الزاهرة . ج ٧ ، ص ٢١٤ : النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٢٧ : المقرئى ج ١ ص ٧٠٦

(٣٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٥ ، ص .

(٣٤) نفسه ، ج ٢ ، ص ٨١٠ .

(٣٥) نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٣٦ .

(٣٦) نفسه ، ج ١ ، ص ٥٠٤ - ٥٠٨ .

(٣٧) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٠ - ١٥٣ .

(٣٨) نفسه : ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٦٢ .

(٣٩) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٤٠) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٦٥ .

(٤١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٤٥ .

(٤٢) السخاوى ، التبر المسبوك ، ج ٢ ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٤٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٣٥ .

(٤٤) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٢٦٧ - ٢٨٢ : المقرئى ، السلوك ، ج ١ - ٨٠٠ ، ص ٨٠٦ .

(٤٥) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٨٠٢ : ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٥٢ .

(٤٦) قاسم ، عصر سلاطين المالك ، ص ١٢٨ - ١٣١ .

(٤٧) ابن سعيد المغربي ، النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة (تحقيق الدكتور حسين نصار) دار الكتب

(٤٨) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ٣ ، ص ٢٩٩.

(٤٩) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ : المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٨٥ .

(٥٠) المقرئى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٣٨ - ص ٣٣٩ .

(٥١) نفسه .

(٥٢) نفسه .

دفتر الطلاب العلم

مكتبة الباحث

محرر بحثنا

خاتمة

الحياة اليومية موضوع حيوى ومثير من موضوعات التاريخ الاجتماعى ، وقد تناولنا الجوانب المهمة في هذا الموضوع من خلال أربعة موضوعات شملتها فصول الكتاب. وقد حاولنا رسم صورة متكاملة فى هذا الموضوع من خلال الحديث عن الحياة اليومية فى المدن المصرية والمنشآت الموجودة بها: مثل الأسواق والقياسر والخانات ، ومن خلال الحرف والصنائع التى اشتغل بها عدد من سكان القاهرة والمدن المصرية الأخرى، ثم تحدثنا عن شكل الحياة داخل المدن المصرية من حيث ممارسات سكان المدن فى حياتهم الاجتماعية ووسائل التسلية والترفيه البرى منها وغير البرى، ثم الحديث عن الخمر والحشيش ، والأماكن المشبوهة فى المدن. بعد لك تحدثنا عن الحياة فى الريف من جميع الوجوه والجوانب التى حاولنا عن طريقها رسم صورة الحياة فى الريف المصرى فى عصر سلاطين المماليك، وأخيراً رصدنا تأثير تصرفات أصحاب السلطة، من السلاطين وكبار رجال دولتهم، فى الحياة اليومية فى مصر آنذاك.

وقد توصلنا من خلال الدراسة التى لخصنا خطوطها العريضة فى السطور السابقة، إلى أن الناس فى المدن المصرية عاشوا فى بداية عصر سلاطين المماليك حياة ملوها الوفرة فى ظل دولة يحكمها سلاطين عظماء أقوياء : مثل السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى، والسلطان المنصور قلاوون، وابنه السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وقد انعكست هذه الوفرة والسلطة القوية على حياة الناس فى المدن لا سيما فى عصر الدولة المملوكية الأولى، التى كانت دولة قوية قادرة فى الداخل ، مهابة مرهوبة الجانب فى الخارج؛ فقد كانت دولة سلاطين المماليك البحرية قوة إقليمية عظمى وانعكس ذلك على الحياة فى داخل المدن والقرى المصرية من ناحية، وعلى العناية بوسائل ضبط النهر والرى ؛ بحيث كان النهر فى السنوات العادية يوفر الماء اللازم لرى جميع الأراضى الزراعية عندما يصل المنسوب فى مياه الفيضان إلى ستة عشر ذراعاً . وكانت علاقة الناس بحكامهم تقسم بقدر كبير من المسئولية من جانب السلاطين ورجالهم فى الإدارة المالية والسياسية والإدارية لشئون البلاد ، ويلتف الناس من جانبهم حول الحكام ، فكانوا يخرجون متطوعين للجهاد

منذ بداية الدولة بحيث كانوا يخرجون فى البحر للجهاد ، وفى البلاد كانوا يحتفلون بكل مظاهر الفرح والمتعة فى البلاد بالمدن والقرى المصرية.

ومن ناحية أخرى ، كانت الحياة فى الريف تسير فى إيقاعها العادى . وعلى الرغم من أن الأراضى الزراعية كانت موزعة بين إقطاعات الأمراء فى الريف ، لأن النظام السياسى والاقتصادى فى تلك الدولة ، كان قائما على النظام الإقطاعى ، فإن أحوال الفلاحين لم تتدهور وتسوء سوى فى عصر الدولة المملوكية الثانية؛ فقد تدهورت إنتاجية الأرض الزراعية بسبب إهمال ضبط نهر النيل ، وسرقة المواشى والجراريف المخصصة لاقامة الجسور ووسائل الري وتنظيف الترع والخلجان ، وما أدى إليه ذلك بالضرورة من تدهور فى شئون البلاد كلها .

وقد ناقشنا أعمال الفلاحين ، والصناعات الموجودة فى الريف ، سواء فى الوجه البحرى أو فى الوجه القبلى . ومدى ازدهار ذلك فى بداية عصر سلاطين المماليك ثم تدهورها فى القرن الأخرى من عمر تلك الدولة الذى امتد فى رحاب الزمان ثلاثة قرون تقريبا ، وخرجنا من هذه الدراسة بنتيجة مؤداها أن عصر الجراكسة كان ، فى معظمه ، عصرًا من التراجع والتدهور . وانعكس ذلك هروب الفلاحين من قراهم بسبب سوء الأحوال المعيشية من ناحية ، وسوء الإدارة وفساد المسؤولين عن الريف من ناحية أخرى . وكانوا ينضمون إلى عصابات اللصوص وقطاع الطرق ، أو ينضمون إلى الشحاذين ، والعاملين فى المهن الدنيا فى العاصمة ، وربما كانوا يرحلون إلى العاصمة المصرية ضمعا فى الحصول على الطعام الذى يوزع أحيانا بصفة مجانية لاسيما فى بداية ذلك العصر .

كذلك اتضح من هذه الدراسة للحياة اليومية فى مصر آنذاك ، أن الاحتفال بوفاء نهر النيل ، أو الاحتفال بدوران المحمل ظل محل اهتمام الجميع فى مصر من الحكام والمحكومين حتى السنوات الأخيرة من ذلك العصر الحافل بالتناقضات والأمور المثيرة ، كما كان الناس يقبلون على المشاركة فى التظاهرات السياسية لاستقبال السلاطين فى مناسبات متنوعة مثل عودة السلطان الظافر فى حربه ، أو عودته من سفر لسبب ما . كما كانوا يشتركون فى بعض الاحتفالات الخاصة . ولكن ذلك لم يكن يمنع وقوع بعض ردود الفعل العنيفة من جانب الناس فى رد فعل تجاه تصرفات المسؤولين أو ، بسبب ضعف السلطة وهبتها الغائبة فى أواخر عصر سلاطين المماليك . فقد كثرت حوادث عصابات النسر التى صارت اخبارها شبه يومية فى القرن الأخير من عصر سلاطين المماليك .

كما تعددت حوادث الاضطراب التى كان يتم فيها الاعتداء على موظفى الدول مثل المحتسب والوالى؛ فضلا عما أورده المصادر التاريخية من حوادث اغتيال فرسان المالك، والتعرض لهم بما كان يجعل بعض السلاطين يصدررون أوامرهم بعدم إيذاء ممالك السلطان

فى هذه الدراسة، ، بفصولها الأربعة لاحظنا أن الحياة اليومية لم تكن ذات إيقاع واحد مستمر، وأنها كانت تتغير بحسب ظروف الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بحيث كانت الحياة اليومية مثل شريط سينمائى متصاعد ولم تكن صورة ثابتة ، أو لقطة واحدة، وقد حاولنا فى هذه الدراسة أن نرسم الإطار العام للحياة اليومية فى مصر آنذاك بكل ما كانت تحمله من تناقضات ومفارقات، وتوافقات وانسجام. لكننا لم نحاول التوسع فى ذكر التفاصيل بكل فصل من الفصول التى يضمها هذا الكتاب الموجز .

وأخيرا، يجب أن نضع فى اعتبارنا أن الحديث عن الحياة اليومية فى مصر فى عصر سلاطين المالك قد يتطلب مجلدات كبيرة، ولكننا رأينا أن نضع صورة عامة، ونضع بعض الأمثلة فى كل ناحية من النواحي التى ناقشناها فى هذا الكتاب .

مكتبة الباحث

محرر بحث

قائمة المصادر والمراجع

ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي) :

- معالم القرية في أحكام الحسبة (نشره ليفي) ، كامبردج ، ١٩٣٧ م .

ابن أبيك الوداري (أبو بكر عبد الله) :

- الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر (تحقيق هانس روبرت رومر) ، مكتبة الخانجي ١٣٧٩ هجـ /

١٩٦٠ م .

- الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية (تحقيق أولرخ هارمان) القاهرة ١٣٩١ هـ /

١٩٧١ م .

ابن إياس (محمد بن أحمد) :

- بدائع الوهور في وقائع الدهور (تحقيق الدكتور محمد مصطفى) الهيئة المصرية العامة

للكتاب ، ١٩٨٢ م .

آدم صبره :

- الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك (ترجمة الدكتور قاسم عبده قاسم) ،

المشروع القومي للترجمة ، ٢٠٠٤ م .

آن وولف :

- كم تبعد القاهرة ؟ (ترجمة الدكتور قاسم عبده قاسم) المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٦ م .

ابن بطوطة :

- الرحلة (تحقيق الدكتور منتصر الكنانى) بيروت .

بنيامين التطيلي :

- رحلة بنيامين التطيلي (ترجمة عزرا حداد) ، بغداد ١٣٨٩ هـ .

بيرر طافور :

- رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر (ترجمة الدكتور حسن حبشى) ، دار المعارف

١٩٦٨ م .

جاستون فييت :

- القاهرة ، مدينة الفن والتجارة (ترجمة الدكتور مصطفى العبادى) دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية .

ابن الجيعان :

- التحفة السنية فى أخبار البلاد المصرية .

ابن حبيب (الحسن بن عمر) :

- تذكرة النبىه فى أيام المنصور ونيه (تحقيق الدكتور محمد أمين) دار الكتب والشائق القومية ١٩٧٩ م ، ١٩٨٢ م .

ابن حجر العسقلانى : إنباء الفجر بأنباء العمر (تحقيق الدكتور حسن حبشى) القاهرة ١٤١٨ هجرية / ١٩٩٨ م .

ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدى الفاسى) :

- المدخل إلى الشرع الشريف (القاهرة ١٣٤٨ هجرية)

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) :

- المقدمة (المطبعة الأميرية ببولاق) ١٣٢١ هجرية .

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن) :

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة دار الكتب المصرية)

- منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور (تحقيق محمد فهم شلتوت) ، القاهرة ١٤١١ هجرية / ١٩٩٠ م .

ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير العلالي) :

- الانتصار لواسطة عقد الأمصار (ج ٤ ، ج ٥ نشره فولر) ، بولاق ١٣١٤ هجرية .

السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) :

- التبر المسبوك فى ذيل السلوك (تحقيق الدكتورة لبيبة إبراهيم مصطفى ونجوى مصطفى

كامل) ، دار الكتب والوثائق القومية ١٤٢٦ هجرية / ٢٠٠٥ م .

السبكي (تاج أبو نصر عبد الوهاب) :

- معيد النعم ومبيد النقم (ليدن ١٩٠٨ م) .

ابن سعيد المغربى :

- النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة (تحقيق الدكتور حسين نصار)

سعيد عاشور :

- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية

والاجتماعية ، ٢٠١٩ م .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) :

- حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) ١٣٨٧

هجرية/ ١٩٦٨ م

الصيرفى (ابن داود الصيرفى) :

- نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ أهل الزمان (تحقيق الدكتور حسن حبشى) ١٤١٨

هجرية/ ١٩٩٨ م

- إنباء الهصر بأبناء العصر (تحقيق الدكتور حسن حبشى) دار الفكر العربى ١٩٧٠ م .

ابن شاهين الظاهرى :

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .

١٩.

الشربيني :

- هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف .

ابن عبد الظاهر (محيى الدين بن عبد الظاهر) :

- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر (تحقيق عبد العزيز خويطر) الرياض ١٣٩٦ هجرية /

١٩٧٠م

ابن ظهيرة (غير معروف على وجه التحديد) :

- الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة (تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس) القاهرة

١٩٦٦ م .

عبد الله بن محمد العياشى :

- الرحلة العياشية (طبعة فاس ، ١٣٢٩ هجرية) .

العبنى (بدر الدين محمود)

-عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (تحقيق الدكتور محمد محمد أمين) الهيئة العامة

للكتاب ١٤٠٧ هجرية / ١٩٨٧ م .

القلقشندي (شهاب الدين أحمد بن على)

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (طبعة دار الكتب بدءا من ١٩١٣م)

قاسم عبده قاسم :

-عصر سلاطين المماليك (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٩م)

- الأسواق المصرية فى عصر سلاطين المماليك (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية

والاجتماعية ١٤٣٨هـ / ٢٠١٤ م)

- النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٧٨م) .

-اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى (دار عين للدراسات والبحوث

الإنسانية والاجتماعية ١٤٣٦هجرية / ٢٠١٥ م .

مجدى عبد الرشيد بحر :

- القرية المصرية فى عصر سلاطين المالك (الهيئة العامة للكتاب)

المقرىزى (تقى الدين أحمد بن على) :

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (تحقيق الدكتور أمين فؤاد سيد) . مؤسسة الفرقان

للتراث الإسلامى .

- السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور سعيد عبد الفتاح

عاشور) دار الكتب المصرية .

- إغاثة الأمة بكشف الغمة (تحقيق الدكتور جمال الدين الشبلى)

- الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك .

المتوفى :

- الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد (مخطوط)

النابلسى :

- تاريخ الفيوم وبلاده .

النورى (شهاب الدين بن عبد الوهاب) :

- نهاية الأرب فى فنون الأدب (تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور) الهيئة المصرية

العامة للكتاب ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٢ م .

منشوری_المؤرخین_المصريین

دفتر الطلاب العالم

مكتبة الباحث

رقم الإيداع / ٧٢٠٠ / ٢٠١٩م

الترقيم الدولي I.S.B.N. 978-977-322-411-0

لينكس للطباعة

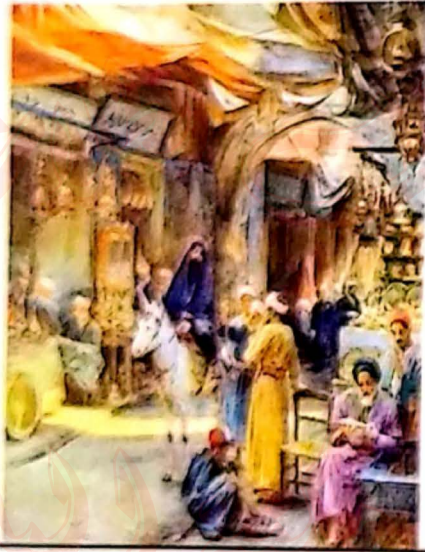
تليفون وفاكس / ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠٠١٠٠٩٦٧٨



دكتور قاسم عبده قاسم

الحياة اليومية في مصر

عصر سلاطين المماليك



خان الخليلي في عصر سلاطين المماليك



للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

ISBN 978-977-322-411-0



9 789773 224110 >